

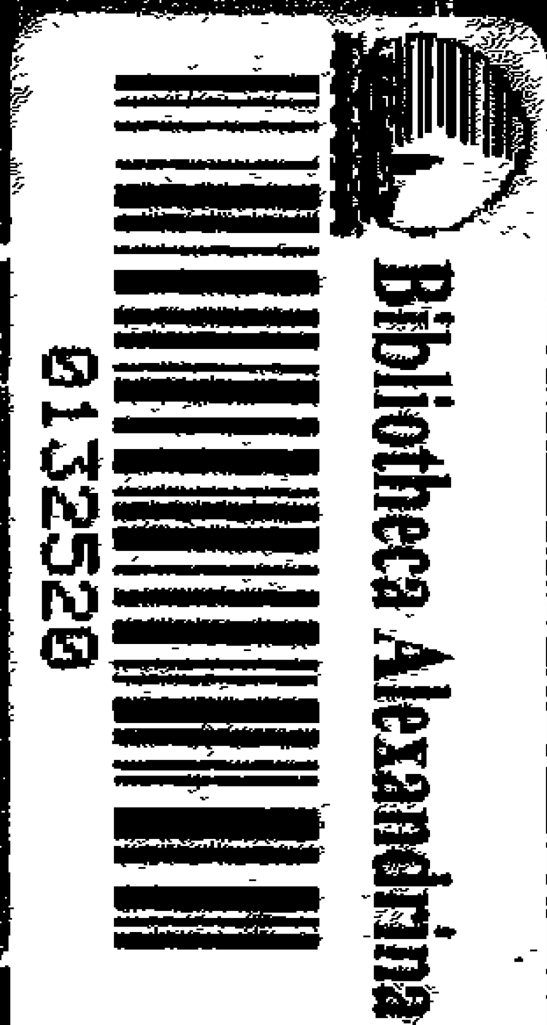
الأسفار المقدسة

قبل الإسلام

دراسة حول الكتب الإلهية في اليهودية والمسيحية

صابر طعيمة

عالم الكتب



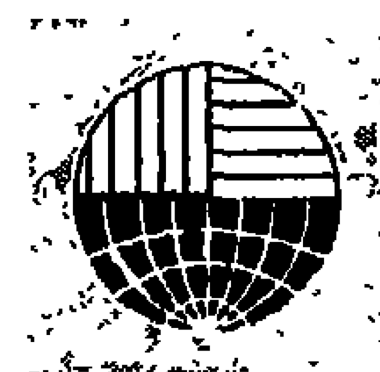
[illegible]

[illegible]

الأسفار المقدسة

قبل الإسلام





بيروت - المزرعة بناية الايمان - الطابق الاول - ص.ب. ٨٧٢٣
تلفون : ٣٠٦١٦٦ - ٣١٥١٤٢ - ٣١٣٨٥٩ - برقياً : نابعلبكي - تلكس : ٢٣٣٩٠

الأسفار المقدسة

قبل الإسلام

دراسة لجوانب الاعتقاد في اليهودية والمسيحية

تحقيق

الدكتور صابر طعيمة

عالم الكتب

الطبعة الأولى
١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بالرغم من سيل المعارف الهائل، الذي تواكب مع عمليات التقدم العلمي، الذي تغيرت به الأوضاع الاجتماعية، وتبدلت به أيضاً الممارسات الاقتصادية والسلوكية، إلا أن أتباع الفلسفات والموروثات من الأفكار الشعبية والعقائد الوضعية، يطلعون بين الحين والآخر مفتنمين الوسائل العصرية، لكي تكون هذه المعتقدات والملمات مقبولة أو معقولة لدى الإنسان المعاصر. وليت البلية عند هذا الحد من التطاول والمسخ، ولكن المزعج حقاً أن لا تتوجه الاهتمامات إلى رد الموضوع، ودحض الباطل، وإنما تتوجه إلى النيل من عقيدة الإسلام وتشريعه بسبب الحقد الدفين ضد الإسلام، وبسبب ما قد يكون بعض المسلمين أو المتنسبين للإسلام قد وقعوا فيه، أو قالوا به، وتنبري الأقلام المسنونة وتتوجه القلوب الحاقدة، لتفتري على الله الكذب، ويدسون من المفتريات والمآثم ضد كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ ما لا يمكن السكوت عليه أبداً.

ولما كنا بفضل من الله قد خصصنا لذلك دراسة واسعة عالجنا فيها هذه المفتريات، ورددنا على القائلين بها بعد أن رصدنا منهم أكثر من مائتي مأجور، وذلك في كتابنا «المستشرقون والمبشرون في موقفهم من الإسلام» فإن هذه الدراسة حول: (الأسفار المقدسة قبل الإسلام) تستهدف مع الرد على خصوم الوحي الإلهي في الإسلام، كشف وإبراز أوجه التناقض، وصور الاضطراب العقدي والموضوعي، الذي يحيط بجملة عقائد اليهود والنصارى. ولئن كان مخطط الدراسة، يستهدف تناول: الأسفار المقدسة قبل الإسلام، وهناك العديد من هذه

الأسفار قبل اليهودية وبعد المسيحية، لكنا آثرنا أن نأتي على أهم وأوسع ما في هذه الأسفار. وهي كتب: العهد القديم والعهد الجديد باعتبارها المصادر العقدية الرئيسية عند أمة اليهود والنصارى بالإضافة إلى أن معظم سهام الحقد الفكري والعقدي التي توجهت ضد الإسلام والمسلمين، قد جاءت من معسكر أمة اليهود والنصارى، ولئن انضم إليهم في العصر الحديث ومع مطلع القرن العشرين، سهام حقد من نوع آخر غير أنها عارية مكشوفة، تحمل طابع الإلحاد الواضح، والكفر الصريح، المعبر عن عقيدة الشيوعيين، وحربهم وحقدهم لكل ما يمكن أن يكون تعبيراً عن الإسلام عقيدةً أو فكراً، اجتماعاً أو اقتصاداً فإن فيما تبناه في الرد عليهم في كتابنا: «الفكر المادي في ميزان الإسلام» لا يجعلنا نضع كتبهم في عداد: الكتب المقدسة، فهم بالرغم من تمسكهم ببعض أفكار قادتهم، إلا أنهم وهم ملاحدة، لا يؤمنون بخالق، ولا يقدسون ما هو أهم من السلعة، ومصادر الإنتاج، يعدلون ويبدلون كل يوم فيها لديهم.

وهذا الجزء من دراسة: «الأسفار المقدسة قبل الإسلام» يتناول في الباب الأول منه: التعريف بالتوراة في أصلها التاريخي وترجيح أصوب الآراء العلمية في تحديد عمرها الزمني، وذلك بهدف الوقوف على زمان تحريفها، وكيفية تحريفها. الأمر الذي وجدنا فيه أنفسنا في الباب الثاني في جو تحريف التوراة ومع أكثر من توراة يؤمن بها اليهود ما بين عبرانية وسامرية.

هذا وقد تناولنا في الباب الثالث، المصدر العقدي الذي يتواكب مع التوراة ويتلازم: وهو: التلمود، وذلك لكي نبحث فيهما معاً: التوراة والتلمود عن مقومات العقيدة الدينية عند اليهود في الباب الرابع. وذلك لكي يكون الباب الخامس معالجة للجانب الإلهي في الأسفار اليهودية، ولكي نبحث فيه عن مصادر التجسيم والتشبيه في العقيدة اليهودية، بعد أن كانت كما أخبر القرآن الكريم على قلب النبي محمد ﷺ توحيداً خالصاً.

وقد خصصنا الباب السادس. للأصول التاريخية للمسيحية وعرضنا لعلاقات اليهود والنصارى عقدياً، عبر قنوات الدين والتاريخ، وكان ذلك تمهيداً لما انتهينا إليه على ضوء أهم البحوث العلمية وأدقها، وهو: رفض أن تكون هناك أدنى صلة للأناجيل الأربعة التي بين أيدي أصحابها، وما يتصل بها، بالوحي الإلهي، أو بالإلهام.

هذا وقد ألحقنا بدراستنا عن «الأسفار المقدسة قبل الإسلام» ملحقاً سياسياً من الناحية الفكرية والعلمية، حول مردود هذه الأسفار في حياة المسلمين المعاصرة. بحكم أن هذا المردود هو الذي ساهم في اقتطاع جزء من أرض المسلمين، تحت مزاعم ومفتريات أتباع العهد القديم، وهذه المزاعم فيما نراها هي التي كانت سند الحركة الصهيونية، إبان مراحل الدعوة لإقامة الدولة. وقد تشكلت وتكونت هذه المزاعم توليداً من معطيات العهد القديم بسبب سكوت معظم علماء المسلمين عبر التاريخ باستثناء قلة منهم عن باطل ومفتريات وإلحاد اليهود في العهد القديم. وأعني بهذا الملحق الفكري الدراسة النقدية التي ألحقناها بآخر الكتاب حول: مفهوم الشعب اليهودي في ضوء الحقائق العلمية والدينية.

والله تعالى أرجو أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه تعالى إنه نعم المولى ونعم النصير.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه

دكتور صابر طعيمة
الأستاذ المشارك بجامعة الإمام
محمد بن سعود الإسلامية
بالرياض.

الباب الأول

التوراة في أصلها التاريخي.
كيف حرفت التوراة.
مكانة التوراة بعد التحريف عند اليهود.
عقيدة إسرائيل في التوراة.

التوراة في أصلها التاريخي

يجب أن يستقر في ذهن المؤمنين أن التوراة، سواء كانت هذه التسمية «توراة» عربية أو عبرية أنها اسم على جملة ما أنزل الله تعالى وحياً على عبده ونبيه موسى عليه السلام، أي أن التوراة في أصلها العقدي والتاريخي وحدة دينية تمثل ما أنزل الله تعالى على موسى ولا خلاف في هذا عند المسلمين.

أما واقع التوراة التي بأيدي اليهود والتي تعرضت لأطوار شوهت صورتها وحقيقتها منذ بعثة النبي محمد ﷺ حتى الآن فهي موطن ريبة لا يقام بها الحجة ولا يعتقد في صحتها منذ ذلك الوقت، وللقرآن حكمه الصريح فيها.

أما واقع التوراة الحالية من وجهة النظر اليهودية، فهو ما تشمله التوراة من أخبار وحوادث بل إنها تتحدث عن أمور قبل ذلك التاريخ منذ نشأة البشرية حتى نهاية عهد موسى (عليه السلام) وهو ما نزل عليه (عليه السلام) وما نزل على أنبياء من بني إسرائيل من بعده لفترة ثمانية قرون حتى السبي البابلي وما بعده فلليهود على اختلاف فرقهم الدينية آراء فيها ما بين تقديس وإجلال وما بين شك وارتياب.

أما واقع التوراة المتداولة من وجهة نظر البحث العلمي فمحتواها من عقيدة وفكر وحوادث وما تحكم به هي على نفسها وتاريخها، كل ذلك يدل على تحريفها وظلامها الدامس في أغلب مجالاتها ومعطياتها.

هذا وللقرآن الكريم حكم صريح في التوراة المنزّلة من كونها هدىً ونوراً وضياءً أو فرقاناً يفرّق بين الحق والباطل، وأن الألواح التي نزلت على موسى (عليه السلام) فيها تفصيل لكل شيء وهدىً ورحمةً وإن فيها حكم الله، يلتزم به النبيّون وأتباعهم منذ نزولها حتى نزول الإنجيل الذي حرّم بالنسخ بعض ما فيها، واستمرت بقية أحكامها نافذة حتى بعثة محمد (ﷺ) الذي أنزل الله تعالى عليه القرآن الكريم مهيمناً عليها وعلى الإنجيل ليكون القرآن كتاب الله الخالد هو الحكم وعليه وحده عند المؤمنين حقاً يكون المعوّل وبه يكون الالتزام.

كما أن للقرآن الكريم حكماً آخراً صريحاً في التوراة الحالية المحرّفة التي أخفى منها اليهود كثيراً من الأحكام والأخبار، والتي نسوا منها وحرّفوا فيها وغيّروها كما يثبت رأي كثير من اليهود في شكهم وريبتهم في توراتهم القائمة وحكم القرآن الكريم في هذه القضية يفوق كل الأحكام العالمية موضوعية وأمانة وعدلاً.

يقرر القرآن الكريم أن جميع ما أتى به الأنبياء والرُسل عن الله إنما هو حق ويجب الإيمان به، ويصدقه قوله تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ، فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[1].

ويخصّص القرآن الكريم (التوراة) من بين ما نزل على الأنبياء ويدلي بشهادته المحكمة بشأنها فيقول سبحانه:

﴿ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ

---

(١) البقرة: (١٣٦/١٣٧).

دُونِي وَكِيلاً ﴾[1]، ويقول ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ بِالحق مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنْـزَلَ الفُرْقَـانَ ﴾[2]، ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الكِتَابَ * هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الأَلْبَابِ ﴾[3].

هذا وفي حكم القرآن العادل يصف رب العالمين لا رب إسرائيـل وحدهم التوراة بأنها نور وبأنها تتضمن الخير الكثير يستنير بها الإنسان الذي توجهت إليه دعوة التوراة في متاهات الحياة ويسترشد بنورهـا في ظلمات المشكلات ومسالك الحياة الملتوية ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾[4].

وقوله تعالى ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتَابَ الَّذِي جَآءَ بِهِ مُوْسَىٰ نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ ﴾[5]. ويقرر القرآن الكريم أن التوراة إضافـة إلى النور والهـداية والرحمة هي وحي الله تعالى: ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوْسَى الكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾[6].

هذا ويصف القرآن التوراة بأنها ضياء وفرقـان يفرّق بهـا بين الحق والباطل إذ هي ذكرٌ للأتقياء العاملين بها وهي الميزان لهم في كل أمر من أمور الحياة ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾[7].

ويصفها القرآن الكريم بأن فيها تفصيلاً لكل شيء فيقول سبحانه ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾[8].

---

(١) الإسراء: (٢).
(٢) آل عمران: (٣/٤).
(٣) غافر: (٥٣/٥٤).
(٤) المائدة: (٤٤).
(٥) الأنعام: (٩١).
(٦) الأنعام: (١٥٤).
(٧) الأنبياء: (٤٨/٤٩).
(٨) الأنعام: (١٥٤).

وقد حكم بها الأنبياء والربانيون ورجال الدين اليهود، حكم بها اليهود وتعلقوا بقدسيتها قال تعالى ﴿ . . . يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾[١] وقوله ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يتوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَـٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾[٢] ويحكم القرآن الكريم على الذين لم يحكموا بما في التوراة المنزلة قبل دعوة النبي الخاتم محمد ﷺ بأنهم كفار وظالمون لأن حكم الله لا بدّ أن يكون نافذاً في عباده ولهذا أنزل حكم التوراة هذا نافذاً حتى نزول القرآن الكريم وانتهى حكمه بحكم القرآن ﴿ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ـ الخطاب لليهود ـ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هم الكَافِرُون ﴾[٣] ﴿ . . . وَمَنْ لَّمْ يَحْكُم بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[٤].

هذا ويصف الله تعالى التوراة التي أنزلها على عبده موسى بما يصف به القرآن الكريم من هدىً ونور وفرقان وتفصيل كل شيء وكتاب حكم إذ هما من نبع واحد من الله العليم الحكيم. ولا غَرْوَ في ذلك فالقرآن نورٌ كما أن التوراة نور ﴿ قَدْ جَآءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾[٥] ـ أي القرآن الكريم.

والقرآن الكريم هدىً كما أن التوراة هدىً ﴿ هَذَا هُدًى ﴾[٦] ـ أي القرآن ـ ﴿ يَهْدِي بِهِ ـ أي القرآن ـ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٧].

---

(١) المائدة: (٤٤).
(٢) المائدة: (٤٣).
(٣) المائدة: (٤٤).
(٤) المائدة: (٤٥).
(٥) المائدة: (١٥).
(٦) الجاثية: (١١).
(٧) المائدة: (١٦).

والقرآن فرقان كما أن التوراة فرقان ﴿ وَأَنْزَلَ الفُرْقَانَ ﴾[1] ـ أي القرآن ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾[2].

ويجيء القرآن الكريم ويضع كتاب الله التوراة في مكانه اللائق به باعتباره وحياً منزلاً لا أساطيراً كتبتها الأحبار والكهّان والقادة فيقرر ربّ العالمين في القرآن الكريم أنه تفصيل لكل شيء كما أن التوراة كذلك ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾[3] ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾[4] ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ ـ أي القرآن ـ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[5].

والقرآن الكريم كتاب حكم ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَآ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾[6]. ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾[7].

ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يقرر أن الإنجيل الذي نزل على عيسى يؤمن بالتوراة ويصدقها غير أنه يحل بعض ما فيها من محرّم ﴿ ... وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ... ﴾[8] ـ وقوله ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِمْ بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ، وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[9]. ولئن

---

(١) آل عمران: (٤).
(٢) الفرقان: (١).
(٣) الأنعام: ٣٨.
(٤) الإسراء: (١٢).
(٥) النحل: (٨٩).
(٦) المائدة: ٤٩.
(٧) النساء: (١٠٥).
(٨) آل عمران: (٥٠).
(٩) المائدة: (٤٦).

جاء في الإنجيل الذي بين يدي أتباعه اليوم ما يفيد تصديقه للتوراة فإنه ليس في قوة خبر القرآن الكريم، جاء في إنجيل (متّى) الإصحاح الخامس ـ الفقرة السابعة عشرة والثامنة عشرة في أن عيسى (عليه السلام) ما أتى لهدم الشريعة اليهودية في التوراة وإنما أتى لإكمالها (لا تظنّوا أني جئت لأنقض الناموس الشريعة أو الأنبياء. . . ما جئت لأنقض بل لأكمل. فإني ألحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحد من الناموس حتى يكون الكل)(١).

هذا وقد أخبر القرآن الكريم أن التوراة ألواح منزلة من الله مكتوبة من قبله عزّ وجلّ فيها خير عميم وتفصيل لكل شيء تلزم موسى بأخذها بقوة وتلزم قومه أن يأخذوا بأحسنها ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾(٢).

وفي الألواح مما كتبه الله عزّ وجلّ خير عميم وهُدًى ورحمةً لمن يخشونه ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾(٣).

---

(١) إنجيل متّى/ ٥، ١٧/ ١٨.
(٢) الأعراف: (١٤٥).
(٣) الأعراف: (١٥٤).

كيف حُرِّفَت التوراة

كما حكم القرآن الكريم بأن التوراة التي أُنزلت على موسى كتاب حق وهدى فقد حكم كذلك علىٰ صدق الدعوة التي رأت كلمات الله في التوراة وهديه وقد تعرضت للأهواء وعمل بها الزيف والهوى عمله ما بين إخفاء وكتمان وتحريف ولذا فقد طلب رب العالمين في القرآن من الذين زعموا صحة التوراة كاملة حتى عصر النبي محمد ﷺ أن يأتوا بالتوراة كاملة، لكنهم لم يأتوا بها ولم يسمعوا ذلك لأن التوراة التي بأيديهم غير تلك التي نزل بها الوحي، يقول رب العالمين في كتابه القرآن الكريم ﴿ ... قل فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1] ـ ويقول سبحانه كاشفاً حقيقة الموقف اليهودي ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ وَيَعْفُواْ عَنْ كَثِيرٍ... ﴾[2].

والخطاب هنا لأهل الكتاب مجتمعين ـ اليهود والنصارى ـ ومما أخفياه من كتابيهما ـ العهد الجديد والعهد القديم ـ البشارة بالنبي محمد (ﷺ) وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ... ﴾[3].

(١) آل عمران: (٩٣).
(٢) المائدة: (١٥).
(٣) الأعراف: (١٥٧).

وقد أوضح القرآن الكريم أن اليهود كانوا يكتبون التوراة على قراطيس يبدون بعضها ويكتمون الكثير: ﴿ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتَابَ الَّذِي جَآءَ بِهِ مُوسَىٰ نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّـهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾(١).

وتحريف بني إسرائيل واليهود للتوراة المنزلة قصداً ونسيانهم الكثير من نصوصها من غير قصد هي بسبب نقضهم ميثاقهم مع الله أن يحفظوا كتابه ولكنهم خانوه بالتحريف المقصود والنسيان بسبب الإهمال وعدم الإكتراث به لذا فإنهم لموقفهم المُشين من كتاب ربهم بالتحريف والنسيان استحقوا اللعنة وصاروا قُساة القلوب وخونة: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ عَنْ مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ ﴾(٢). ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(٣).

فالتوراة الحالية طرأ عليها ـ بحكم القرآن الكريم ـ أصول أربعة: (التحريف والتبديل) و(النسيان غير المقصود) و(الإهمال والإخفاء المقصود) و(لبس الحق بالباطل) وهذه الأسباب هي التي كانت وراء حكم القرآن على أهل التوراة بالتحريف وهي الأسباب التي حدت بأهل القرآن الكريم إلى عدم إقرار توراة اليهود الحالية من وجهة الحكم القرآنية ـ عقيدة ومنطقاً.
كذلك فإن القرآن الكريم يشير إلى أن أهل التوراة من بني إسرائيل: اليهود والنصارى في شك من توراتهم يقول الله تعالى في القرآن الكريم ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾(٤) ومن عجب أن القدماء والمحدثين من أهل التوراة في شك مريب من صدقها.

---

(١) الأنعام: (٩١).
(٢) المائدة: (١٣).
(٣) البقرة: (٧٥).
(٤) فصّلت: (٤٥).

مكانة التوراة بعد التحريف عند اليهود

إن التوراة لتحدد مكانتها عند اتباعها بما تحتويه من نصوص صريحة تلزم المؤمنين بها بسلوك خاص يتجاوب مع محتوى نصوصها كذلك فإن لليهود آراءهم الخاصة بقدسية التوراة ومكانتها. فلا بدّ من بيان موقفين. موقف العقيدة اليهودية الكامنة في التوراة إزاء التوراة. وموقف اليهود منها.

فتحدد التوراة مكانتها في نصوصها الصريحة لتكون هذه المكانة في قلوب أتباعها وعقولهم مقدسة لذا فإنها تضع مكانتها في الأبعاد التالية:

البعد الأول: إن أحكام التوراة فيما تزعمه نصوصها خالدة إلى قيام الساعة، وليست لفترة محدودة من وجهة نظر أصحابها، كما ورد في خطاب الله تعالى ليعقوب (عليه السلام) في التوراة المتداولة (. . . أما أنا فهذا عهدي معهم قال الرب، روحي الذي عليك وكلامي الذي وضعته في فمك لا يزول من فمك ولا من فم نسلك ولا من فم نسل نسلك، قال الرب من الآن وإلى الأبد)(١).

البعد الثاني: التوراة الحالية حياة عملية ونظام حكم وسلوك عملي للمؤمنين وذلك ظاهر في النص الذي يعتقدون أنه خطاب الله ليعقوب (عليه السلام) - إسرائيل:- (فالآن يا إسرائيل إسمع الفرائض والأحكام التي أمامكم لتعلموها لكي تحيوا وتدخلوا وتتملكوا الأرض التي الرب إله آبائكم

(١) سفر أشعياء /٥٩/٢٠، ٢١.

يعطيكم، لا تزيدوا على الكلام الذي أن أُوصيكم به ولا تنقصوا منه لكي تحفظوا وصايا الرب إلهكم التي أنا أُوصيكم بها)[1].

وهذا يعني أنها ما دامت نظام حياة فلا ينبغي الزيادة عليها ولا النقص منها بل حفظها كاملة والعمل بها لينالوا أرض كنعان ـ كذا ـ وهي فلسطين أرض الميعاد ـ كما يعتقدون بوعود توراتهم المحرفة، وما دامت التوراة الحالية هي حياتهم، أي نظام حياتهم، لذا فلا بد من الحرص عليها جميعها من غير استثناء والعمل بها وبجزئياتها (. . . لكي توصوا بها أولادكم ليحرصوا أن يعملوا بجميع كلمات هذه التوراة لأنها ليست أمراً باطلاً عليكم بل هي حياتكم)[2].

البعد الثالث: المتعلق بأمر هذه التوراة أنها بين سياق نصوصها تتضمن دعوة للتوراة نفسها دعوة تملك شغاف قلوب المؤمنين بها. حبّاً لها ولمنزلتها، حبّاً يستقر في سويداء القلوب ثم ينطلق بسلوك عملي ودعوة وقدوة في الأمر داخل البيوت مع أتباعها أفراداً وجماعات حيثما رحلوا وأقاموا وفي كل زمان ومكان، لينالوا أرض فلسطين ـ على زعم توراتهم المحرّفة (فضعوا كلماتي هذه على قلوبكم ونفوسكم واربطوها علامة على أيديكم ولتكن عصائب بين عيونكم وعلموها أولادكم متكلمين بها حين تجلسون في بيوتكم وحين تمشون في الطريق، وحين تنامون وحين تقومون واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك لكي تكثر أيامك وأيام أولادك على الأرض التي أقسم الرب لآبائك أن يعطيهم إيّاها كأيام السماء على الأرض. . .)[3].

فالتوراة ـ التوراة الحالية ـ يجب استقرارها في نفوس أتباعها في كل حالة من حالات هدأتهم ونشاطهم وراحتهم وجدهم وقيامهم

---

(١) سفر تثنية /٤/٢ ـ ٣.
(٢) سفر تثنية /٣٢/٤٦/٤٧.
(٣) سفر تثنية /١١/١٨ ـ ٢٢.

وقعودهم ولتكن في بؤرة الإدراك تهدي إلى الحياة المستنيرة كما يجب أن تكون دعوة إعلامية خاصة بين أتباعها ودعوة إعلامية عامة (اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا واحد. . . فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك ولتكن هذه الكلمات التي أنا أوصيك بها اليوم على قلبك وقصّها على أولادك وتكلم بها حين تجلس في بيتك وحين تمشي في الطريق وحين تنام وحين تقوم واربطها علامة على يدك ولتكن عصائب بين عينك)[1].

---

(١) سفر تثنية ٦/٤ ـ ٨.

عقيدة إسرائيل في التوراة

تتنوع عقيدة شعب إسرائيل في النظر إلى التوراة وتتعدد، غير أن هذه النظرة تنحصر في تيارين رئيسيين يمثلان حركة التاريخ الديني لشعب إسرائيل في عقيدة التوراة، وأول هذين التيارين التاريخيين من حيث الأهمية والتعلّق والتعصّب: كل ما جاء في التوراة عند شعب العهد الجديد أو من يسمون بالمسيحيين وذلك بسبب إيمانهم المطلق بها وبكل ما جاء بها يؤكدها إنجيل متّى بقوله (ما جئت لأنقض بل لأكمل)[1].

فالعهد القديم (التوراة) والعهد الجديد (الأناجيل الأربعة والرسائل وأعمال الرُسُل والرؤيا) بمجموعها يمثلان كتاب النصارى المقدس المسمى بـ (الكتاب المقدس) لذا فإن تصريحات النصارى الدينية والسياسية وجدلهم في دعوتهم وتبشيرهم بها يعتمد على التوراة كما يعتمد على العهد الجديد. لذا فقد حمل النصارى ـ أتباع عيسى بن مريم (عليه السلام) التوراة وكتاب الإنجيل وما يليه معاً، ووضعوهما في مجلد واحد أسموه (الكتاب المقدس). التيار الثاني في الاعتقاد التاريخي بأهمية التوراة وقد سبقتها اليهود. ذلك أنه من المُسَلّم به أن جميع اليهود يعتقدون بقدسية التوراة وجعلها دستوراً لحياتهم تحت وطأة الوعود الموجودة في توراتهم المحرّفة ـ بقيام دولتهم في فلسطين ومن أجل هذا هاجروا إليها، وقد صرّح بذلك حديثاً (بيجال ألون) بقوله (جاء اليهود إلى

---

(١) إنجيل متى /٥/١٧.

البلاد... لكي يستردوا الأرض التي يعتقدون أنها كانت أرض آبائهم، الأرض التي وعدها الله لهم ولذراريهم في العهد القديم، قبل آلاف السنين بين الله وإبراهيم)[1] ويعلنها اليهودي المشهور (ادولف كريميو) صراحة بأن جنسية اليهود هي دينهم ولا يعترف بقومية أو بجنسية غيرها (جنسيتنا هي دين آبائنا ونحن لا نعترف بأية قومية أو جنسية أخرى)[2].

كما يعلنها صريحة الزعيم الصهيوني (كلاتزكين) أن التوراة هي نظام حياة... وهي التي توحدهم وتربطهم وتنظم كيانهم المغلق ووراء هذا النظام تقوم الدولة اليهودية.

كما يعتقد ويعتقد بذلك أيضاً من وراءه من اليهود (الدستور اليهودي وحده الذي يسير شؤون حياتنا هو التوراة. نحن نشكل بأنفسنا كياناً مغلقاً وتعاوناً مترابطاً وثمة جدار يفصل بيننا وبين الشعوب التي نعيش في بلادها، وخلف هذا الجدار تقوم الدولة اليهودية)[3].

ولذا فإن اليهود بدينهم القائم على التوراة يتكتلون مع بعضهم شعباً واحداً لا يجمعهم إلا دينهم من غير خداع ولا لف ولا دوران إنهم يقولونها صراحة: (كفى خداعاً وأحابيل ودعونا نعلنها صراحة: إننا يهود عالميون)[4]. هذا ما قاله الزعيم اليهودي (جيرالد سومان). ويعلنها أوضح وأصرح أبو الصهيونية الحديثة (د. حاييم وايزمن): ها نحن يهود فقط ولا شيء آخر شعب داخل شعوب)[5].

لكن المحيّر حقاً هو ما يطالعه المرء من صفحات التاريخ اليهودي في العصر الحديث، فقد حدث ذات يوم واليهودي الذي كان وراء فكرة إنشاء

---

(١) مجموعة من أساتذة اللاهوت: (إسرائيل في الكتاب المقدس) ترجمة حسين خشية، نشر معهد الدراسات العربية العالي ـ جامعة الدول العربية ـ القاهرة عام ١٩٦٩ صفحة ٩.

(٢) (زهدي الفاتح) (اليهود) دار النفائس بيروت صفحة ١٢١ وما بعدها.

(٣) نفس المصدر السابق، صفحة ١٢١.

(٤) المصدر السابق، صفحة ١٢١.

(٥) المصدر السابق، صفححة ١٢١.

وطن قومي لليهود في فلسطين بعد عصر الثورة الصناعية أنه كان ذات يوم بعد مؤتمر (بازل) الشهير وهو يخطب والمحراب على يمينه، والزحام مستمر من حوله وكان يضطر رويداً رويداً للاستدارة وإعطاء ظهره للمحراب ولّما كان الحرج بدا عليه من أثر ذلك الموقف، فإذا بصوت يرتفع بين الحضور أدِر ظهرك للمحراب، فإنك عندنا أقدس من التوراة. وهذا هو العجب العجاب[1].

(١): الصهيونية في التاريخ. القاهرة عام ١٩٦٧ للمؤلف. صفحة ١١٧.

الباب الثاني

النظرة الإجمالية على توراة اليوم.
دلالة نصوص التوراة.
أكثر من توراة بيد اليهود.
أوجه التشابه بين التوراتين العبرانية والسامرية
التوراة الحديثة.

النظرة الإجمالية على توراة اليوم

قبل أن نعرف بالتوراة وكتبها باعتبارها تمثل الجزء الأعظم من أسفار اليهود الدينية فلا بدّ لمن يتصدى للحديث عن التوراة التي بأيدي أصحابها من نظرة إجمالية موجزة لا تنقصها الموضوعية ولا تحكمها العاطفة وهذه النظرة يجب أن تكون منطلقة من اعتبارين أو أن تكون معنية بأمرين أساسيين أولهما: المحتوى.

أما المحتوى: فعلينا أن نحلله لنعلم موضوعاته التي تعبر عن هذا المحتوى ونحكم أنها تصلح لأن تكون صادرة عن الله أم عن غيره؟ ونحلل نصوصها التي تقوم على التحريف والتبديل والزيادة والنقصان لكي يكون الحكم على ضوء نصوصها، ومن ثم نحلّل تاريخها وهذا هو الحكم العدل.

هذا ومن المعروف عن محتوى هذه التوراة الحالية بتحريفاتها العديدة أنها تقع في مجلد ضخم هو أربعة أضعاف حجم القرآن الكريم ويحتوي على (٣٩) تسعة وثلاثون سفراً هي كما يلي تباعاً، ابتداء بالسفر الأول وانتهاء بالسفر الأخير: (التكوين، الخروج، اللاويين العدد التثنية يشوع القضاة راعوث، صموئيل الأول، صموئيل الثاني الملوك الأول، الملوك الثاني، أخبار الأيام الأول، أخبار الأيام الثاني عزرا نحميا، أستير، أيوب المزامير، الأمثال الجامعة نشيد الإنشاد أشعياء أرميا، مراثي، أرميا، حزقيال، دانيال، هوشع، يوئيل عاموس، عوبيديا يونان ميخا ناحوم حبقوق صفنيا حجي زكريا ملاخي). هذا وإن من يستعرض التوراة الحالية من أولها لآخرها يلحظ فيها

موضوعات مختلفة منوعة يمكن أن نصنفها إلى صنفين رئيسيين:

١ ـ **المحاسن**: في حقل العقيدة والاجتماع والتشريع وبعض نفحات روحية في مناجاة الله عزّ وجلّ، ولكنها محدودة هي أشبه بومضات أو بصيص نور في متاهة من الظلام الدامس.

أما مجالات العقيدة فهي ظلام حالك ولكن ما فيها من نفحات روحية محدودة تتحدث عن الله عزّ وجلّ ـ حبه وطاعته ومناجاته والالتجاء إليه وتوحيده فهو قليل.

أما مجالات الخلق والاجتماع: فهي متاهات الشر والأذى والحقد الدفين على الناس جميعاً غير أن فيها أخلاقاً وآداباً وقيماً لكنها محدودة ثم إن اليهود يفسرونها جميعها لهم وحدهم يتعاملون بها دون سائر الناس «فهي أخلاق يهودية بين اليهود». أما أخلاقهم مع الأغيار أو «الجوييم» فعلى نقيضها كما تشير إليه التوراة ويفصله التلمود.

أما التشريع التوراتي: ففيه ما يطابق القرآن الكريم في بعض أحكام القصاص ـ وهو حق ولكنه في غير ما يطابق القرآن الكريم تشريع بدائي مشحون بالخرافة. وإن الخير الذي فيه مقصور على اليهود وحدهم دون سائر الناس ولا يفيد منه اليهود في التعامل الإنساني بشيء ـ إذ هو لهم وحدهم. والله رب إسرائيل ـ وليس رباً للعالمين!

٢ ـ **المساوىء**: أما إذا انتقلنا إلى ما فيها من ضرر أو مما لا نفع فيه فإننا نلحظ ما يلي:

نلحظ أن ما تبقى من التوراة مشحون بانحراف اليهود في العقيدة في الإله والأنبياء وانحراف عن دين وتشريع وأحكام الخالق إلى التحلّل الجنسي والجنون والإباحية سواء ذلك لدى الأنبياء والكهنة والربانيين وعموم الشعب. كما أنه مشحون بحروب إبادات جماعية لليهود ولغيرهم بأفظع ما يتحبله دهاة الإجرام وسفاكوا الدماء وهي فيما يعتقدون نتيجة

وصايا ربانية تلزمهم بها كذلك، وإنها مليئة بذم الله إيّاهم وانتقامه منهم بأقسى وسائل الانتقام.

أضف إلى كل هذا أن الخرافات والكلام الذي لا وزن له ولا نفع فيه تعج به التوراة ونكاد لا نرى إصحاحاً إلا وفيه الكثير من ذلك.

أما انحرافهم في العقيدة الإلهية والنبوّة فذلك أمر بشع فظيع إن التوراة (الحالية بشكلها الحالي ليست توراة موسى التي تلقاها من الله والتي أشار القرآن الكريم إلى كونها نوراً وهدىً يحكم بها النبيون.

لذلك فإن محتوى التوراة الحالية هو نفسه الذي يحكم على تحريفها وكونها ليست من الله عزّ وجلّ ولن يصدر عن الله سبحانه وتعالى معانٍ وتوجيهات كهذه (والله يقول الحق وهو يهدي السبيل)[1].

(١): لمزيد من الوقوف على جوانب الخطيئة والإثم في معطيات توراة اليوم يحكم مراجعة أحد كتب العهد القديم. والمسمى «نشيد الإنشاد».

دلالة نصوص التوراة

آمنا بتحريف التوراة من خلال نصوص القرآن الكريم، ولكن القرآن الكريم لا يؤمن به إلا المسلم، أما اليهود والنصارى فإيمانهم بالتوراة من خلال نصوصها الصريحة ولكن ماذا يجيب أهل التوراة لو عرضت لهم نصوص تحريف التوراة من التوراة نفسها؟! إنها تنص على أن الكهنة ورجال الدين بل حتى الأنبياء - برأيهم الله - أسهموا في الكذب على الله وتحريف ما نزل من عنده! - حاشا لأنبياء الله - وهذا في الواقع من القضايا المحيّرة في قصة تدوين التوراة.

١ - **أما الأنبياء**: فتنص التوراة على ما يلي: - من أنبياء السامرة من تنبأ بعبادة البعل وأضلّ اليهود (وقد رأيت في أنبياء السامرة حماقة تنبؤا بالبعل وأضلوا بالكذب ويشددون أيادي فاعلي الشر حتى لا يرجعوا الواحد عن شره)[١].

أ - **كذب الأنبياء على الله صراحة**: (صار في الأرض دهش وقشعريرة، الأنبياء يتنبؤون بالكذب والكهنة تحكم على أيديهم، وشعبي هكذا)[٢] وكذا (فتنة أنبياؤها في وسطها كأسد مزمجر يخطف الفريسة... وأنبياؤها قد طينوا لهم بالطغال رائين باطلاً وعارفين لهم كذباً قائلين هكذا قال السيد الرب والرب لم يتكلم...)[٣].

(١) سفر أرميا /٢٣/٣ - ١٤.
(٢) سفر أرميا /٥ - ٣٠.
(٣) حزقيال ٢٢/٢٨ - ٢٩.

وإن عموم الأنبياء كما يزعم النص التوراتي المحرّف قد أسهم بالكذب على الله وهو أمر فظيع لا يمكن أن يصدق وهو إساءة إلى جميع الأنبياء مع رسوخهم في التقوى والتزامهم بالطاعة (قد سمعت ما قالته الأنبياء الذين [illegible] باسمي بالكذب قائلين حلمت حلمت حتى متى يوجد في قلب الأنبياء المتنبئين بالكذب بل هم أنبياء خداع قلبهم، الذين يفكرون أن ينسوا شعبي اسمي [illegible] لأجل البعل)(١) (... وكيف يسجل كتاب مقدس على أنبيائه أن قصارى همهم التفكير في أن يبعدوا شعب الله عن الله وينسوه اسمه الكريم وقصارى حيلتهم الخداع والكذب خداع مع الناس وكذب على الله!

ولا تقتصر التوراة على تعميم الكذب والخداع والتضليل على أنبيائها فحسب بل تسمى -على سبيل المثال والتخصيص- أسماء للأنبياء لترسيخ التهمة عليهم (وقد أحاط أفرايم (نبي) بالكذب وبيت إسرائيل بالمكر ولم يزل يهوذا شارداً عن الله وعن القدوس الأمين)(٢).

أما كذب الأنبياء فسيجيء في سياق الحديث عن دلالة النبوّة والرسالة الإلّهية في كتب العهد القديم غير أن الذي نودّ أن نلفت إليه أنه لم يقتصر وصف الأنبياء في التوراة على الكذب والخداع والتضليل والتلفيق على الله تعالى والإضلال فحسب، وإنما زاد على كونهم صيادين للشر والوقيعة بالناس باسم الدين وتجاراً، إضافة إلى كونهم حاقدين!! (النبي فخ صياد على جميع طرقه، حقد في بيت إلّهه)(٣) وهم إلى جوار ذلك غشاشون (لأنه هكذا قال رب الجنود إلّه إسرائيل لا تغشكم أنبياؤكم الذين في وسطكم وعرّافوكم ولا تسمعوا لأحلامكم التي تتحملونها. لأنهم إنما يتنبؤون لكم باسمي بالكذب، أنا لم أرسلهم - يقول الرب)(٤).

---

(١) أرميا ٢٣/٢٥ - ٢٩.
(٢) سفر هوشع: ١١/١٢.
(٣) سفر هوشع: ٩/٩.
(٤) أرميا /٢٩/٨ - ١٠.

هكذا واقع الأنبياء إزاء كلام الله بحكم التوراة الحالية التي يؤمن بها اليهود ـ كذب على الله وادّعاء عليه وتنبؤ باسمه واصطياد الناس بكلامه وإتجار بالدين وخداع وتنفير لهم عن الله ودعوة إلى الشرك بعبادة غيره ونسيانه وفجور وفسوق. هكذا واقع من يبلغون عن الله وواقع مادة التبليغ كلام الله لذا حقّ انتقام الله تعالى منهم (لذلك هكذا قال رب الجنود عن الأنبياء، ها أنذا أُطعمهم أفسنتينا وأسقيهم ماء العلقم لأنه من عند أنبياء أورشليم خرج نفاق في كل الأرض هكذا قال رب الجنود لا تسمعوا لكلام الأنبياء الذين يتنبأون لكم[1].

أما الكهنة والربيون ـ رجال الدين: فمعهم العذر أن استووا مع الأنبياء والمرسلين في الصفات السالفة، وهي جرأة منهم أن يسهموا في الكذب على الله ويمارسوا حقهم الطبيعي في التشريع إذ هم يتكلمون عن الله (إن كلمات الله الحية)[2] بل إن كلام الربانيين أشد عذوبة من كلمات الله (إن كلمات الربانيين لأشد عذوبة من كلمات الأنبياء) (وأنهم والنبيين قد ترنحوا وثملوا وضلّوا فكيف يهدون وكيف يوجهون)؟!

(الكاهن والنبي ترنحا بالسُكر ابتلعهما الخمر، تاها من السكر ضلّا في الرؤيا، قلقا في القضاء فإن جميع الموائد امتلأت قيئاً وقذراً ليس مكان لمن يعلم معرفة ولمن يفهم تعليماً) (كهنتها خالفوا شريعتي ونجسوا قداسي) فرجال الدين مخالفون لشريعة الرب ومنجسون لقدسه فماذا تتوقع أن يصدر منهم غير الضرر والإضرار، (. . . ومن النبي إلى الكاهن كل واحد يعمل بالكذب) ، ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن جميع اليهود أسهموا بالكذب على الله سبحانه وبتحريف التوراة على ضوء المتغيرات والأحوال التي كانت تلائمهم ولم يقف التحريف لكلام الله وكتابه على مشرعّي الدين اليهودي ـ الأنبياء والكهنة والربانيين، وإنما شمل جميع اليهود، فكتابهم ينص على

---

(١) سفر أرميا /٢٣/١٥ ـ ١٦.

(٢) زهدي الفاتح في كتابة التلمود ص ١٠٢.

تحريفهم إياه واعتدائهم الصريح على دين الله! (أما وحي الرب فلا تذكروه بعد لأن كلمة كل إنسان تكون وحيه إذ قد حرفتم كلام الإله الحي ـ رب الجنود إلهنا) وهذا تصريح واضح من التوراة شاهد على أن كلام اليهود كانوا ينسبونه إلى الله فاختلط وحي السماء بكلام أهل الأرض فتحرفت التوراة، لذا فإن الله يهددهم ويتوعدهم ـ (ويل للنبيين المتمردين ـ يقول الرب ـ حتى أنهم يجرون رأياً وليس مني ويسكبون ـ سكباً وليس بروحي ليزيدوا خطيئة على خطيئة لأنهم شعب متمرد أولاد كذبه يقولون: حيدوا عن الطريق ميلوا عن السبيل اعزلوا من أمامنا قدوس إسرائيل أما شعبي فلم يعرف قضاة الرب! كيف يقولون نحن حكماء وشريعة الرب معنا؟ حقاً إنه إلى الكذب حولها قلم الكتبة الكاذب. خزي الحكماء ارتاعوا وأخذوا. . .)[1].

فأية جرأة للمتمردين على الرب الذين يتكلمون على الله كذباً وينسبون إليه كلاماً لم يقله أن يحدثوا بكذبهم على الله الناس!!

حقاً: إن الأمر في غاية الغرابة.

ولم يقتصر سلوكهم مع الله على أن يفتروا عليه، وإنما أرادوا تنفير الناس وتنفير اليهود من الله!!

أية قيمة وضِعة لليهود من توراتهم التي تنزلهم إلى هذا الدرك!!

وهذه هي صورة واقعهم في الكذب على الله وعلى الناس في تعاملهم وواقعهم في تنفير الناس وإبعادهم عن الله، ومنهم دعاة الإلحاد وقادة الفكر الشيوعي الملحد! فلا عجب أن نجد عناصر فكرية تضيق ذرعاً بمفتريات اليهود في التوراة التي بين أيدينا اليوم.

---

(١) سفر أرميا ٨/٧ ـ ١٠.

أكثر من توراة بيد اليهود

يطول بنا البحث لو استعرضنا التطور التاريخي لقصة كتب التوراة المحرّفة في أهم لغات العالم وخاصة أننا في العصر الحديث أمام وجهات نظر عديدة حول تحريف التوراة وحجم التحريف الذي وقع بها لكننا يجب أن ندرك أن الطوائف المحافظة من شعب إسرائيل على فرض الزعم القائل بوجود عنصر الشعب ظل متشبثاً ببعض النصوص رافضاً ما عداها وقصة التطور وحجم المشكلة يبدآن من عصر موسى عليه السلام ذلك أن موسى (عليه السلام) لمّا أعطاه الله التوراة موعظة وتفصيلاً لكل شيء، أفرز سبط لاوي الذي هو منه ـ لحمل التوراة ـ يعرفونها ويعرفونها للناس، وكتب منها ثلاث عشرة نسخة. وضع نسخة في التابوت. وسلم لكل سبط نسخة للذكرى. وظلت التوراة صحيحة في أيدي بني إسرائيل لم يغيروا منها حرفاً واحداً إلى زمن الأسر البابلي (وذلك في أواخر القرن الخامس ق.م. أي بعد وفاة موسى ـ عليه السلام ـ بحوالي سبعة قرون) ثم غيّر بنو إسرائيل التوراة)[1].

ذلك أنهم في مدينة بابل بعد سنة ٥٨٦ ق.م اتفق العبرانيون والسامريون على تغيير التوراة، لأنهم وهم في الأسر لمّا تأكدوا من إدبار الدنيا عنهم وإقبال الخير على بني إسماعيل بعد سنوات غير طويلة، رأوا أن يحتفظوا بكيان مستقل إلى الأبد، ومن أجل ذلك كتبوا التوراة بأيديهم على المبادىء التالية:

---

(١): دكتور حسن ظاظا «الفكر الإسرائيلي أطواره ومذاهبه». وإسرائيل في الكتاب المقدس. ترجمة: حسني خشبة أو التراث الإسرائيلي في العهد القديم /صابر طعيمة.

١ ـ الله تعالى ـ إله واحد، ولكن ليس للعالمين، بل لبني إسرائيل من دون الناس.
٢ ـ شريعة التوراة أنزلها الله تعالى، ولكن ليست للعالمين، بل لبني إسرائيل دون الناس.
٣ ـ النبي المنتظر الذي أخبر عن مجيئه موسى (عليه السلام) سوف يأتي ولكن ربما يكون من بني إسرائيل لا من بني إسماعيل.

وكتب لهم (عزرا) التوراة على تلك المبادىء، وعرضها عليهم فسرّوا بها. ولما رجع بنو إسرائيل من بابل بتوراة عزرا، وسكن العبرانيون في مدنهم وسكن السامريون في مدنهم، ظهر عداء شديد بين العبرانيين وبين السامريين، بسببه اختلفت التوراة العبرانية عن السامرية، (وكلٌ اتهم الآخر بالتحريف وأنه وحده على الحق).

هذا وقد تصاعد الخلاف والعداء بين العبرانيين والسامريين زمن المسيح عليه السلام لأن العبرانيين كانوا يلقبون الخارج عن تقاليدهم بلقب سامري دلالة على أنه منبوذ من قومه.

وقد آمن به كثير من السامريين في حياته كما آمنوا برسالته عن طريق الحواريين بعد رفعه (عليه السلام)، أما العبرانيون فخاصموه، واتهموه بأنه سامري، وأن به شيطاناً).

ومع خصومة العبرانيين للسيد المسيح ـ حمل النصارى (التوراة العبرانية) لأنه (عليه السلام) من اليهود العبرانيين، ولم يلتفتوا إلى التوراة السامرية) وضمّوها مع العهد الجديد في كتاب واحد وسمّوه (الكتاب المقدس) الذي يمثل بمجموعه عقيدة النصارى إلى الأبد.

والنصارى ينشرون التوراة العبرية بجميع لغات العالم، إيماناً منهم بأنها أساس دينهم الذي أكمله العهد الجديد، فظلت (السامرية) مطمورة حتى نشرت في الثلث الأخير من القرن العشرين ـ باللغة العربية، وسبق أن نشرت من قبل من عالم إيطالي في عام ٦٠٠ م، ولكن لم يحفل بها لعدم اعتراف اليهود ولا النصارى بشرعيتها.

أوجه التشابه بين التوراتين العبرانية والسامرية

بالرغم من رد الفعل الضعيف عند اليهود السامريين وتعصبهم لتوراتهم ضد العبرانيين الذين بدأوهم بالطرد واللعنات فإن هنا أوجهاً من التشابه والاختلاف بين التوراتين ويمكن إيجازه في الآتي: التشابه في حدانية الله وعظمته، اصطفاؤه الملائكة رسلاً ونوراً، وإنه سوف يرسل نبياً مثل موسى (عليه السلام) أما الاختلاف فواسع بينهما، بما يؤكده الحقيقة التاريخية في حصول التحريف في التوراة (العبرانية) المعترف بها رسمياً وشرعياً من قبل اليهود والنصارى (ليس في التوراة السامرية إلا خمسة أسفار وهي أسفار موسى (عليه السلام) ولا يؤمن أتباعها ببقية أسفار التوراة العبرانية المؤلفة من (٣٩) سفراً، والتي منها أسفار الأنبياء إذ لا يؤمنون بنبي بعد موسى (عليه السلام) و(العبرانية) ستة أضعاف حجم السامرية، أي إن التوراة السامرية حوالي سدس العبرانية والخمسة أسداس العبرانية لا تعترف بها السامرية)!!

٢ ـ النص على يوم القيامة غير وارد في أسفار موسى (عليه السلام) الخمسة في العبرانية ولكنه وارد في أسفار الأنبياء، وليس وارداً صراحة إذ اختلفوا فيه أهو في الدنيا ليكون فيه الجزاء، ثم أهو في الآخرة بالروح أو بالجسد؟ لذا انقسم اليهود العبرانيون قسمين ـ مؤمن بالآخرة ـ (فريسيون) وغير مؤمن بها وهم (الصدوقيون)، كما اختلفوا بعد المسيح إلى (ربانيين) واليهود جميعاً على مذهبهم و(قرائين) ـ المؤمنين بنصوص التوراة وحدها دون التلمود وقد انقرضت إلا قلّة ضئيلة.

وأصرح نص على يوم القيامة في سفر أيوب (١٩/٢٥ ـ ٢٧) (. . . وبعد أن يفنى جلدي هذا، وبدون جسدي أرى الله الذي أراه أنا لنفسي، وعيناي تنظران وليس آخر)ـ (ومع ذلك فهو لا يشير إلى يوم قيامة ولا حساب ولا جزاء ولا عقاب ولا جنة ولا نار، . . . ويمكن أن يحمل على حياة برزخية يرى فيها الميت ربه بعد أن يقبر ويفنى جسده يرى ربه، ولا أكثر من هذا).

جبل جرزيم ـ يقدسه السامريون[1] ويتجهون إليه في الصلاة ولا يقدسون بيت المقدس، في حين أن العبرانيين يقدسون جبل صهيون.

---

(١) السامريون هم بني إسرائيل ـ من آل يوسف الصديق (عليه السلام) وكانوا يسكنون مدينة السامرة وأغلب أتباعهم اليوم يسكن في نابلس. أما العبرانيون فهم من بني إسرائيل كذلك ـ من آل داود (عليه السلام) ومن نسلهم موسى (عليه السلام) وكذا السيد المسيح (عليه السلام).

التوراة الحديثة

في (الكتاب المقدس) المختلف فيه بين الكاثوليك والبروتستنت نرى توراة الكتاب المقدس لدى البروتستنت هي التوراة المعتمدة لدى اليهود، وهي التي بين أيدينا في بحثنا هذا، وهي طبعة (جمعية الكتاب المقدس) البروتستانتية ـ بيروت، والتي تحتوي (٣٩) سفراً.

أما توراة الكتاب المقدس لدى الكاثوليك، فتشمل أغلب أسفار البروتستانتية وأسفارها (الكاثوليكية) تنقص عن الأخرى الأسفار: (صموئيل الأول، صموئيل الثاني، نبوّة مراثي أرميا، نبؤة هوشع) كما أنها تزيد عليها بتسعة أسفار هي: (الملوك الثالث، الملوك الرابع، طوبيا، يهوديت، الحكمة، يشوع بن سيراخ، باروكا، المكابيين الأول، المكابيين الثاني.

الباب الثالث

التلمود: تعريفه وتاريخه وأهميته.
قدسية التلمود عند اليهود.
مراحل كتابة التوراة.
متى وكيف كتبت الأسفار.
كيف انتهى أمر الأسفار المقدسة.
الأسفار اليهودية في اللغة العربية.
النسخة العربية المتداولة اليوم.

التلمود
(تعريفه وتاريخه وأهميته)

هذا الكتاب يعتبر من أهم الأسفار المقدسة عند اليهود بعد الكتب التاريخية والتي ينسبونها لأنبياء العهد القديم، وقد اختلفت الآراء حوله كثيراً كما اختلفت التعاريف حول دلالة هذا الكتاب الدينية ولكن ضمّ بعض وجهات النظر هذه إلى بعضها يعطينا الصورة الواسعة للتلمود فهو (التعبير عن النظرة اليهودية الشاملة إلى العالم في امتدادها عبر ألف سنة من الزمن) هو رأي الكاتب الروسي اليهودي (مورد خاي رابينوفتز) واسمه المستعار (بن عمّي) (١٨٥٤ ـ ١٩٢٣ م) ويعرفه ـ أي التلمود ـ بأنه التعبير عن النظرة اليهودية الشاملة إلى العالم في امتدادها عبر ألف سنة من الزمن ويرى غيره أنه (الوثيقة السياسية الخطيرة التي صنعها بعض الحاخامات إتباعاً للخطة السريعة الرهيبة التي دأبوا على إتباعها منذ آلاف السنين، وهو كتاب السياسة الإرهابية الصهيونية).

وهو إجمالاً ـ المجال التطبيقي للتوراة ـ رغم الفروق الواسعة بينها. ويقول (بوكوفيتر) (إن التلمود هو الجسر الممتد بين التوراة والحياة أي أنه التوراة في التطبيق). وأن التلمود ـ منه ما هو مكتوب، وقد ضم في كتمان وخفاء ثم طبع وترجم وظهر إلى النور بعد ظلام دام دهوراً وقروناً. ومنه تقاليد شفهية لها من المنزلة الرفيعة جداً لدى اليهود، ما يتحرجون من كتابتها إيغالاً منهم في سريتها لئلا تكشف، وإن هذه التقاليد الشفهية لا نستطيع البت فيها، إذ لا سند علمياً ولا تاريخياً يثبتها، إلا حوادث نسمع عمّا

فيها من إجرام كالذبائح البشرية ودم الفطير ولا نستطيع إثباتها عليهم من كتبهم، ولكن الكثير من المحاكمات تدينهم بها والكتاب في الجملة عبارة عن شرائع وآداب اليهود، وإن كلمة (تلمود) تعني التعليم والتعلم والدرس، «هي مشتقة من (لمذ) بمعنى (علم) في المجموعة اليهودية، فهو من الزاوية اللفظية والدينية يعني التعليم للتوراة - أي شرحها وتفصيلها - وهو (التوراة الشفهية) التي دونها الحاخاميون خوفاً عليها، لا سيما زمن الاضطهادات التي حفل بها تاريخهم سياجاً للتوراة، وقبلت كسنة من موسى في سيناء ويرى مؤلف هذا الكتاب الدكتور هلال فارحي - أن موسى (عليه السلام) تلقى شريعتين مكتوبة (توراة) وشفهية (التلمود).

وفي رأيه نظر، إذ إن أغلب محتويات التلمود تشير إلى كلام الربيين الذين عاشوا بعد موسى (عليه السلام) بحوالي سبعمائة سنة، واستمروا ينشئون التلمود فيما بين زمن عزرا ٤٠٠ ق.م. حتى ٦٠٠ ب.م. وهذه الفترة حوالي (الألف عام) هي التي كتب فيها التلمود، علماً أن فيه ما ينسب إلى موسى (عليه السلام) أحياناً.

والتلمود يتكون من كتابين أساسيين:

١ - **المشناة**: وهي اللائحة القانونية التي معها (يهوذا هاناسي) فيما بين عام ١٩٠ - ٢٠٠ م أي بعد قرن من تدمير الهيكل سنة ٨٠ م. وهي خلاصة (القانون الشفهي الذي تتناقله الحاخامات منذ ظهور حركة الفريسيين التابعين لأهواء النفس، ونشطت حركتهم بعد ظهور عيسى بن مريم (عليه السلام) مما أدى أخيراً إلى تسجيل المبادىء الهدّامة التي قامت عليها دعوة الفريسيين التي استنكرها المسيح).

وقد كتب الفيلسوف اليهودي (موسى بن ميمون) ما يلي تعريفاً بالمشناة (منذ أيام معلمنا موسى حتى حاخامنا المقدس (يهوذا هاناسي) لم يتفق أحد من علماء اليهود على أية عقيدة من العقائد التي كانت تدرس علانية باسم

(القانون الشفهي) بل كان رئيس كل جيل أو نبيه يضع مذكرة عما سمعه عن سلفه وموجهيه، لينقلها شفهياً إلى شعبه، وهكذا تقدم الزمن حتى أتى حاخامنا المقدس الذي جمع لأول مرة كل ما يتعلق بالسنة والأحكام والقرارات وشرح القانون المروي عن موسى ـ معلمنا المأجور به في كل جيل).

ويزعم اليهود (أن المشناة أنزلت على موسى من ربه على جبل طور سيناء. وقولهم (إننا سنعطيك ألواح الحجر وقانون ووصايا كتبناها لتعلمها لهم والمراد من (الألواح والوصايا العشر المشناة) (وكتبناها) يعني الذي كتبه الأنبياء من كتابات مقدسة).

٢ ـ والجمارا: وهي شرح مشناة (المتن) وهي ثنتان:

أ ـ **جمارا أورشليم (فلسطين):** وهو سجل للمناقشات التي أجراها حاخامات فلسطين بالأخص علماء مدارس طبرية لشرح أصول المنشاة ويرجع تاريخ جمعه إلى عام ٤٠٠ م.

ب ـ **جمارا بابل:** وهو سجل مماثل للمناقشات حول تعاليم المنشاة، دونها علماء بابل وانتهوا من جمعه حوالي سنة ٧٠٠ م.

ومباحث المشناة من ستة مباحث تسمى (سيد أديم) أي أحكام، وهي:ـ

١ ـ زيراعيم (البذور) ـ ويتضمن اللوائح الزراعية، مكونة من ١١ رسالة تقع في مجلدين.

٢ ـ موئيد (الأيام المقررة) ـ ويحتوي على لوائح الأعياد والصيام وهي من ١٢ رسالة ـ تقع في ٨ مجلدات.

٣ ـ تشيم (المرأة) ـ يتضمن قوانين الزواج والطلاق والنذور والناذر وهي من ٧ رسائل يقع في ٨ مجلدات.

٨ ـ نيزكين (الإضرار) ـ يشمل القوانين المدنية والجنائية، وهي من ١٠ رسائل يقع في ٨ مجلدات.

٥ ـ كوداشئم (الأشياء المقدسة) ـ وهي عن قوانين الصلاة، وهي من ١١ رسالة يقع في ٦ مجلدات.

٦ ـ توهاروث (الطهارة) عن قوانين الطهارة والنجاسة، وهي من ١٢ رسالة يقع في مجلدين. ويبلغ مجموع هذه الرسائل ٦٣ رسالة (مقسمة على ٢٤ فصلاً) هذا وإن الطبعة المعتمدة لأجزاء التلمود البابلي المدونة أعلاه هي حسب الطبعة المعتمدة (سونسنيو) لعام ١٩٦١ م.

وأخيراً فإن مصادر الدين اليهودي عند اليهود هامة جداً عندهم وعند من يريد أن يعرف حقيقتهم ومن النصوص الدالة على أهمية كتبهم قولهم في التلمود (إن التوراة أشبه بالماء، والمشناة أشبه بالنبيذ، والغامارا (الجمارا) أشبه بالنبيذ العطري. والإنسان لا يستغني عن الثلاثة ـ كذا ـ وبعبارة أخرى شريعة موسى الملح والمشناة مثل الفلفل والغامارة مثل البهارات. فلا يمكن أن يستغنى عن واحد من هذه الأصناف).

أي أن التلمود أعز على اليهود من التوراة!!

هذا وقد أجمعت المصادر التاريخية على أن التلمود كتب في مراحل تاريخية امتدت منذ ٤٥٠ ق.م. حتى نهاية القرن السادس الميلادي ـ حوالي ألف عام ومراحل كتابته اطّلع بها رجال الدين اليهودي في الفترات التالية.

١ ـ **الكتبة**: وذلك في عصر المكابيين (٤٥٠ ـ ١٠٠ ق.م) وهو عصر قيام الدولة اليهودية في ظل السيادة الفارسية.

٢ ـ **الأزواج (المعلمون الكبار)** ـ وكانوا خمسة (١٥٠ ـ ٣٠ ق.م.) وهم المسمون بـ (الربانيين) أي الأسياد الروحانيين.

٣ ـ **التنائيم (المعلمون الثقات)** (١٠ ـ ٢٠٠ ب.م.)، ومعظم التنائيم يحملون

لقب (رابي) أي سيدي. وقد جمع المشناة في هذا العصر.

٤ ـ **الأمورائيم (المتعلمون أو المفسرون أو الشرّاح أو المجادلون)** ـ وهي تدل على العلماء الذين عاشوا في فلسطين والعراق (٢٢٠ ـ ٥٠٠ م)، وانحصر نشاطهم في شرح المشناة وتفسيره.

وكان انتقال مركز الثقل في هذه الفترة من فلسطين إلى العراق.

٥ ـ **الصور أي (التأمليون أقوال السلف) أو الشراح لأقوالهم وأصحاب الرأي وذلك طيلة القرن السادس الميلادي** ـ ويحملون اسم (الرابي). ومدرسة الصورائيم بابلية بحتة، لا تقابلها فئة مماثلة في فلسطن.

والتلمود اثنان البابلي والفلسطيني:

أما التلمود البابلي: فقد كتبه اليهود في بابل، وله المكانة المفضلة على الفلسطيني لدى اليهود بل مكانته أفضل من التوراة عندهم، وقد لعب دوراً رئيسياً في حياتهم.

أما التلمود الفلسطيني: فما كان اهتمام بدارسته إلا منذ قرن واحد فقط إذ بدىء بترجمته عام ١٨٧١ وانتهى منه بعد ١٨ عاماً عام ١٨٨٩ من قبل المترجم الفرنسي «مويد شواب». وقد ترجم التلمود إلى عدة لغات ـ منها اللغة الانكليزية ـ طبعة سونسينو عام ١٩٦١ م وقد كتب الحاخام الأكبر (هوتزل) في مقدمة هذه الطبعة التي كتبها عام ١٩٣٤ بأنها تحتوي جميع النصوص المحذوفة بسبب المراقبة في أوروبا، وهذه الطبعة تشمله جميعه من غير حذف.

كما طبع عدة طبعات في القرن الأخير ـ تلمود فيينا (١٨٨٦/١٩٠٢/ ١٩٢٢) وبذا فإن التلمود لم يبق سراً اليوم كما كان يعتقد الكثيرون، وهو مرجع الباحثين متى شاؤوا. وأول ترجمة للتلمود البابلي إلى العبرانية كانت في زمن الحكم الإسلامي في الأندلس ـ زمن الحكم الثاني ـ

ترجمه يوسف بن أبي ثور ـ ترجمة كاملة إلى العربية ما بين ٩٦١ ـ ٩٧٦ م ـ أي قبل ألف عام. وكان المترجم من أشهر علماء اليهود في الأندلس، ومنهم من يقول إن بعضه ترجم غير أننا لا نملك أي شيء حتى الآن من تلك الترجمة.

هذا ولقد بقي التلمود سرّاً سبعة قرون في أوروبا والتلمود نفسه يوحي بسريته حفاظاً على أتباعه بما فيه من مخططات رهيبة. فينص سفر سان هيدرن ص ٥٩ في التلمود على أن (غير اليهودي الذي يدرس التلمود، واليهودي الذي يساعده على ذلك يجب قتلهما) ولم تكتشفه أوروبا إلا بعد مضي سبعة قرون من الزمن. وفي أواسط القرن الثالث عشر بالضبط كان الاكتشاف عن طريق المرتدين من اليهود، وعن طريق هجرة العلماء المسلمين بعد نكبة الأندلس وعن طريق قيام حركة الترجمة والنقل).

أما لغة التلمود فكان البابلي باللهجة الآرامية الشرقية، وهي أقرب إلى السريانية وتقترب من اللغة المندائية. وكان الفلسطيني باللغة العبرية وهي اللغة التي كانت زمن عزرا في عصر المكابيين.

ومما لا شك فيه أن تعليم التلمود لغير اليهود وكشف أسراره محرم عليهم وذلك ما يستحق به عقوبة الموت كما مرّ بنا قبل قليل لذلك فإن نشر التلمود أو فضحه ـ تم عن طريق المرتدين من اليهود عن دينهم إلى الإسلام أو المسيحية.

ومن المرتدين إلى الإسلام (يوسف بن أبي ثور) الذي ترجمه إلى العربية في الأندلس قبل ألف عام وأفاد منه العلماء، ومنهم العلاّمة ابن حزم وغيره، وفي مناظرات قيمة له مع أحبار اليهود. غير أنه لم يصلنا شيء من تلك الترجمة وإن مصادر معرفة التلمود كانت تشمل ما يلي:

١ ـ اليهود المرتدين إلى المسيحية وإلى الإسلام، ففضحوا الجوانب المظلمة من كتب اليهود المقدسة.

٢ ـ المجادلات والمناظرات التقليدية التي جرت في القرون الوسطى بين أتباع الديانات الثلاث.

٣ ـ العلماء المسلمون في الأندلس ـ كتبوا ما كتب عن التلمود ولم يقرؤه بالعبرية التي ترجم إليها التلمود زمن الحكم الثاني، بسبب عدم إدراكهم لأهمية العبرية حتى ابن حزم الذي له مواقفه الفاضحة للتلمود في مجادلات مع ابن تغريلة لم يكن يعرف العبرية، ثم تعلمها ليقرأ التلمود بلغته الأصيلة!

٤ ـ العلماء المسلمون في المشرق وتضلعهم في مدارسته.

وما يزال التلمود غير معلوم عند الكثيرين، وما زال الكتّاب الذين يعنون بالقضية اليهودية والصهيونية يقللون من الكتابة والحديث عن التلمود بل إن من قرأه وفهمه من المعنيين أقل بكثير من المطلوب.

وأسباب ذلك ترجع إلى ما يلي:

١ ـ لغتا التلمود ـ الآرامية الشرقية ـ والعبرية ـ وكلتاهما ما كان يعلمها أحد إلا النادر في القرون السابقة.

٢ ـ محاولات اليهود إبعاده دائماً عن أذهان الناس لئلا يفضحوا ولأن تعليمه لغيرهم حرام في اعتقادهم.

٣ ـ اعتقاد الكثيرين أن التلمود بضاعة قديمة بالية لا قيمة له بنظر اليهود.

٤ ـ بسبب حذف المتأخرين من نصوصه، واستعاضتهم عنها برموز ودوائر هندسية أو صفحات بيضاء منقطة) .

٥ ـ (شتى الآراء السائدة في الكتب عن مضمون التلمود وصلته بالحياة اليهودية الخاصة عبر التاريخ.

٦ ـ إن التلمود حمّال أوجه أو فيه من الآراء المتناقضة والمتضاربة الشيء الكثير، ويصعب الوصول إلى نتائج نهائية يحكم بها على التلمود من خلال نظرة القارىء.

٧ ـ فيه من النقاش والجدال الذي استمر عشرة قرون ما يربك القارىء.

قدسية التلمود عند اليهود

إن كتاب التلمود باعتباره شروحاً وافية للروح التي أودعها اليهود كتاب التوراة بعد عمليات الحذف والإضافة التي قاموا بها كان يجب أن تكون أهميته الدينية تلي كتاب (التـوراة) عندهم. لكن الأمـر انقلب إلى النقيض فهم يجعلون كلمات التلمود أكثر أهمية وأشد قداسة من كلمات التوراة بل إن لكتاب التلمود من المنزلة المقدسة في قلوب اليهود ما تسمو به على مكانة النبيين (إن كلمات الربانيين لأشد عذوبة من كلمات الأنبياء).

بل إنهم أي الربانيين بمنزلة الرب قدسية (مخافة الربانيين هي مخافة الرب نفسها) لذلك كان كلامهم كأنه صادر من الله ـ تعالى الله ـ (إن كل الربانيين حتى أيامنا هذه هم منتطقون بالسلطة الإلَهية، وكل ما يقولونه يخرج من فم الله، بل إن كلامهم هو نفسه كلام الله، ويرى الحبر إسماعيل أن كلام التلمود والوحي سيّان).

ويذهب التلمود إلى أبعـد من ذلك إيغـالاً في الكفر والاستعـلاء، فيعتبـرهـم أحكم من الله بـل هم مستشـاروه حـين يستعصي عليــه أمـر فيوجهونه!!

(إن الله يأخذ رأي الربانيين العائشين على الأرض في المشاكل التي تنشأ في السماء).

بل قد ذهب بهم الغلو إلى اعتبار حمار الربانيين ورِعاً لا يقترف الحرام (إن حمار الرباني لا يستطيع أن يأكل المحرمـات) إيغالاً منهم في إعلاء منزلة

التلمود إلى قدسية لا يرقى إليها غبار الشك، في حين أن التلمود نفسه يفضح الربانيين بما يندى منه الجبين (الرباني أليعازر لم يترك في العالم بأسره امرأة من غير أن يضاجعها. وفي بعض الأيام سمع أن واحدة منهن تقتضي مضاجعتها. صندوقاً من الذهب. فحمل الصندوق وذهب إليها قاطعاً سبعة أبحر. . . وبعد موت الرباني ألعازر نادى الرب من السماء: (إن الرب ألعازر قد دخل الحياة الأبدية. . . أي الجنة).

هذا وتتباين وجهات نظر اليهود إلى التلمود غير أن رجال الدين اليهود ينقسمون إزاء كتاب التلمود إلى قسمين:

أما الربانيون: فهم الذين كتبوه والمؤمنون به، ويزعمون بوجود تقليد سماعي ينحدر من موسى، والذي جرى تدوينه في أحكام المشنا مضافاً إليه مسائل الفقه التلمودي. وجميع اليهود اليوم على مذهب الربانيين

أما القراؤون: فهم يرفضون النظرة الإلهية إلى التلمود، ولم يسايروا الربانيين في تقديسهم له، بل تمسكوا بالتوراة وحدها.

وقد انقرض غالبيتهم اليوم وهم يشكلون نسبة ضئيلة جداً في العالم تكاد لا تحتل أية أهمية غير أن عامة اليهود ينقسمون إزاء مكانة التلمود حيال التوراة قسمين:

الفريسيون وهم الذين تمسكوا بمساواة الشرائع الشفهية (التلمود) مع الشريعة المكتوبة (التوراة) من حيث إلزاميتها.

وتنص الانسيكلوبيدا العالمية اليهودية المطبوعة عام **١٩٤٣** على ما يلي (يعود أصل الدين اليهودية المعمول به اليوم إلى الفريسيين بدون أدنى تغيير. فأفكار اليهود الرئيسية وطقوسهم الدينية والمعاشية استقيت تعابيرها من كتب ترجع إلى عهود سحيقة غابرة لا تاريخ لها. ويعتبر التلمود أهم هذه الكتب وأكبرها على الإطلاق. فلذلك من الضروري دراسته لفهم حقيقة المبادىء والعقائد الفريسية.

ومن تلك الكتب المهمة إلى جوار التلمود (Ocean of the Talmud) الذي استبقى من التلمود الكثير وأضاف إليه، وهو خلاصة التقليد الصوفي اليهودي حتى مطلع القرن الرابع عشر نشأ هذا الكتاب واكتمل في إسبانيا: ثم حمله اليهود حين نزوحهم إلى مدينة (صفد) في (إيران) في القرن السادس عشر.

الصدوقيون: الذين اعتبروا شرائع الأسفار الخمسة (التوراة) أشد إلزاماً من الشريعة الشفهية (التلمود). وطالب الفريسيون بضرورة تعديل الشرائع الواردة في أسفار موسى الخمسة وتفسيرها، لتلائم الثقافة المتطورة والوضع الاقتصادي المتغير. وأعلن الصديقيون رفضهم لهذه البدع.

ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن التلمود بالرغم من أنه يشرح التوراة إلا أنه أضاف إليها سائر مجالات الحياة المادية والاجتماعية. بل فيه أبواباً وفصولاً عن الزراعة والصناعة والري والأمم والأخلاق اليهودية وغير ذلك حتى أن اليهود قد درجوا على تسمية التلمود ocean of the Talmudلشموليته سائر جوانب الحياة إذ هو يشمل بإيجاز وعموم ما يلي:

١ ـ الأحوال الشخصية ـ من زواج ومواليد ومواريث ـ على أن اليهودي هو المولود من أم يهودية أم من سبق لها أن اعتنقت اليهودية.

٢ ـ قوانين الأطعمة.

٣ ـ التعليم الديني وما فيه من طقوس وعبادات وعقائد، علماً أن منهاج الدراسات الدينية اليهودية في الجامعات اليهودية هي نسبة الربع من البرامج العامة. وكذا فإن سائر المناهج الدينية للتعليم اليهودي في الأرض المحتلة كفيلة بسيطرة اليهودية التلمودية على الحياة المدنية فيها.

٤ ـ القوانين الزراعية وبيع الأراضي وتأجيرها.

٥ ـ إعفاء أصحاب الدراسات الدينية من الخدمة العسكرية في إسرائيل وإعفاء رجال الدين منها.

٦ ـ سبت العطلـــة.

٧ ـ القضاء الشرعي.

أما الموضوعات التي يؤكد عليها التلمود البابلي، أكثر من غيرها، فهي أربعة أمور أساسية:

١ ـ صورة (أرض إسرائيل) في أسفار التلمود.

٢ ـ الصيغة التلمودية لعقيدة (المسيا) المنتظر أي النبي القادم.

٣ ـ نظرة التلموديين والربانيين إلى (الأمم) و(الأغيار) أي إلى غير اليهود.

٤ ـ تعامل اليهود بين أنفسهم، فهو يعد اليهود بأرض الميعاد ويؤكدها في شيء من نصوصه، كما أنه يؤكد على التعامل المثالي بين اليهود أنفسهم، وعلى التعامل الإجرامي مع غيرهم (الأغيار ـ الجوييم ـ أو الأميين ـ أو الأغراب أو الغرباء أو الأجانب أو الجينتلمين ـ والينيم ـ والنوخريم ـ والغيريم والتشوييم) كما يسمونهم. وهذان الأمران ـ أرض الميعاد، ونظرتهم إلى أنفسهم وإلى البشر في التعامل ـ عليها ترسو معالم الصهيونية الحديثة وفلسفتها الاعتدائية.

٥ ـ الشرح التلمودي واستمرار فاعليته في دولة إسرائيل وهذا يحتاج إلى بحث ودراسة واسعة إن شاء الله.

مراحل كتابة التوراة

يعنينا بالدرجة الأولى الوقوف على مراحل وتاريخ وكيفية كتابة الأسفار الخمسة الأولى من كتب العهد القديم والمنسوبة إلى النبي (موسى عليه السلام) على أنها (التوراة) التي أُنزلت عليه وحياً من الله تعالى. وسواء أصحّت هذه الدعوى التي تنسب الكتب الخمسة إلى موسى على أنها التوراة أو لم تصح، وهي بالقطع لا تصح لما سنذكره بعد من دلائل وبراهين، فإنها أي الكتب الخمسة التي نعنيها هنا بالوقوف على مراحل وتاريخ وكيفية كتابتها لأنها هي المعوِّل عند جميع الطوائف اليهودية، وهي التي يستمد منها اليهود أُسس ومقومات عقيدتهم وشريعتهم، وما تلاها من كتب إنما يترتب عليها بعد ذلك. ولأن هذه الكتب الخمسة هي التي سنجعلها المصدر الأهم والأدق في دراستنا ونقدنا للأسفار اليهودية، ولأنها بعد ذلك هي التي يمكن أن تكون وحدها على أساس أنها الآن مصدر عقيدة وشريعة اليهود تحت الرؤية القرآنية لسماع حكم الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

يحدّثنا سفر (الخروج) (أحد الخمسة) أن موسى عليه السلام تلقى الوحي أو التوراة بادىء ذي بدء مشافهة من ربه، وبعد أن قرأها على قومه وأخذ الميثاق منهم على اتّباعها دونها كتابة، في الإصحاح الرابع والعشرين تقول الفقرات ٣ ـ ٨ من الخروج وبالنص: (... فجاء موسى وحدّث الشعب بجميع أقوال الرب وجميع الأحكام، فأجاب جميع الشعب بصوت واحد وقالوا كل الأقوال التي تكلم بها الرب نفعل، فكتب موسى جميع أقوال

الرب، وبكّر في الصباح وبنى مذبحاً في أسفل الجبل، واثني عشر عموداً لأسباط إسرائيل الإثني عشر، وأرسل فتيان بني إسرائيل فأصعدوا محرقات، وذبحوا ذبائح سلامة للرب من الثيران، فأخذ موسى نصف الدم ووضعه في طسوس، ونصف الدم رشه على المذبح، وأخذ كتاب العهد وقرأ في مسامع الشعب، فقالوا كل ما تكلم به الرب نسمع ونفعل).

وهذا النص الذي بين أيدينا يقرر أن موسى تلقى وحياً شفهياً، ثم دوّنه كتابة، وما كتب أقره الشعب، وزيادة في التحوّط من كاتب السفر فإنه يخبرنا في نفس الإصحاح من الفقرات ١٢ ـ ١٨ إن الرب أراد أن يسجل بخط يده: التعليمات التي كتبها للإسرائيليين أن يسيروا على هديها وأن يلتزموا بها فأمر الله موسى على ضوء ما في هذه الرواية أن يصعد إلى الجبل(١) وأن يمكث أربعين نهاراً وأربعين ليلة وبعدها سيعطي الوحي مكتوباً على حجر وبإصبع الله؟

وتريد رواية سفر الخروج أن تقول إن للتوراة التي يتحدث عنها سفر الخروج اعتباران أحدهما الوحي القائم على المشافهة بين موسى وربه مباشرة والثاني الكتابة مدوّنة بإصبع الله؟. وبالقطع ليس في السفر جواباً لهذا السؤال الذي نطرحه وهو: لماذا كان الله يرسل تعليماته إلى موسى على ضوء رواية سفر الخروج مرة مشافهة ليسجلها موسى بنفسه، ومرة أخرى يعفي الإآله موسى من مهمة الكتابة ويكتب هو له على لوحيّ الحجر وبإصبعه ثم يعطيهما لموسى؟

يقول الإصحاح الرابع والعشرون من سفر الخروج فقرات ١٢ ـ ١٨.. (وقال الرب لموسى اصعد إلى الجبل وكن هناك، فأعطيك لوحيّ الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعليمهم، فقام موسى ويشوع خادمه، وصعد موسى إلى جبل الله، وأما الشيوخ فقال لهم اجلسوا لنا هاهنا حتى

(١) (سفر الخروج) إصحاح ٢٤ فقرات ٣ ـ ٨ ـ ١٢ ـ ١٨.

نرجع إليكم، وهذا هارون وحور معكم، فمن كان صاحب دعوى فليتقدم إليهما، فصعد موسى إلى الجبل، فغطى السحاب الجبل، وحلّ مجد الرب على جبل سيناء وغطّاه السحاب ستة أيام وفي اليوم السابع دعي موسى من وسط السحاب، وكان منظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون بني إسرائيل، ودخل موسى في وسط السحاب، وصعد إلى الجبل، وكان موسى في الجبل أربعين نهاراً وأربعين ليلة).

وبعد هذه الخلوة فإن موسى كما في الإصحاح الحادي والثلاثين من سفر الخروج فقرة ١٨: (. . . أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سيناء لوحيّ الشهادة لوحيّ الحجر مكتوبين بإصبع الله).

لكن العجيب حقاً مما تحمل سيرة وتراث إسرائيل في العهد القديم من ألغاز وأحاجي هو الأخبار التي بين يدي الباحث من أصحاب سفر الخروج من الرابع والعشرين حتى الحادي والثلاثين فهي تطالعنا، بأحاديث عن الوحي القائم على المشافهة وعن العهد الذي أخذه موسى من الشعب وقبله الشعب وعن الهجرة من مصر بقيادة الرجل الذي أطلعهم على الوحي وآمنوا به نبياً ورسولاً وقائداً، كذلك تُطالِعنا بالبشارة في سيناء من منظر مبهر يعبر عنه فيه السفر بمجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل وموسى وسط السحاب كل ذلك الذي نراه يضيع تماماً ويفتقد فجأة في الإصحاح الثاني والثلاثين من نفس السفر وليس بعد فترة زمنية طويلة ولكن عقب العودة من خلوة الجبل التي كان فيها موسى وشعب عهد الوحي في انتظاره فما الذي حدث من مفارقات تحدثت عنها الإصحاحات من الرابع والعشرين حتى الحادي والثلاثين وجاء نقيضها في الثاني والثلاثين الذي حدث كما يقول الإصحاح الثاني والثلاثون وهو فيما يقوله كأنه يرد على القائلين بعصمة ووحدة العهد القديم: إن الشعب بعد أن غاب عنه موسى أربعين يوماً ضاق ذرعاً بالانتظار، وأحسّ أنه في محنة ساقه إليه موسى بعد أن غرّر بهم إذ أخرجهم من مصر فقاموا إلى حليّ نسائهم وصاغوا منها عجلاً ذهبياً وقضوا وقتهم حوله

يرقصون ويلعبون ويعبدون؟ ولقد كان المشهد أمام موسى حين العودة مزعجاً للغاية إلى الحد الذي عبّرت عنه فقرات إصحاح سفر الخروج بأنه طرح ما كتبه له الرب بإصبعه وكسر ما كتب بإصبع الرب على لوحيّ الحجر في أسفل الجبل.

وهنا نجد أنفسنا أمام سؤال على ضوء رواية سفر الخروج هذه؟.. الوحي الإلهي حدث لموسى مشافهة، والعهد الديني أخذ من بني إسرائيل في جمع من بني إسرائيل وصعد موسى إلى الجبل في وسط بشارة أو كرامة بادية واضحة والجمع ينتظر عودته، وردة بني إسرائيل عن موسى مسجلة وواضحة كما تقول عبارات إصحاحات سفر الخروج وعبادة الصنم من الذهب في غيبة النبي مقررة ومدونة، وكسر اللوحين الذين كتبهما الله بإصبعة لموسى منسوبة ومسجلة، هل يمكن القول بعد ذلك أن شيئاً مقدساً مكتوباً أو محفوظاً يمكن أن يظل على ما هو عليه مذكوراً أو محفوظاً بين بني إسرائيل؟ وإذا كان يمكن القول على ما يقوله السفر نفسه بعد ذلك من أن الرب سرعان ما وجه نداء آخر إلى موسى بأن يبحث له عن لوحين من حجر مثل الأوليين يكتب له فيهما مثلما كتب في اللوحين الذين كسرهما موسى فإنه ليس هناك ما يمنع من تكرار الموقف السابق، فضلاً عن أن اللوحين كتبا هذه المرة بيد موسى لا بإصبع الله كما ادّعى السفر في المرة الأولى. وللنظر نص السفر في الموقفين في الإصحاح الثاني والثلاثين عن نقض العهد وعبادة الصنم[1]: (... ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له قم (اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه، فقال لهم هارون انزعوا أقراص الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وآتوني بها، فنزع كل الشعب أقراص الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه عجلاً مسبوكاً. فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك

---

(١) (سفر الخروج) الإصحاح الثاني والثلاثون فقرات ١ ـ ٩.

من أرض مصر، فلما نظر هارون بنى مذبحاً أمامه ونادى هارون وقال غداً عيد للرب فبكروا في الغد وأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامه وجلس الشعب لـلأكل والشرب ثم قاموا للعب فقال الرب لموسى اذهب انزل لأنه قد فسد شعبك الذي أصعدته من أرض مصر زاغوا سريعاً عن الطريق الذي أوصيتهم به، صنعوا لهم عجلاً مسبوكاً وسجدوا له وذبحوا له وقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر).

(وسفر التثنية) في الإصحاح الحادي والثلاثين فقرات ٩ ـ ١١ يلقي هو الآخر ضوءاً لا بأس به في الكشف عن المناخ والظروف والأحـوال التي استقبل فيها أصحاب التوراة التوراة: أن مضمون الإصحاح الحادي والثلاثين في التثنية يتلخص في أن موسى عليه السلام بعد أن كتب التوراة في أعقاب حادث كسر اللوحين الذي ذكره سفر الخروج سلمها مكتوبة مدونة للكهنة من بني (لاوي) ولجميع شيوخ إسرائيل وأمرهم بقراءتها في نهاية كل سبع سنوات وأراد موسى أن يأخذ عليهم من أنفسهم وأمرهم بوضع كتاب التوراة بجانب تابوت عهد الرب، ويكشف السفر سر هذا النوع من التحوّط وهو أن موسى يعلم مدى فساد وزيغان قومه فماذا تقول التثنية؟: (. . . وكتب موسى هذه التوراة وسلمها للكهنة بني لاوي حاملي تابوت عهد الرب ولجميع شيوخ إسرائيل وأمرهم موسى قائلاً في نهاية السبع سنين في ميعاد سنة الأبراء في عيد المظال، حينما يجيء جميع إسرائيل لكي يظهروا أمام الرب إلهك في المكان الذي يختاره تقرأ هذه التوراة أمام كل إسرائيل في مسامعهم).

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث فلم تحفظ التوراة بجانب التابوت ولم تقرأ كل سبع سنوات وهذه النتيجة التي نسوقها نحن هنا ليست اجتهاداً أو إخباراً بما كان لكنها نبوءة وبشارة وتوقعاً من موسى نفسه من قومه ومن حاملي تابوت الرب لأنه. . . (. . . عندما كمّل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب إلى تمامها أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلاً خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب عهد الرب إلهكم ليكون هناك شاهداً عليكم،

لأني أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة هوذا وأنا بعد حتى معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحري بعد موتي، إجمعوا إلى كل شيوخ أسباطكم وعرفائكم لأنطق في مسامعهم بهذه الكلمات، وأشهد عليهم السماء والأرض، لأني عارف بعد موتي تفسدون وتزيغون عن الطريق الذي أوصيتكم به ويصبكم الشر في آخر الأيام، لأنكم تعملون الشر أمام الرب حتى تغيظوه بأعمال يديكم، فنطق موسى في مسامع كل جماعة إسرائيل بكلمات هذا النشيد إلى تمامه[1].

وإلى هنا والأمر لا يحتاج إلى تعليق، فموسى أعطى التوراة لجماعة من بني إسرائيل وأمرهم بوضعها بجانب تابوت عهد الرب، وهو يعلم أنهم لن يعملوا أكثر من الشر الذي يغيظون به هذا الرب، لكن واحداً من عشاق التأويلات.. والتخريجات اللاهوتية القائمة على الرمز قد يقول لنا: وعلى فرض صحة نبوءة موسى في بني إسرائيل حين أمرهم بوضع التوراة بجانب تابوت العهد وأمرهم بالحفاظ عليها وأخبر بأنهم يفعلون الشرور حتى يغيظوا الربّ فإنه ليس بالضرورة أن تكون شرورهم قد تناولت التوراة بالحذف أو الإضافة، لكن العجيب والغريب الذي لم ينتبه له شرّاح التوراة كثيراً هو أن يشوع كما جاء في سفره قام بعملية تدوين ونسخ للتوراة التي تركت مع اللاويين، على حجارة غير الحجارة التي تركها موسى وقام بعملية النسخ والتدوين هذه في ظل عهد وحكم وفريضة أخذها على بني إسرائيل وهذا بالقطع إقرار من السفر بأول عملية حذف وإضافة في التوراة التي يرد ذكرها بين الأسفار... الخمسة. فماذا في سفر يشوع.؟ يقول الإصحاح الثامن ومن فقرات ٣٠ ـ ٣٥ وبالنص[2]: (... حينئذ بنى يشوع مذبحاً للرب إله إسرائيل في جبل عيبال كما أمر موسى عبد الرب بني إسرائيل، كما هو مكتوب في سفر توراة موسى، مذبح حجارة صحيحة، لم يرفع أحد عليها

---

(١) (سفر التثنية) الإصحاح الحادي والثلاثون فقرات ٢٤ ـ ٣٠.

(٢) (سفر يشوع) إصحاح ٨ فقرات ٣٠ ـ ٣٥.

حديداً وأصعدوا عليه محرقات للرب وذبحوا ذبائح سلامه وكتب هناك على الحجارة نسخة توراة موسى التي كتبها أمام بني إسرائيل وجميع إسرائيل وشيوخهم والعرفاء وقضاتهم وقفوا جانب التابوت من هنا ومن هناك مقابل الكهنة اللاويين حاملي تابوت عهد الرب، الغريب كما الوطني، نصفهم إلى جهة جبل جرزيم ونصفهم إلى جهة جبل عيبال كما أمر موسى عبد الرب أولاً لبركة شعب إسرائيل. وبعد ذلك قرأ جميع كلام التوراة البركة واللعنة حسب كل ما كتب في سفر التوراة لم تكن كلمة من كل ما أمر به موسى لم يقرأها يشوع قدام كل جماعة إسرائيل والنساء والأطفال والغريب السائر في وسطهم).

ومع أن يشوع لم يقل لنا في هذه النصوص ما الذي فعلوه بالنسخة الحجرية التي تركها موسى بعد أن كتب هو نسخة عن توراة موسى، هل أبقوها معهم؟ وهل كانت تصلح للقراءة وللأخذ منها، وإذا كان ذلك كذلك فلم كانت نسخة يشوع وعلى فروض وعهود جديدة ثم وعلى فرض بقاء النسختين معاً فأيّها كان عند بني إسرائيل أكثر أهمية بل أكثر قداسة النسخة التي تركها موسى أم تلك التي نسخها يشوع عن نسخة موسى ولم كان العهد وجمع يشوع للشعب عند كتابة نسخته وإذا كان الأمر يتعلق بمجرد نسخ نسخة للتداول فلم اقتصر على نسخة واحدة لِمَ لم ينسخوا عشرات النسخ للتداول ولذيوع النص الذي تركه موسى.

وأيّاً كان الأمر حول النسخة التي تركها موسى وتلك التي نسخها أو دونها يشوع فإن سفر صموئيل الأول يخبرنا عن مصير التابوت الذي كان على الإسرائيليون أن يحفظوا التوراة التي تحدثت عنها الأسفار إلى جواره بناءً على أوامر وتوجيهات موسى لهم، ذلك أنه أمام إحدى المعارك العنيفة التي كانت بين بني إسرائيل والفلسطينيين على حدّ ما يزعم سفر صموئيل، نقل الإسرائيليون التابوت من مكانه في (شيلو) إلى ميدان القتال على أمل أن يجلب نصراً على أعدائهم، لكن الدائرة تدور عليهم ويستولي الفلسطينيون على التابوت

ويصبح في محلتهم، وحتى ولو سلمنا بما يخبر به العهد القديم فإن التابوت كما هو في الإصحاح السادس من سفر صموئيل الأول[1] يظل متنقلاً بين بلاد الفلسطينيين والإسرائيليين إلى أن يستقر آخر المطاف في أورشليم داوود وفي عهد ابنه سليمان وبعد بناء الهيكل حين نقل إليه التابوت لم يكن به سوى لوحي الحجر أما التوراة التي كتبها موسى والتي نسخها يشوع فلم يرد لهما ذكر، ولم يتحدث أحد عن أخبار نسختي موسى ويشوع. . ولننظر ما يقوله صموئيل الأول في الإصحاح الرابع[2] . . (وخرج إسرائيل للقاء الفلسطينيين للحرب ونزلوا عند حجر المعونة، وأما الفلسطينيون فنزلوا في أفيق واصطف الفلسطينيون للقاء إسرائيل واشتبكت الحرب فانكسر إسرائيل أمام الفلسطينيين، وضربوا من الصف في الحقل نحو أربعة آلاف رجل، فجاء. . الشعب إلى المحلة، وقال شيوخ إسرائيل لماذا كسرنا اليوم الرب أمام الفلسطينيين لنأخذ لأنفسنا من شيلوه تابوت عهد الرب فيدخل في وسطنا ويخلصنا من يد أعدائنا، فأرسل الشعب إلى شيلوه، وحملوا من هناك تابوت عهد رب الجنود الجالس على الكروبيم وكان هناك ابنا عالي حفني وفينحاص مع تابوت عهد الله وكان عند دخول تابوت عهد الرب إلى المحلة أن جميع إسرائيل هتفوا هتافاً عظيماً حتى ارتجت الأرض، فسمع الفلسطينيون صوت الهتاف فقالوا ما هو هذا الهتاف العظيم في محلة العبرانيين، وعلموا أن تابوت الرب جاء إلى المحلة، فخاف الفلسطينيين، لأنهم قالوا قد جاء الله إلى المحلة، وقالوا ويل لنا لأنه لم يكن مثل هذا منذ أمس ولا ما قبله، ويل لنا من ينقذنا من يد هؤلاء الآلهة القادرين؟ هؤلاء هم الآلهة الذين ضربوا مصر بجميع الضربات في البرية، تشددوا وكونوا رجالاً أيها الفلسطينيون لئلا تستعبدوا للعبرانيين كما استعبدوا هم لكم، فكونوا رجالاً وحاربوا، فحارب الفلسطينيون وانكسر إسرائيل، وهربوا كل واحد إلى خيمته، وكانت الضربة

---

(١) (سفر صموئيل الأول) الإصحاح السادس فقرة ١ ـ وكذلك صموئيل الثاني في الإصحاح السادس فقرة ١٢.

(٢) (صموئيل الأول) الإصحاح الرابع فقرات ١ ـ ١١.

عظيمة جداً وسقط من إسرائيل ثلاثون ألف راجل وأخذ تابوت الله، ومات ابنا عالي: حفني وفنحاص).

وهذا النص على ما فيه من مبالغات وخيال يطالعنا بأخبار الحروب.. الإسرائيلية الفلسطينية التي كان ينكسر فيها الإسرائيليون حتى مع استحضار البركات والبشارات وشحذ الهمم لهذا الجانب الديني الضعيف أصلاً في وجدان الإنسان الإسرائيلي ويطالعنا بجلد وصبر وشجاعة الإنسان الفلسطيني القديم الذي يبدو أنه استعبد العبراني أكثر من مرة في مواجهات سابقة عن تلك التي يحدّثنا عنها هذا الإصحاح. وتبرز وتتضح هذه المعاني من عبارة الإصحاح الرابع في صموئيل التي جاءت بين السياق: (... كونوا رجالاً أيها الفلسطينيون لئلا تستعبدوا للعبرانيين كما استعبدوا هم لكم). كما يخبرنا النص بأن تابوت الله قد أخذ من أيدي العبرانيين، لكن رقم الثلاثين ألف راجل الذين سقطوا من إسرائيل مزعج للغاية ومبالغ فيه من جانب كاتب السفر فإذا كان الذين سقطوا قتلى فقط بهذا.. الحجم فكم كان عدد الجيش الإسرائيلي أصلاً بل كم كان عدد الشعب الإسرائيلي جميعه.

ومن الجدير بالذكر أن الأساطير الحبشية تروي عن التابوت الإسرائيلي في عهد سليمان أن (ابن الحكيم) الذي ولدته (مكيداً) من سليمان بطريق غير مشروع[1]. طلب من سليمان أبيه جزءاً من غطاء تابوت العهد ليهديه لأمه وشعبها.

وحين أجاب سليمان سؤاله استطاع بعض مرافقيه من أبناء أورشليم بتوجيه من الكاهن (عازر ابن صادوق) أن يصنعوا صندوقاً على صورة تابوت العهد ثم استبدلوه.. بالتابوت الأصلي وهكذا كان لابن الحكيم عند سفره عن أورشليم إلى الحبشة التابوت والغطاء معاً، ودون أن يدري بأمر سرقة التابوت إلا حين وصل إلى مصر ورأى أن تماثيل آلهتها كانت فيها تقول الأساطير

---

(١) (محمد بيومي مهران) دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم جزء ٢ صفحة ٢٧.

الحبشية تنحني للتابوت وتسجد له، ونحن هنا لا نريد أن نعلّق على هذه الأسطورة كبيرة أهمية في دراستنا النقدية لمراحل وكيفية تدوين كتب العهد القديم وخاصة سفر التوراة أي الكتب الخمسة التي نحن بصدد الحديث عنها. لكن الذي نودّ أن ننبّه إليه وفي وضوح أن الدارس للكتب المقدسة قبل الإسلام وللتراث الإسرائيلي يجد أن الفترة التي أعقبت موت سليمان قد تعرض بعدها بنو إسرائيل لمراحل من الصراع السياسي وألوان من التمزّق الاجتماعي استتبع ذلك كله حدوث فجوة وهوّة عميقة بين الشعب الإسرائيلي بمختلف طوائفه وبين القيادات القائمة على قيم الشريعة وكان طبيعياً أن تتّسع الفجوة بين الشعب وبين البقية التي يمكن أن تكون باقية من قيم الشريعة حتى عهد سليمان، ثم لما انتهى دور سليمـان كان شيئـاً طبيعياً ألاّ يـرى الشعب الإسرائيلي جمهوره وقيادته وكهانته وشيوخه شيئاً ما مرتبطاً بقيم هذه الشريعة وبعد زمن طويل من وفاة سليمان إلى عصر ظهور الملك اليهودي الذي يراه العهد القديم رجلاً فاضلاً ومستقيماً في عيني الرب وأعني به (يوشيا الملك) كان الشعب اليهودي الإسرائيلي بكافة طوائفه وقياداته من عصر سليمان قد انقطعت صلته تماماً بكل ما يمكن أن تكون لديه بقية من قيم الشريعة ثم لمّا تولى الملك يوشيا بعد ثمانية عشر عاماً من حكمه كلّف أحد موظفي قصره وهو (شافان ابن أماليا ابن مشلاّم) بأن يذهب إلى بيت الرب ويقابل كبير الكهان وهو (حلقيا) ليحسب له الفضة المدخلة إلى بيت الرب التي جمعت من أموال الشعب. والأمر الذي لم ينتبه إليه المفكرون اليهود القدامى والمحدّثون وكان يجب عليهم أن يفطنوا له ويدركوه هو أنه من موت سليمان وحتى عصر ظهور يوشيا الملك حوالي ٦٢٢ قبل الميلاد أي أكثر من ثلاثمائة عام ولا توجد أدنى معلومة عن التوراة ولم يسأل أحد من الشعب أو قادته عن سفر الشريعة ثم فجأة وبعد عمليات عديدة من الهدم والبناء يكتشف الكاهن «حلقيا» وبطريق الصدفة المجردة (سفر الشريعة) ومتى يكون ذلك؟ عندما يرسل إليه الملك يوشيا خادمه (شافان ابن أصاليا ابن مشلاّم) للمحاسبة ومراجعة الأموال المجبيّة من الشعب، وعندما يقرأ الجميع: الكاهن حلقيا

شافان والملك والشعب يدرك الجميع أنهم حادوا وضلّوا وزاغوا عن الطريق المستقيم، والعجيب الغريب الذي يقصّه علينا سفر الملوك الثاني في الإصحاح رقم ٢٢ ومن الفقرات ٣ ـ ١٣ وكذلك أخبار الأيام الثاني من الإصحاح ٣٤ فقرات ٨ ـ ٢٨ مما يتعلق بهذه الوقائع لم يفطن إليه كما قلنا العقل اليهودي في القديم والحديث ويدرك أنه أمام محنة قاسية وأنه واقع أمام عملية تزييف كبرى قام بها الكاهن حلقيا في دعواه الكاذبة التي ادّعى فيها أنه وجد سفر الشريعة في ركن من أركان الهيكل.

إن الهيكل قبل عهد يوشيا وقبل عهد أحاز ملك يهوذا قد تعرض للنهب والعدوان ولم يكن مغلقاً على أسرار فضلاً عن أن الكهنة والسدنة والخدم يدخلونه كل يوم وليس بالقطع فيه من الجوانب أو الحجرات أو السراديب شيئاً يمكن أن لا تكون قد وقعت عليه يد الكهان. ثم إن يوشيا لم يرسل إلى حلقيا شافان إلا بعد مضي ثمانية عشر عاماً على ملكه كما يقول الإصحاح الثاني والعشرين من الملوك الثاني فأين كان حلقيا طوال هذه المدة ولِمَ لم تقع عينه على سفر الشريعة طوال سبعة عشر عاماً لم يقل لنا كاتب الملوك الثاني أي نسخة من الشريعة وجدها حلقيا؟. أتلك التي كتبها موسى وأخذ عليه العهد من بني إسرائيل، أم النسخة التي خطّها يشوع وأضاف إليها ما أضاف وحذف منها ما حذف على ضوء ما في سفره أم لوحيّ الحجر الذين تركهما موسى مع تابوت العهد. إن شيئاً من هذا لم يوضحه لنا حلقيا فيما نسبت إليه الأسفار.

ولننظر إلى ما يقصّه علينا في هذا الشأن الإصحاح الثاني والعشرون من الملوك الثاني: (. . . وفي السنة الثانية عشر للملك يوشيا أرسل الملك شافان ابن أصليا ابن شلاّم) الكاتب إلى بيت الرب قائلاً اصعد إلى حلقيا الكاهن العظيم فيحسب الفضة المدخلة إلى بيت الرب التي جمعها حارسوا الباب من الشعب.. فيدفعوها ليد عاملي الشغل الموكلين لبيت الرب ويدفعوها إلى عاملي الشغل الذي في بيت الرب لترميم سلم البيت للنجارين والبنّائين

والنحاتين ولشراء أخشاب وحجارة منحوتة لأجل ترميم البيت إلا أنهم لم يحاسبوا بالفضة المدفوعة لأيديهم لأنهم إنما عملوا بأمانة فقال حلقيا الكاهن العظيم لشافان الكاتب قد وجدت سفر الشريعة في بيت الرب وسلّم حلقيا السفر لشافان فقرأه وجاء شافان الكاتب إلى الملك ورد على الملك جواباً وقال قد أفرغ عبيدك الفضة الموجودة في البيت ودفعوها إلى يد عاملي الشغل وكلاء بيت الرب وأخبر شافان الكاتب الملك قائلاً قد أعطاني حلقيا الكاهن سفراً وقرأ شافان أمام الملك فلما سمع الملك كلام سفر الشريعة مزّق ثيابه وأمر الملك حلقيا الكاهن وأخيقام ابن شافان وعقبور ابن ميخا وشافان الكاتب وعسايا عبد الملك قائلاً. اذهبوا اسألوا الرب لأجلي ولأجل الشعب ولأجل كل يهوذا من جهة كلام هذا السفر الذي وجد لأنه عظيم هو غضب الرب الذي اشتغل علينا من أجل أن آباءنا لم يسمعوا لكلام هذا السفر ليعملوا حسب كل ما هو مكتوب علينا).

ونفس النص تقريباً يسوقه عن هذه الواقعة نفسها سفر أخبار الأيام الثاني في الإصحاح الرابع والثلاثين وقد أراد كتّاب السفرين: الملوك الثاني وأخبار الأيام الثاني بما أورداه التدليل على حفظ وصون سفر الشريعة لكنهم لم يفطنوا إلى الخلل الموضوع والتدوين الذي جاء بين سياق ما ورد في السفرين فضلاً عن عدم إلمامهم بما سبق الحادثة التي يروونها في السفرين مما يجعل قبول ما في السفرين عن سفر الشريعة المكتشف على يد حلقيا متعذراً بل وغير متصور على الإطلاق.

يقول الإصحاح الرابع والثلاثون من سفر أخبار الأيام الثاني فقرات ٨ ـ ٢٢: (في السنة الثانية عشر من ملكه بعد أن طهّر الأرض والبيت أرسل شافان ابن أصليا ومانسيا رئيس المدينة ويآخ ابن أحاز المسجل لأجل ترميم بيت الرب إلهه، فجاءوا إلى حلقيا الكاهن العظيم وأعطوه الفضة المدخلة إلى بيت الله التي جمعها اللاويون حارسوا الباب مني وفرايم ومن كل بقية إسرائيل ومن كل يهوذا وبنيامين ثم رجعوا إلى أورشليم ودفعوها لأيدي عاملي الشغل

الموكلين في بيت الرب فدفعوها لعاملي الشغل الذين كانوا يعملون في بيت الرب لأجل إصلاح البيت وترميمه وأعطوها للنجارين والبنّـائين ليشتـروا حجارة منحوتة وأخشاباً للوصل ولأجل تسقيف البيوت التي أخربها ملوك يهوذا وكان الرجال يعملون العمل بأمانة وعليهم وكلاء: تحت وبيديا اللاويان من بني مراري وزكريا ومشلّام من مراري وزكريا ومشلّام من بني القهائيين لأجل المناظرة، ومن اللاويين كل ماهر بآلات الغناء وكانوا على الحمال ووكلاء على كل عامل شغل في خدمة فخدمه وكان من اللاويين الكتاب وعرفاء وبوابون. وعند إخراجهم الفضة المدخلة إلى بيت الرب وجدا حلقيا الكاهن سفـر شريعة الرب فأجاب حلقيا وقال لشافان الكاتب قد وجدت سفر الشريعة في بيت الرب وسلم حلقيا السفر إلى شافان فجاء شافان بالسفر إلى الملك ورد إلى الملك جواباً قائلاً: كل ما أسلم ليد عبيدك هم يفعلونه وقد أفرغوا الفضة الموجودة في بيت الرب ودفعوها ليد الوكلاء ويد عاملي الشغل وأخبر شافان الكاتب الملك قائلاً: قد أعطاني حلقيا الكاهن سفراً وقرأ فيه شافان أمام الملك، فلما سمع الملك كلام الشريعة مزّق ثيابه وأمر الملك حلقيا وأخيقام بن شافان وعيدون بن ميخا وشافان الكاتب وعسايا عبد الملك قائلاً: اذهبوا اسألوا الرب من أجل من بقي من إسرائيل ويهوذا من كلام السفر الذي وجد لأنه عظيم غضب الرب الذي انسكب علينا من أجل أن آباءنا لم يحفظوا كلام الرب ليعملوا حسب كل ما هو مكتوب في هذا السفر.

هذا هو نص ما جاء في أخبار الأيام الثاني ولا تفسير عند أتباع وشرّاح العهد القديم لهذا التوافق العجيب في رواية الحدث الواحد في سفرين بينهما حقبة زمنية طويلة وبالقطع أحدهما ولو في مراحل التدوين فقط متقدم عن الآخر فلِمَ لم يكتف اللاحق بالإشارة إلى هذا الحادث الذي كتبه السابق أو أن يعرضه لكن بصياغة يخالف بها أحدهما الآخر، وأيّاً كان الأمر فهذان المصدران من كتب العهد القديم يريدان أن يقولا: إن سفر الشريعة في عهد يوشيا كان موجوداً ومتداولاً وأن حلقيا لم يكن دوره أكثر من كونه مكتشفاً لسفر الشريعة، والسؤال الذي بين أيدينا هو ما الذي جعل حلقيا الكاهن

على فرض صحة الرواية التي تقول إنه عثر على سفر الشريعة في ركن من أركان الهيكل ما الذي جعله يوقن أن ما وجده كان هو سفر شريعة الرب الذي كان بيد موسى كما تقول أخبار الأيام الثاني محدداً على غير ما فعل الملوك الثاني خاصة وأن السفر كما تؤكد عبارات إصحاحاته يقول إن الآباء وبالقطع بينهم آباء حلقيا لم يعرفوا ولم يحفظوا كلام الرب فمن أين عرف حلقيا أن ما عثر عليه من نصوص هو كلام الرب خاصة وأن عهد الآباء والأبناء بكلام الرب كما يقول النص أنهم لم يعرفوا ولم يحفظوا.

وإذا لم يكن حلقيا هو الذي ألّف وصنع ما قدّمه من نصوص وما صنعه من أسفار الرب لشافان فمن أين له أن يعتقد أن ما عثر عليه هو سفر شريعة الرب، لِمَ لا يكون مدسوساً في البيت أعني في الهيكل من أعـداء يهوذا وإسرائيل، ثم ولماذا لم يتحقق الملك هو الآخر هذا الملك الذي تعبر عنه الأسفار بأنه يعمل المستقيم في عيني الرب أعني يوشيا الملك لماذا لم يتحقق من سلامة وصحة اكتشاف حلقيا خاصة وأنه طوال سبعة عشر عاماً من ملكه وأخبار الهيكل تأتيه. ولا معلومة واحدة قد وصلته عن سفر الشريعة، ولم يكن قد كلّف أحداً بالبحث عنه فضلاً عن انقطاع صلة الشعب والكهان بنصوص سفر الشريعة وما بقي منها إذا كان قد بقي شيء فهو مما حفظته الذاكرة في وعي بعض الرجال عبر أجيال طويلة. فإذا لم يكن الحادث، كحادث اكتشاف حلقيا لسفر الشريعة المدعى في السفرين المذكورين مسرحية مدبرة بيْنَ الملك يوشيا وكاتبه شافان والكاهن حلقيا فالذي لا جدال فيه أن حلقيا يكون قد نجح في إقناع. . الشعب والملك بهذه الأُكذوبة التي سجلتها فقرات السفرين المشار إليهما آنفاً.

وفي هذا يقول العلاّمة (رحمت الله ابن خليل الرحمن الهندي) في كتابه: (إظهار الحق): (العجب كل العجب أن تكون النسخة في البيت لا يراها أحد فهذه النسخة ما كانت إلا من مخترعات حلقيا فإنه لما رأى توجه السلطان والأراكين إلى اتباع الملة الموسوية جمعها من الروايات اللسانية التي وصلت إليه

من أفواه الناس سواء كانت صادقة أو غير صادقة وكان إلى هذه المدة يقصد فترة حكم يوشيا في جمعها وتأليفها فبعدما جمع نسب إلى موسى عليه السلام، ومثل هذا الافتراء والكذب لترويج الملة وإشاعة الحق كان من المستحبات الدينية عند متأخري اليهود وقدماء المسيحيين)[١].

وبجدل علمي متّزن راح (رحمت الله في كتابه (إظهار الحق) يناقش حادث اكتشاف حلقيا لسفر الشريعة ويقول: (ولكني أقطع النظر هاهنا عن هذا وأقول[٢] إنه وجدت نسخة التوراة في العام الثامن عشر من سلطنة يوشيا وبقيت مجهولة إلى ثلاث عشرة سنة مدة حياته، ولما مات جلس (يهوحاز) على سرير السلطنة، ارتدّ وأشاع الكفر وتسلط عليه سلطان مصر وأسر وأجلس أخاه على سرير السلطنة وهو كان مرتدّاً أيضاً كأخيه، ولما مات جلس ابنه على السرير وكان مرتدّاً كأبيه وعمه وأسره بختنصر مع جمٍّ غفير من بني إسرائيل ونهب بيت المقدس وكنز بيت الملك وأجلس عمه على سرير السلطنة وكان مرتدّاً أيضاً كابن أخيه فإذاً على هذا فأقول: إن تواتر التوراة في اليهود منقطع قبل زمان يوشيا والنسخة التي وجدت في عهده لا اعتماد عليها ولا يثبت بها التواتر، ومع ذلك ما كانت معمولة إلا إلى ثلاث عشر سنة وبعدها لم يعلم حالها، والظاهر أنه لمّا رجع الإرتداد والكفر بين أولاد يوشيا زالت قبل حادثة بختنصر وكان وجودها بين أزمنة الارتداد ولو فرض بقاؤها أو بقاء نقلها فالمضمون زوالها في حادثة بختنصر.

هذا ومن المؤكد أن اليهود في مرحلة السبي والتي تكررت مرات بعد هجمة نبوخذنصّر لم يكونوا يتداولون فيما بينهم ولو سراً شيئاً من سفر الشريعة ولم يشِر إلى ذلك واحد من أنبياء مرحلة السبي الذين فاض بذكرهم العهد

---

(١) (إظهار الحق) رحمة الله ابن خليل الرحمن الهندي إخراج وتحقيق عمر الدسوقي الجزء الأول وزارة الشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية مكتبة الوحدة العربية بالدار البيضاء عام ١٩٦٤ صفحة ٣٢٥.

(٢) المرجع السابق صفحة ٣٢٦.

القديم باستثناء (عزرا) الذي شرع يقرأ على العائدين طوال يوم كامل ما قيل عنه أنه (سفر شريعة موسى) ولمّا فرغ من قراءتها ومجموعة المعاونين له أقسم الكهنة والزعماء على أن يطيعوا هذه الشرائع ويتخذوها دستوراً لهم وأغلب الظن عندي أن مجموعة الشرائع التي قرأها (عزرا) حين العودة على أنها سفر شريعة موسى ليست هي سفر الشريعة وليست هي كذلك السفر الذي آدّعى حلقيا أنه سفر الشريعة في عهد يوشيا وذلك لسبب واحد وبسيط وهو أن سفر الشريعة الذي آدّعى حلقيا العثور عليه قرأه على الملك في يوم واحد، أو في جلسة واحدة ثم بكوا بعدها جميعاً بينها الشرائع التي قرأها عزرا على الشعب حين العودة على أنها من سفر الشريعة احتاجت في نصوصها إلى أسبوع كامل كما يقول (نحميا في سفره بالإصحاح الثامن يقول في الفقرة ١٣: (وفي اليوم الثاني اجتمع رؤوس آباء جميع الشعب والكهنة واللاويون إلى (عزرا) الكاهن ليفهمهم كلام الشريعة) والفقرة رقم ١٨ من نفس السفر في نفس الإصحاح المنسوب لنحميا تقول (وكان يقرأ في سفر شريعة الله يوماً فيوماً من اليوم الأول إلى اليوم الأخير وعملوا عيداً سبعة أيام وفي اليوم الثامن اعتكاف حسب المرسوم).

وأعتقد أنه بهذه المقابلة بين الموقف الذي قرأ فيه حلقيا الكاهن سفر الشريعة أمام الملك وبين الأيام التي كانت تقرأ فيها الشريعة على يد (عزرا) يوم بعد الآخر يتأكد لنا أن هذه الذي كان يقرأها حلقيا غير تلك التي كان يقرأها (عزرا).

ويكاد يجمع علماء الحضارة وفيهم: (ول ديورانت)[1]

---

(١) (يقول ول ديورانت) في (قصة الحضارة في الجزء الثالث من المجلد الثاني طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر الطبعة الثانية في صفحة ٩٣: (... كتب اليهود بالعبرية أو الآرامية أو اليونانية روائع خالدة كأسفار الجامعة ودانيال وأجزاء من الأمثال والمزامير والجزء الأكبر من الأسفار الأبوكريفية، كتبوا بعضها في أورشليم ومعظمها في الإسكندرية وبعضها الآخر في غيرهما من موانىء شرق البحر الأبيض المتوسط وكتبوا تواريخ كسفر الإخبار وقصصاً صغيرة كاستر ويهوديت وأناشيد للأسري كسفرطوبيت.. ويقول ديورانت: (وقبل أن يختم القرن =

وأسبينوزا[١] على أن اليهود قد قاموا بتجميع ما سمي بالتوراة أثناء السبي البابلي في شكل.. شرائع وتعاليم وأنهم كتبوا هذه الشريعة التي أرادوا بها أن ينظموا مجتمعهم ولقد كتبت هذه التعاليم بتأثير من قوانين حمورابي.

ولئن كنا هنا لا نريد أن نقول ما يقوله علماء الغرب عن التشابه الكبير بين قوانين حمورابي وقوانين التوراة وشرائع العبرانيين[٢]،فإن الذي لا شك فيه أن التوراة الحالية التي بين أيدينا ومن خلال أسفار الخمسة في العهد القديم قد مرّت مراحل متعددة تطورت خلالها مادتها الإخبارية وتغيرت بالطبع أساليب تدوينها وتسجيلها بل لقد تغيرت وظيفة النبي والكاهن من حال إلى حال،فطوراً يقوم بدور القاضي وآخر يقوم بدور السياسي والثالث يقوم بدور مقيم الشعائر وحارس الهيكل ورابع في خدمة المحتل أو المستعمر عدو رب الشعب والشعب وهكذا،بل تغيرت صفات ومعالم العقيدة الدينية التي تعرضها الأسفار الخمسة من مرحلة عن الأخرى وكان ذلك بأثر التنقيح والحذف والإضافة الذي تعرضت له الأسفار الخمسة ونعتقد أن النسخة الأصلية أو قل النسخة القريبة من أصول ونصوص وجوهر النسخة الأصلية لم يعد منها متداولاً أو معروفاً إلا ما علّق بذهن بعض الكهان،وكان نقله بهذا الشكل الضيق المحصور المتمثل في النقل الشفهي عبر أجيال بعض الكهان ثم كان يتداول على بعض الألسنة كتراث ديني وقومي، وظل الحال على هذا المنوال دون أن يكون بين أيدي الشعب كتاباً مدوناً أو مسجلاً يتداول على أنه سفر الشريعة حتى العودة من السبي،وبعد عدة أجيال بدأ تدوين التوراة العبرية مما انتهى وتناهى إلى الكهان وخاصة في أعقاب عملية التخزين والاستحضار التي

= الثالث كان علماء المجمع العظيم قد فرغوا من نشر الأدب القديم كله وانتهوا بكتب العهد القديم، وقد حكموا في ذلك الوقت أن عصر الأنبياء قد انتهى وأن الوحي اللفظي قد انتهى زمنه، وكانت نتيجة هذا الحكم أن كثيراً مما كتب في ذلك العصر وإن كان مليئاً بالحكمة والجمال لم تتح له فرصته من السند الإلهي.

(١) (أسبينوزا) رسالة في اللاهوت والسياسة.

(٢) (محمد بيومي مهران) دراسات في تاريخ الشرق الأدنى جزء ٢ ص ٣٧.

قام بها بعضهم في ظل القهر البابلي وقد أخذت الأسفار الخمسة صورة أقرب ما تكون إلى وضعها الحالي في كتب العهد القديم ثم تناولتها يد التنقيح منذ هذه المرحلة بعد العودة من سبي بابل حتى قيام دولة الاسكندر، بل إن هناك بعض الباحثين المعاصرين من يرى على ضوء دراسته لتاريخ حركات الشعوب في الشرق الأدنى القديم أن أسفار بعض كتب الأنبياء في العهد القديم فيما ترويه من حوادث وأخبار تاريخية ترجح أنها أقدم من الكتب الخمسة المسمّاة (بالتوراة)، وإلى مثل هذا الرأي يذهب الأستاذ الدكتور نجيب ميخائيل في كتابه الموسّع (مصر والشرق الأدنى القديم) الجزء الثالث صفحة ٢٠٣[١]. ومع أننا قد لا نرجح مثل هذا الرأي الذي يذهب إليه الأستاذ الدكتور نجيب ميخائيل بالرغم من أهميته إلا أنه يصبح في مجال التأريخ لمراحل تدوين الكتب الخمسة والتعرّف على هذه المراحل عاملاً مساعِداً على الكشف عن كل ما يحيط بمراحل تدوين الكتب الخمسة من غموض. كما أنه يعاون في التدليل على أن هذه الكتب لم تحفظ قبل عصر السبي بالتواتر ولم تنقل إلينا كما هي دفعة واحدة وإنما تمت لها عمليات من التتميم والتكميل وأصبحت على حال غير الحال الذي تركه عليها نبي الله موسى عليه السلام بين بني إسرائيل.

وإن كان هذا القول الذي لا يعود بتاريخ التوراة التي في العهد القديم إلى ما قبل العودة من السبي لا يمنع من أنه قد يكون بين سياق الكتب الخمسة فكراً بشرياً مدوناً أقرب ما يكون إلى روح ما أملاه بعض الكهان حين تم تدوين التوراة العبرية مما كان عالقاً بذهنهم عن أخبار سفر الشريعة أي تعاليم التوراة. أما نص الوحي الإلهي الذي تلقّاه موسى والذي دوّن على لوحيّ الحجر أو حتى النسخة التي نسخها يشوع عن نسخة موسى فيما روت الأسفار لو صحّت روايتها فإن شيئاً من هذا لم يثبت تواتره ولم ينته إلينا عبر الأسفار الخمسة أو غيرها من كتب العهد القديم.

---

(١) (نجيب ميخائيل) مصر والشرق الأدنى الجزء الثالث صفحة ٢٠٣ الإسكندرية عام ١٩٦٦ م.

متى وكيف كتبت الأسفار

يطالعنا في العهد القديم بعد الأسفار الخمسة مباشرة (سفر يشوع).. ومضمون هذا السفر يؤكد لنا أن يشوع هو بطل السفر والشخصية الرئيسية فيه لكنه بالقطع ليس كاتبه، فإن كانت بعض المصادر اليهودية تصر على أن كاتب السفر هو يشوع لكن (كلفن) يرى أن الكاتب للسفر هو (أليعازر بن هارون) وإن كان آخرون يرون أنه فيد حاس أو صموئيل أو أرمياء ولأن السفر يتضمن معلومات موت يشوع ومكان دفنه وعدد سنين عمره حين موته كما في الإصحاح الرابع والعشرين من فقرتي ٢٩ - ٣٠ وأخبار عن جبال يهوذا وإسرائيل كما هو في الإصحاح.. الحادي عشر فقرة ٢١ التي تتحدث عن غزة وأشدود وحبرون فيصبح من المتيقن أن يشوع لم يكتب السفر الذي يحمل اسمه أو على الأقل لم يكتب معه ما جاء فيه لأن بعض ما جاء فيه كما تقول الفقرة ٢٦ من الإصحاح ٢٤ صراحة قد كتبه يشوع إذ تقول: (... وكتب يشوع هذا الكلام في سفر شريعة الله وأخذ حجراً كبيراً ونصبه هناك تحت البلوطة التي عند مقدس الرب)[1].

أما وقت كتابة السفر جملة أو الدخول في تدوينه فهو في وقت متأخر بكثير عن عصر يشوع فهناك إشارات منه تدل على أنه كتب قبل عهد داوود بقليل فهو يذكر مدينة صيدا على أنها عاصمة الفينيقيين وعلى أن اليبوسيين ما

---

(١) (سفر يشوع) الإصحاح الرابع والعشرون فقرة ٢٦.

يزالون من سكان أورشليم[1] وعلى أن الكنعانيين كانوا يسكنون في جازر، وهناك. . إشارات منه أيضاً كما في الإصحاح الثامن عشر وفي الفقرات الأولى منه ما يوحي بأنه كتب في زمان السبي البابلي[2]،وهناك من العلماء المعاصرين ومنهم الدكتور فؤاد حسنين علي يرى أن سفر يشوع جمع في القرن الخامس قبل الميلاد بالرغم من وجود فقرات فيه توحي بأن زمن كتابته يرجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد[3]. هذا ويقول الإصحاح الثامن عشر من سفر يشوع. . (. . . واجتمع كل جماعة بني إسرائيل في شيلوة ونصبوا هناك خيمة الاجتماع وأُخضعت الأرض قدامهم وبقي من بني إسرائيل من لم يقسموا نصيبهم سبعة أسباط فقال يشوع لبني إسرائيل حتى متى أنتم متراخون عن الدخول لامتلاك الأرض التي أعطاكم إياها الرب إله آبائكم! هاتوا ثلاثة رجال من كل سبط فأرسلهم فيقوموا ويسيروا في الأرض ويكتبوها بحسب أنصبتهم ثم يأتوا إليّ وليقسموها إلى سبعة أقسام فيقيم يهوذا على تخمه من الجنوب ويقيم بيت يوسف تخمهم من الشمال وأنتم تكتبون الأرض سبعة أقسام ثم تأتون إلى هنا فأُقيم لكم قرعة هاهنا أمام الرب إلهنا.

ونقاد العهد القديم يرون في لغة هذه الفقرات وسياقها ما يشعر بل وما يؤكد بأنها كتبت بعد السبي حتى مع ورود ذكر للاويين بعدها، ذلك أن تقسيم الأنصبة والتراخي عن دخول الأرض التي سيمتلكونها وإحضار رجال من كل سبط ليكتبوا الأرض بحسب الأنصبة وإقامة بيت يهوذا على تخم في الجنوب وبيت يوسف على تخم في الشمال، كل ذلك من الأحوال والأوضاع التي لازمت اليهود عقب العودة من السبي وأثناءه.

وسفر القضاة الذي ينسب إلى مجموعة من الرجال تحدث السفر عنهم

(١) محمد بيومي مهران) (دراسات في تاريخ الشرق الأدنى جزء ٢ ص ٣١.
(٢) (سفر يشوع) الإصحاح الثامن عشر فقرات ١ ـ ٦.
(٣) (فؤاد حسنين علي): (التوراة الهيروغليفية) دار الكاتب العربي للطباعة والنشر صفحة ٦٤ القاهرة بدون تاريخ.

بأن الله قد أعانهم على إنقاذ الإسرائيليين وتدبير أمورهم بعد سلسلة من الكوارث على يد سكان الأرض الأصليين، فإن شرّاح التراث الإسرائيلي من اليهود والمسيحيين يذهبون إلى أن كاتبه هو صموئيل، ودليل هذا الرأي لا سند له من شواهد أو براهين تاريخية أو نصيّة خاصة وإن لصموئيل سفر طويل كان يمكن أن تُساق فيه وأن تدوّن مرويات القضاة لو كان هو الكاتب لهذا السفر، على أن بعض الدارسين للعهد القديم يرون أن خصائص لغة سفر القضاة تؤكد أن مجموعة كتّاب هم الذين قاموا على أمر تدوين هذا السفر وإن زمن كتابته، وتدوين مروياته كان فيما بين الفترة من ٦٠٠ ـ ٤٠٠ ق.م. وقد يكون هذا الرأي الأقرب إلى مضمون ولغة السفر هذا وسفر (راعوث) هو الآخر من الأسفار التي طال الجدل حول شخصية مؤلفه مع أن بعض نصوص التلمود تنسب كتابته إلى صموئيل صراحة، بينما هناك رأي يهودي يميل إلى أن كاتبه هو (حزقيا) في الوقت الذي ترجح فيه اللجنة العلمية لقاموس الكتاب المقدس أن كاتبه هو (عزرا) أو (نحميا).

أما سفر صموئيل بجزئيه الأول والثاني فقد كان سفراً واحداً وبدون تقسيم ولم يصبح هكذا إلا في الترجمة السبعينية وإطلاق اسم صموئيل على السفرين لا يعني بالضرورة أن يكون هو كاتبهما بل إشارة إلى اهتمام السفرين بشخصية صموئيل ونسبة السفر إلى صموئيل على أنه هو كاتبه كما يزعم التلمود غير صحيح فيكفي أن سفر صموئيل الأول في الإصحاح رقم ٢٥ وفي الفقرة الأولى عبارة تتضمن خبر موت صموئيل فضلاً عن افتقاد السفر بجزئيه لوحدة الموضوع بين سياق السفرين كما سبق وأن قررنا بذلك عند التعريف بهما، فمن أخبار الكهنة والتابوت إلى سيرة صموئيل وشاول إلى ظهور نجم داوود واعتلائه عرش المملكة إلى غير ذلك من القضايا التي فاض بها السفران لا يمكن أن تنسب إلى جهد رجل واحد دون كل ذلك الحشد الطويل من الأخبار والأحداث فضلاً عن أن يكون هو بطل ومحرّك هذه الحوادث، وكما يقول الدكتور مراد كامل في كتابه (الكتب التاريخية في العهد القديم) يبدو أن تأليف السفرين استغرق حوالي مائة عام في الفترة من ٨٥٠ ـ ٧٥٠ ق.م.

فإنه من غير المعقول أن تكون كل تلك الفترة الطويلة يقوم فيها وخلالها رجل واحد يدوّن ما تضمنه السفران، والمرجح عندنا أن الكهنة من بيت إسرائيل كانوا يوظفون مجموعة من مدوّني الحوادث يتفرغون لتدوينها وتسجيلها ولذا تجيء في معظم الأحوال وفيها ذلك التصوير الجيد والعرض الطيب الذي نراه في الكتب التاريخية على وجه الخصوص(١).

هذا ويذهب بعض شرّاح التراث إلى أن صموئيل كتب الأربعة والعشرين إصحاحاً الأولى وإن ناثان وجاد النبيّان أكملاها معتمدين في ذلك على ما جاء في إخبار الأيام الثاني في الإصحاح رقم ٢٩ عند قوله في الفقرتين ٢٩/٣٠: (وعند انتهاء المحرقة خرّ الملك وكل الموجودين معه وسجدوا وقال حزقيا الملك والرؤساء للاويين أن يسبحوا الرب لكلام داوود وآساف الرائي فسبحوا بابتهاج وخرّوا وسجدوا.

وأما سفر الملوك الأول والثاني فيزعم التلمود أن كاتبهما هو (أرميا) ولكنه زعم لا يستند إلى دليل خاصة وأن السفر تمتد حوادثه إلى ما بعد عصر أرميا، ويظن بعض شرّاح التراث أن كاتب السفرين هو (باروخ أو عزرا)(٢) وعلى أية حال فقد كان السفران في النص العبري سفراً واحد ثم فصّلا في الترجمة السبعينية.

ومن الجدير بالذكر أن الفيلسوف: (أسبنوزا) في دراسته النقدية الدقيقة للكتاب المقدس والتي ضمّها كتابه الجيد (رسالة في اللاهوت والسياسة)، يرى أن أسفار صموئيل الأول والثاني والملوك الأول والثاني وإخبار الأيام جميعها جمعها مؤلّف واحد أراد أن يروي تاريخ اليهود القديم منذ نشأتهم الأولى حتى خراب أورشليم الأول ويدلّل أسبنوزا على رأيه هذا بدلائله النقدية الكثيرة ومن بينها فيما يذهب إليه تتابع الروايات والربط بينها وتحديد غاية معينة جعلت الأسفار عنده تتميز بخصائص ثلاث: وحدة الغرض، وارتباط الروايات

(١) (مراد كامل) (الكتب التاريخية في العهد القديم معهد الدراسات العربية العالي.
(٢) (قاموس الكتاب المقدس) جزء ٢ صفحة ٩٢٠.

وتدوينها المتأخر بعد الحوادث بعدة قرون. هذا ويرجح أسبنوزا أن الكاتب الذي قام على جمع هذه السلسلة من الكتب هو (عزرا) لأن الروايات كلها تنتهي عنده، وعليها فيصبح عمل (عزرا) عند (سبنوزا) هو جمع الروايات من كتب أو من مأثورات التراث الشعبي المتداولة على الألسنة ثم نسخها ونقلها دون ترتيب أو تحقيق، وهو بهذا يحاول أن يفسر سر وجود نفس الروايات بألفاظ تختلف قليلاً أو كثيراً عنها في عدد من الأسفار وهذا مما يؤكد أن ألفاظ الروايات قد دوّنت بعد الأحداث التي تتعرض لها بزمن طويل، ومن هنا فقد كانت عند (أسبنوزا) مهمة (عزرا) صعبة ذلك لأنه لم يستطع إلا أن ينقل الروايات دون تحقيق ومن هنا جاءت النصوص في معظم هذه الكتب منقوصة ومتعارضة لأن مصادرها عديدة ولم يطّلع بعض الكتّاب على ما كتب بعضهم وحين حاول الأحبار والكهان بعد ذلك التوفيق بين هذه الأسفار لم يفلحوا ولعلّ هذا ما يخفّف من إمكان توجيه النقد إلى مجموعة الكتّاب الذين أشرفوا على مجموعة الأسفار التي تناولها أسبنوزا بالنظر على أن كاتبها هو (عزرا) فقد كان هؤلاء الكتّاب المفترض أنهم كانوا يعملون تحت إشراف (عزرا) وبتوجيهه يأخذون معلوماتهم من مصادر شتى ومن هنا جاء ذلك الخلل والتباين الذي بين نصوص هذه الأسفار في الرواية والتدوين.

وأما سفر الأيام الأول والثاني فيبدو أن وقت كتابتهما كان متأخراً إلى حدٍّ ما عن غيرهما، فهناك من يذهب إلى أنهما قد صنّفا في الفترة بين ٤٠٠ ـ ٣٥٠ قبل الميلاد على حين يذهب آخرون إلى ما هو أقرب ألينا من هذا التاريخ إذ يرى أنهما كتبا في الفترة بين ٣٠٠ ـ ٣٥٠ قبل الميلاد ويعتمد في ذلك على امتداد تسلسل النسل، وعلى أخبار في الأيام الثاني فيها ذكر لقورش ملك الفرس مما يرجح أن عصر الفرس حين كانت تدوين مرويات هذا السفر قد انتهى تماماً، إذ لو كان حكم الفرس قائماً لاكتفى بذكر اسم (قورش) فقط دون أن تجيء الفترة قبل الأخيرة من الإصحاح السادس والثلاثين من إخبار الأيام هكذا: (وفي السنة الأولى لقورش ملك فارس لأجل تكميل كلام الرب بفم آميا نبّه الرب روح (قورش) ملك فارس فأطلق نداءً في كل مملكته وكذا

بالكتابة قائلاً. هكذا قال (قورش) ملك فارس)[1].

هذا ومن المرجّح عند كثير من المشتغلين بالدراسات الإسرائيلية أنه بالمقابلة بين آراء (عزرا) وبين مضامين السفرين يتأكد أن كاتبهما هو (عزرا) لكنه في نفس الوقت وعند فريق آخر من علماء التراث الإسرائيلي لا يكتفي بعدم وجود دليل بأن (عزرا) هو كاتب السفرين بل يستبعد أن يكون (عزرا) قد كتب أو عاصر كتابتهما، بل إن (أسبينوزا) يرى أنهما قد كتبا بعد من (عزرا) بفترة طويلة قد تكون بعد إعادة الهيكل.

وكذلك الحال في سفري (عزرا ونحميا) اختلف في تاريخ ومراحل كتابتهما كثيراً. كذلك اختلف في مَنْ كتبهما وإن تكن فيهما عند بعض الباحثين والدارسين لهما بعض الفقرات التي يمكن أن تكون من صنعهما، لكن السفران في وضعهما الحالي لم يكتبهما (عزرا أو نحميا)، وذلك بقرائن كثيرة تنفي صلة الرجلين بالسفرين، فنحميا في الإصحاح الثاني عشر فقرة ٢٢ يورد سلسلة من الكهان بينهم الكاهن (يبدوع) على أنه واحد من رؤوس الآباء في عصر (داريوس) الفارسي بينما (يبدوع) كان رئيس الكهنة في عصر الاسكندر الأكبر وذلك الخبر وحده يؤكد أن السفر في وضعه الحالي لم يتم إلا بعد عام ٣٠٠ ق.م[2].

تقول فقرة الإصحاح الثاني عشر في نحميا: (وكان اللاويون في أيام الباشيب ويوياداع ويوحلقان ويبدوع مكتوبين رؤوس آباء والكهنة أيضاً في ملك داريوس الفارسي. كذلك فإن الإصحاح رقم ١٢ في فقرتي ٢٦، ٤٧ نراه يتحدث عن عصر (رزبابل) وعزرا (منحميا) بصيغة الماضي، كذلك يذكر نحميا في الفقرة ٢٢ من الإصحاح الثاني عشر إخباراً عن (دارا) الثالث الذي انتصر عليه الاسكندر.

---

(١) سفر إخبار الأيام الثاني ـ الإصحاح السادس والثلاثون فقرتا ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) (حبيب سعيد) المدخل إلى الكتاب المقدس صفحة ١٧٠.

ومن هنا كان (أسبينوزا) في رسالته (رسالة في اللاهوت. . والسياسة) ومن خلال صفحات ٣٤، ٣١٦، ٣١٨ على جانب من الصواب لا بأس به[١]. حين يرى أن هناك مؤلفاً واحداً، لكل مجموعة هذه الأسفار وإن لم يستطع أن يقول لنا مَنْ هو لكنه يرى وبغير دلائل كثيرة سوى منهجه النقدي للنصوص أن هناك كاتباً واحداً كتب أسفار (عزرا، ودانيال، نحميا)، وقد اخذ معلوماته عن سجلات الأحبار والقضاة والأمراء الذين كانوا يحتفظون فيها بأخبارهم.

هذا ويكاد يكون سفر أستير مجهول الهوية وليس له نسباً يرجع إليه وذلك لكثرة الآراء حوله، ويبدو أن تاريخه كان متأخراً كثيراً إذ أنه ربما يكون قد كتب الميلاد بمائة عام أو أقل قليلاً، وشاهين مكاريوس في كتابه: (تاريخ[٢] الأمة الإسرائيلية) صفحة ١٥٥، يرى أنه من الجائر أن يكون الكتاب قد ترجم من تاريخ فارس ونسب إلى عزرا أو مردخاي، ولأن أحداث السفر تعكس وجهة نظر المكابيين فربما يكون من صنع أحدهم.

هذا وهناك فريق من العلماء المشتغلين بالتراث وتاريخ المنطقة يرى أن كتابة سفر (أستير) كانت في منتصف القرن الأول قبل الميلاد[٣].

وأما سفر (أيوب) ومكانه في الترجمة السيرانية بين سفري (التثنية) (ويشوع) فيرى فيه بعض شرّاح التوراة والدارسين القدامى للعهد القديم تاريخاً حقيقياً، وينسبه بعضهم إلى موسى بينما يذهب البعض الآخر إلى أن أيوب شخصية تاريخية عاش قبل عهد موسى عاش على أيام يعقوب وتزوج من ابنته (دينه) بدليل قول الكاتب في مستهل السفر: رجل في أرض عوص) فضلاً عن الإشارة إليه في سفر (حزقيال) في الإصحاح الرابع عشر فقرة ١٤

---

(١) (أسبينوزا) في بحثه (رسالة في اللاهوت والسياسة) ترجمة وتقديم الدكتور حسن حنفي القاهرة عام ١٩٧١.

(٢) (شاهين مكاريوس) (تاريخ الأمة الإسرائيلية) صفحة ١٥٥.

(٣) (محمد بيومي مهران) (دراسات في تاريخ الشرق الأدنى - إسرائيل جزء٢) صفحة ٣٥٠.

إذ يقول (وكان فيها هؤلاء الرجال الثلاثة، نوح ودانيال، وأيوب فإنهم إنما كانوا يخلصون أنفسهم ببرهم يقول السيد الرب).

ولكن البعض الآخر ومنهم (موسى بن ميمون) وبعض الأحبار يحسبون السفر قصة روائية، ويرى (ابن عزرا)[1] أن سفر أيوب قد ترجم إلى العبرية من لغة أخرى، ومن هنا اتجه البعض إلى اعتبار السفر عربياً وليس يهودياً وعلى هذا فيصبح سفر أيوب الذي بين أيدينا ترجمة لأصل عربي مفقود وإن كل.. الدلائل التي في سفر أيوب تدل على أنه من العرب، فقد كان من أرض عوص، وعوص إن اختلف العلماء في مكانها فالراجح عندهم أنها في بلاد العرب في أرض نجد، وأما زمن كتابة سفر (أيوب) فيرى بعضهم أنه يرجع إلى عصر الآباء الأول وحجتهم في ذلك أنه لم يشر بكلمة واحدة إلى الخروج ولا إلى خراب المدن التي دمرتها الزلازل بجواره، ولم يرد ذكر (يهوه) في صلب كتابه وإنما ورد في المقدمة والذيل وهما مضافان بعد عصره كما هو الراجح عند الشرّاح، وذهب فريق آخر إلى أن... السفر قد كتب في عصر (سليمان) وحجتهم على ذلك أنه يحمل بين ثناياه إشارات من ذلك العهد، ويستدلون على ذلك بالفقرة الثامنة في الإصحاح الخامس عشر من السفر والتي تقول:- (هل تنصّبت في مجلس الله أو قصرت الحكمة على نفسك). أما لغة السفر ففيها مؤثرات آرمية أو عربية آرمية، ومن هنا فإن المرجح أن يكون زمن كتابة السفر هو الثلاثمائة سنة الأخيرة قبل الميلاد وهذا هو ما نرجحه.

وأما سفر (المزامير) فهو على العذوبة والنقاوة التي قد يجدها الباحث بين بعض فقراته مجموعات من الترانيم والمأثورات والأدعية لأحوال ومواقف ورجال متغايرة ومتباعدة، ولا جدال في أن المزامير قبل أن تكون في وضعها الحالي قد مرّت بأطوار وحقب مختلفة من بني إسرائيل، فبعض هذه المزامير على ضوء ما فيه من سياق يرجع إلى عصر الملكية، فالحديث عن المملكة

(١) (محمد بيومي مهران) (دراسات في تاريخ الشرق الأدنى) - إسرائيل جزء ٢ ص ٣٥٠.

والملك والمجد يبدو فيها واضحاً وبعضها الآخر يرجع إلى عهد السبي فلغة المذلّة والهوان والانكسار يرجع فيما يوحيه إلى هذه المرحلة، وبعضها الآخر دون بغير قرينة تساعد على التعرّف على عصره وبدون تحديد صلة نسب لقائله، وسياق سفر المزامير في جملته من الناحية التدوينية يدل على قربه من عصره سفراً مثال الذي دوّن في وقت ازدهار مدارس الحكمة.

وأما سفر الجامعة فيعتقد بعض العلماء المشتغلين باللاهوت أن كاتبه قد عاش في فترة التاريخ اليوناني التي عاصرت الاسكندر الأكبر، فقد تأثر السفر بالفلسفة اليونانية وبفكرة القضاء والقدر التي أشبعت بها الثقافة اليونانية، وكما يقول حبيب سعيد في كتابه (المدخل إلى الكتاب المقدس)[1] هناك على الأقل بعض التماثل بين أقواله وبين فلسفة الأبيقوريين، لأن الحكيم ينصح باقتناء الفرص وافتداء اليوم والتمتع بالملاذ الزائلة قبل ضياعها، ويبدو أن كاتب الجامعة كان متأثراً بالفعل إلى حدٍّ ما بروح الثقافة اليونانية، وإن استنشق عبير هذا الجو في تفكيره وإلهامه.

وأما سفر (أشعيا) أكبر أسفار العهد القديم حجماً، فقد اختلفت حوله الآراء اختلافاً يفوق أي سفر من أسفار العهد القديم فقد ظل الرأي حول هذا الرجل الذي يحمل السفر اسمه (أشعياء) يحمل علم النبوّة التي تحدث عنها السفر في يهوذا حوالي أربعين عاماً من ٧٤٠ ـ ٧٠٠ ق.م وكان الرأي الشائع أن أشعياء) هو كاتب هذا السفر بالرغم من كبر حجمه وكثره ما فيه لكن.. الدراسة النقدية لكتب العهد القديم، تناولت هذا السفر بشيء دقيق من الدراسة وانتهت إلى تقسيمه عدة أقسام لعدة مراحل تاريخية كما سبق وإن أشرنا إليها عند تناولنا لهذا السفر بالتعريف إلى أن كان عام ١٧٧٥ ميلادية حيث أنكر (ج. س دودرلين) الرأي القائل بأن أشعياء هو كاتب السفر ورأى أن أشعياء كتب المجموعة الأخيرة من إصحاحات سفره من رقم ٤٠ ـ ٦٦ فقط ثم أتى (ب ـ ديم) وذهب إلى أن الوحدة مفقودة حتى بين هذه الإصحاحات

(١) (حبيب سعيد) المدخل إلى الكتاب المقدس صفحة ١٦٢.

الأخيرة[1] وأن هناك أشعياء آخر هو كاتب إصحاحات ٥٦ ـ ٦٦ ثم تابعه مجموعة من العلماء الذين كانوا يروا غير ذلك على رأيه ومنهم: (أرنست سيللين).وفي عام ١٩٢٨ ميلادية قدم (س.س توري) نظريته في دراسة سفر (أشعياء) التي ذهب فيها إلى أن الإصحاحات من رقم ٣٤ ـ ٣٦ باستثناء الإصحاحات من ٣٦ ـ ٣٩ قد كتبها مؤلف كان يعيش في فلسطين، ويكاد يتفق العلماء الآن على أن سفر أشعياء هذا ينقسم إلى ثلاثة أقسام، القسم الأول من الإصحاح رقم ١ إلى ٣٩ وينسب إلى النبي (أشعياء ابن آموش)، القسم الثاني من الإصحاح رقم ٤٠ إلى ٥٥ وينسب إلى (نبي مجهول) أطلقوا عليه اسم (أشعياء الثاني) كان يعيش في بابل مع يهود الأسر البابلي وإن زمنه كان بعد قرن ونصف من موت (أشعياء ابن آموص) في أورشليم،والقسم الثالث من الإصحاح رقم ٥٦ ـ ٦٦ وينسب إلى نبي مجهول كذلك أطلق عليه أشعياء الثالث كان يعيش في فلسطين في فترة ما بعد بناء الهيكل عام ٥١٦ ق.م.

ومن الجدير بالذكر أنه عثر في عام ١٩٤٧ م في وادي القمران بالأردن على بعض الجرار عثر عليها عربي من الأردن بالصدفة كان فيها بعض المخطوطات القديمة لكتب العهد القديم، ثم تابعت اللجان العلمية أعمالها في منطقة وادي القمران بين المخطوطات القديمة والتي يرجع عمرها إلى ألف عام ووجد مخطوطة تتضمن سفر (أشعياء) من الإصحاح الأول حتى السادس والستين، ولعلّ هذه النسخة التي عثر عليها تكون قد نسخت من أصل مدوّن بعد الميلاد أو قبله بقليل.

وأما سفر آرميا الذي يحتوي على الكثير من الشئون التاريخية والسياسية فهو بشهادة نصوصه ليس من صنع آرميا ولا من تأليفه بل قد دبّجه وصاغه صديقه: (باروخ بن نيريا) وقد تكون عملية تأليفه قد بدأت منذ عام ٦٠٥ ق.م واستغرق بعد ذلك زمناً طويلاً لأنه خليط من نصوص غير مرتبة

(١) (محمد بيومي مهران) دراسات في الشرق الأدنى القديم جزء ٢ ـ ٣٨.

وليس فيها مراعاة للأزمنة فضلاً عن تعدّد أسلوبه، وكذلك الأمر في إصحاحات المراثي المنسوبة لآرميا فهي أناشيد للتوجّع والبكاء من أجل أورشليم يوم قهرها الكلدانيون، هذا وهناك بعض الباحثين يرى أن أسلوب المراثي بعيداً عن منهج وأسلوب آرميا ويستبعدون نسبة سفر المراثي إليه فضلاً عن أنه تضمن أفكاراً لا يقرّها (آرميا) وتتنافى مع ما عرف منه.

وينتهي (أسبينوزا) في رسالته (رسالة في اللاهوت والسياسة) على ضوء منهجه النقدي إلى أن كتاب سفر المراثي عديدون.

وأما سفر (حزقيال) فالرأي السائد هو أنه كتب معظم أجزاء هذا السفر وإن كان هناك من العلماء من يرفض نسبة الإصحاحات من رقم ٤٠ ـ ٤٨ إليه ويرى أن السفر طرأت عليه عوامل تحسينات عديدة في لغته ومضمونه عبر المراحل الزمنية. ٥٩٣ ـ ٥٧٢ ق.م. لكن (أسبينوزا).. يخالف هذا الرأي ويؤرّخ لحزقيال بالفترة من عام ٢٣٠ ق.م فقط ودلائل (أسبينوزا) فيما يذهب إليه ليست قوية في هذه النقطة بالذات[١].

وأما سفر (دانيال) والذي وضع في التوراة العبرية مع الكتابات بين (أستير) وسفري (عزرا، نحميا) فيذهب القدماء من شرّاح العهد القديم إلى أنه قد كتب في بابل وحمله (عزرا) مع الأسفار الأخرى عند عودته إلى أورشليم، ولكن السفر في وضعه الحالي يتناول زمناً تاريخياً يمتد إلى (أنتيخوس)، (أبيفانوس) الذي وضع تمثالاً للإله (زيوس) اليوناني في بيت الرب في أورشليم لكي يستأصل اليهودية وشعبها[٢]، هذا إلى أن السفر يتضمن كلمات مقدونية على ضوء ما انتهى إليه الدكتور محمد بيومي مهران في دراسته عن تاريخ الشرق الأدنى القديم[٣]، على حين أن اليهود في زمن السبي لم يكونوا قد خالطوا اليونان ولا عرفوا لغتهم، كما أن فيه وصفاً

(١) (أسبينوزا): المصدر السابق صفحة ٣١.

(٢) حبيب سعيد المصدر السابق صفحة ١٦٧

(٣) محمد بيومي مهران المصدر السابق ص ٤١

للكلدانيين لا يتسنى الإتيان به لكاتب سابق على عصر سليمان، كما أنه اقتبس طرفاً من أقوال (آرميا)، (حـزقيا)، (زكـريا) عـلى حين أن هؤلاء الأنبياء، لم يكونوا قد وجدوا بعد في ذلك الزمان الذي يزعمون أن السفر قد وجد فيه، هذا إلى أنه قد ورد في السفر اسم الملكين (جبرائيل، ميكائيل) على حين أن اليهود لم يكونوا قد عرفوا شيئاً مدوناً في كتبهم عن الملكين (جبرائيل، ميكائيل) ومن إليهما قبل السبي البابلي، بل إنه كما يذهب (عصام الدين حنفي) في كتابه (محنة التوراة على أيدي اليهود) أن أول إشارة غامضة في العهد القديم إلى يوم البعث كانت في الإصحاح الرابع والعشرين من سفر أشعياء[1].

هذا وينتهي معظم الدارسين للعهد القديم إلى أن سفر دانيال لا يمكن أن يؤرّخ لفترة كتابته ولا أن يكون قد دوّن منه شيء على الا لاق قبل عام ١٦٨ - ١٦٠ ق.م وأنه قد بدأ التدوين فيه في بداية الصرع بين الهلينيين والمكابيين.

وأما سفر (هوشع) أول المجموعة التي أطلق عليها صغار الأنبياء،فالرأي المرجّح أن هذا السفر كتب بعد عام ٣٠٠ ق.م على الأكثر،لكن سفر عاموس الذي فسّر بعض الباحثين وعلماء اللاهوت بعض فقراته على أنه نبوءة عن وقوع كسوف للشمس فيبدو أنه كتب بعد عام ٧٦٠ ق.م بفترة طويلة وأن مؤلفه تناهت إليه معلومات عن شهود رأوا وقوع الشمس في شهر يونية عام ٧٦٣ الذي يتحدثون عن وقوعه[2] وقد كان (عاموس) يعيش في عصر يريعام الثاني ملك إسرائيل.

وسفر (عوبيدا) ليس حوله دراسة موسعة أو مهمة ومن هنا فلا يعرف عنه شيء كثير سوى اسم صاحبه وربما يكون كتب بعد العودة من السبي

---

(١) عصام الدين حنفي:(محنة التوراة على أيدي اليهود) الطبعة الأولى عام ١٩٦٥.
(٢) حبيب سعيد:المدخل إلى الكتاب المقدس صفحة ١٢٦.

بمراحل زمنية طويلة، (يونان) الذي يرجّح بعض الباحثين أنه ربما كان نبياً قومياً من الأنبياء البسطاء وفي عصر يربعام الثاني، فلا يعرف عنه شيء بالتفصيل لكنهم يؤرخون للسفر بأنه قد بدأ في تدوينه عام ٣٥٠ ق.م.

أما سفر (ميخا) فكما يدل مستهله فإن صاحبه عاصر يوثام، أحاز، وحزقيا ملوك يهوذا وشاهد مساوىء عصرهم ولا يمكن تحديد تاريخ كتابته من ثنايا نصوصه ففيه نبوءات ترجع إلى عصر السبي أو بعده.

وأما سفر (ناحوم) فقد كان الرجل الذي يحمل السفر اسمه يعيش في يهوذا وربما كان معاصراً (لصفنيا)، وبعض الباحثين يحاول تحديد زمن السفر فيما بين (استيلاء أشور) على طيبة عام ٦٦٤ ق.م وبين سقوط نينوى عام ٦١٢ ق.م[1].

وأما سفر (حبقوق) فيذهب كثير من الشرّاح إلى أنه كتب في عهد الملك (يهوياقيم) ملك يهوذا ويبدو أن هذا الرجل قد كتب أقواله بعد هجمة نبوخذنصّر الأولى على أورشليم عام ٦٠١ ق.م. هذا والدارس لهذا السفر يجد أن الإصحاح الثالث لا ينسجم وباقي الإصحاحات من حيث الموضوع واختلاف الأسلوب الأمر الذي جعل بعض الباحثين يجزم بأنه لمؤلف آخر عاصر عصر ما بعد السبي ثم ضم هذا الإصحاح لأسفار (حبقوق) عند عمليات النسخ والنقول التي تعرضت لها أسفار العهد القديم.

وأما سفر (صفنيا) فيبدو أن صاحبه من أسرة ملوك يهوذا لأن تسلسل أسرته يرجع إلى حزقيا، وقد كتب السفر على عهد (يوشيا الملك) وإن رأي البعض أن الجزء الأخير من عهد (يهوياقيم) أكثر ملائمة من عهد (يوشيا).

وسفر (حجي) لا يعرف عنه شيء سوى أن هذا الرجل (حجي) ولد في بابل وعاد مع السبي في صحبة مجموعة (رزبابل) ويبدو أن أقوال حجي كانت في حكم (دارا) ملك فارس في عام ٥٢٠ ق.م، لكن السفر في شكله

(١) محمد بيومي مهران المرجع السابق صفحة ٤٣.

الحالي لم يكتب إلا بعد زمن الاسكندر بفترة غير قصيرة.

وأما (سفر زكريا) الذي كان معاصراً (لحجي) فلم يكتب هو الآخر إلا بعد العودة من السبي وسفر (زكريا) منهج تدوينه وسياق لغته.. وقضاياه تدل على أنه ليس من عمل زكريا وإنما كتب من خلال مجموعة وأنه دوّن في القرن الثالث قبل الميلاد على أكثر تقدير.

وسفر (ملاخي) إذا جاز أن يعبّر عنه بين الأسفار التي تضمنها العهد القديم بكلمة (سفر) لأنه لا يعدو إلا أن يكون مذكرة صغيرة فيها بعض الاقتباسات لما سبقها من أسفار. لا بدّ وأن تكون من عمل رجل واحد مجهول الهوية ولم يعرف الشرّاح عنه شيئاً وإن رجّح البعض تاريخ كتابة فقرات (ملاخي) الصغيرة في الجزء الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد وإن كنّا نستبعد صحة هذا الرأي فهي على الأرجح قد دوّنت إبان عصر المكابيين أو بعده بقليل.

وبهذا العرض السريع والموجز للمراحل التاريخية التي كتبت فيها أسفار العهد القديم المعتمدة نرى أن حوالي ألف عام على الأقل مرّت فيها عشرات الأجيال ومئات التقلبات والأطوار السياسية والاجتماعية في بيت إسرائيل ويهوذا.. وإن عمليات التدوين والتسجيل والرصد التي كان يقوم بها البعض من رجال وكهان وكتّاب إسرائيل ويهوذا كانت تتم في معظم مراحلها في ظل ظروف سياسية ضد إرادة الشعب الإسرائيلي اليهودي الذي يكتب له أو عنه، ومن هنا جاء ذلك.. الحشد الهائل من المعلومات المكررة والأفكار المتعارضة والمتناقضة مع بعضها في أسفار العهد القديم. وحتى لو افترضنا أنه كان هناك نوعاً من التضحية والمثابرة. والجلد من رجال إسرائيل حول تدوين وتسجيل التراث الإسرائيلي وحفظه على ضوء ذلك الحشد الضخم من الأسفار وأيضاً لو افترضنا أن ما حفظته ذاكرة الإنسان اليهودي عن تعاليم الشريعة اليهودية ووصاياها وأنها كانت وراء كل المسجلين والمدونين لهذا التراث حتى يظل بين مراحل التاريخ المختلفة وهو يحمل بعض آثار الوحي وعليه بصمات من البقية

الباقية من تعاليم النبوّة والهداية الدينية، أقول لو افترضنا كل هذا وهو صعب التصوّر والافتراض فما الذي يمكننا أن نقوله أو أن يراه الباحثون وعلماء اللاهوت إزاء حوادث التاريخ العالمية التي لا يمكن إنكارها أو اللغط أو الجدل حولها والتي تقوم برهاناً على أن إسرائيل ويهوذا لم تستطع القيادات.. الدينية أو السياسية فيهما عبر مراحل التاريخ المختلفة أن تحافظ على ما لديها من نصوص أو مدوّنات، فمن حقائق التاريخ أنه في عام ١٦١ ق.م ولمدة أكثر من ثلاث سنوات قام (أنطويوكس) بفتح أورشليم بحركة دموية عنيفة كان فيها جنده لا همّ لهم إلا إحراق كل ما يقع في أيديهم من كتب اليهود كانوا: (يقتربون من أبواب البيوت وفي الساحات وما وجدوه من أسفار الشريعة مزقوه وأحرقوه وكل مَنْ وجد عنده سفر من العهد أو اتبع الشريعة فإنه مقتول بأمر الملك، هكذا كانوا يفعلون بسطوتهم في إسرائيل بالذين يصادفونهم في المدن شهراً فشهراً[١].

وفي هذا المعنى وللتدليل على هذه الحقيقة يقول رحمت الله الهندي في كتابه (إظهار الحق) نقلاً عن سفر المكابيين: (... فكان يقتل من عنده نسخة من كتب العهد العتيق، أو ثبت أنه أدى رسماً من رسوم الشريعة وتعدم تلك النسخة)[٢].

وقد أُعدم في هذه الحادثة جميع كتب العهد القديم التي كتبها (عزرا) وانقطعت صلة الشعب بهذه الأصول المدوّنة تماماً.

والحال الذي تعرضت له الكتب اليهودية على يد (انطويركس) عام.. ١٦١ ق.م تعرضت له الكتب والمدوّنات بل وكل الطوائف اليهودية على اختلاف ما بينها على يد (تيطوس) عام ٧٠ ميلادية.

وينقل رحمة الله الهندي في كتابه إظهار الحق عن (يوسيفوس) أخباراً

---

(١) سفر المكابيين الأول الإصحاح الأول فقرات ٥٧ ـ ٦٥.

(٢) رحمة الله الهندي إظهار الحق الجزء الأول صفحة ٣٢٧.

يبالغ فيها (يوسيفوس) كثيراً عن المذبحة التي تعرض لها اليهود عن يد. . . تـيطس فيقول. . (. . . وهلك في هـذه الحادثـة من اليهود في أورشليم ونواحيها ألف ألف ومائة ألف بالجوع والنار والسيف والصلب، وأسر سبعة وتسعون ألفاً، وبيعوا في الأقاليم المختلفـة وهلكت جموع كثيـرة في أقطار الأرض اليهودية أيضاً)(١).

وإذا صحّت رواية (يوسيفوس) التي أخذ عنها رحمة الله وهي لا تصح عندنا للمبالغة الشديدة فيها، ونعتقد أنه كيهودي يؤرّخ لتاريخ أمته لا بد وأن يجسّم حجم المحن التي تعرضت لها أمته بهذه الصورة المغرقة في تضخيم العدد الذي تعرض لمحنة القائد الروماني في عام ٧٠ ميلادية.

وأيّاً كانت الحقيقة التي تعرّض لها اليهود بالتضحية والمحن والآلام،فإن الذي لا شك فيه أن عصر (تيطوس) بالإضافة) إلى عصر (أنطيوكس) تعرض فيهما اليهود لنوع من المطاردة بل والتدمير الجماعي وخاصة أن أعـداءهم استهدفوا بالدرجة الأولى العناصر الدينية التي كانت وحدها تستطيع أن تجمع اليهود للثورة أو التمرد ومن ثم فلم تُبقِ على أي شيء من مـدوّنات أو سجلات يمكن أن يرجع إليها اليهود وعلى هذا فأي عقل يمكن أن يتصور أن شيئاً من كتب العهد القديم بقي على ما هو عليه دون أن يتعرض للحذف والإضافة بل وللمسخ والتشويه في ظل أجواء كتلك التي تعرض لها اليهود أجيالاً متعددة.

ويجب ونحن نسجل ونؤرّخ لمراحل تدوين أسفار العهد القديم ألّا يتبادر إلى أذهاننا أن العهد القديم يمثل عصراً بعينه أو أسلوباً خاصاً على ضوء مصدر واحد فهذا السفر الواسع الذي يتضمن جملة كتب لم يوحِ به إلى شخص واحد،ولم يتناول عصراً بعينه فأسفاره كما أسلفنا القول تنسب إلى أفراد عديدين ففيه كما يعتقدون توراة موسى، ومزامير داوود، وأمثال سليمان، ومراثي

(١) رحمة الله الهندي المصدر السابق صفحة ٣٢٨.

آرميا وهلمّ جرّا[1]. وإذا أضفنا إلى هذا أن هذا السفر «العهد القديم» استنفذ من عمر الدهر أكثر من ألف عام وإن أقدم نص فيه وهو قصيدة... (دبوره) يرجع كما يرجّح الباحثون إلى المائة الثانية بعد الألف - قبل الميلاد على حد ما يذهب إليه الدكتور فؤاد حسنين علي[2] وأحدث مزمور فيه لم يتعدّ العام السبعين قبل الميلاد، وإن جمع هذه الموسوعة لم يتم قبل القرن الأول للميلاد وفي ظل أوضاع وتطورات متقلبة كما نبّه إلى هذا نقاد الكتاب المقدس، وإذا علمنا أن اللغة العبرية كأخواتها السامية تعبّر أصلاً عن الفكرة بحروف صامتة لا إعجام فيها ولا حركات وأنه قد مضت على ذلك قرون وقرون حتى اهتدى القوم إلى النقط والحركات، لو وضع ذلك كله في الاعتبار لأدركنا كم هي عوامل التغيير والتطور التي طرأت على أسفار العهد القديم حتى انتهى إلى ما انتهى به إلينا في النص العربي الذي نعتمد عليه في تناول التراث.. الإسرائيلي في العهد القديم.

---

(١) فؤاد حسنين علي:(من الأدب العبري) معهد الدراسات العربية العالي جامعة الدول العربية عام ١٩٦٣ صفحة ٣١.

(٢) فؤاد حسنين علي:(من الأدب العبري) معهد الدراسات العربية العالي جامعة الدولة العربية عام ١٩٦٣ صفحة ٣١.

كيف انتهى أمر الأسفار المقدسة

الرأي اليهودي المسيحي السائد والشائع في مجال الدراسات اللاهوتية هو أن أسفار العهد القديم التي دوّنت على مراحل تقترب من الألف عام أو تزيد،كتبت باللغة العبرية وإن كان هذا لا يمنع أن بعض الباحثين في اللاهوت من علماء الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد قد اعترفوا بأن مجموعات من أسفار كتب العهد القديم مثل دانيال وعزرا وغيرهما لم تخلُ إصحاحات كثيرة مما في كتبهما من أن تكون قد كتبت أول ما كتبت بلغة آرامية[1]، ولما كان الشكل الذي استعملت به اللغة العبرية القديمة غير متّفق عليه بل وغير معروف فضلاً عن أنها لم تكن وضعت لها قواعد أو ضوابط تعرف بها نطقاً موحداً وطريقة كتابة واحدة ومن هنا فقد رجّح بعض العلماء أن تكون اللغة العبرية القديمة أشبه بتلك التي وجدت على الحجر المؤابي الذي اكتشف عام ١٣٦٨ ميلادية ورجح العلماء المكتشفون إلى أن تاريخ هذه الكتابة التي وجدت على الحجر المؤابي ترجع إلى عام ٨٦٠ ق.م وهذا الحجر المؤابي يعتبر أقدم وثيقة عبرية في العالم حتى اليوم،وقد كانت الكتابة التي دونت على هذا الحجر صادرة من ملك موآب كما حاول العلماء أن يستدلوا به على ما جاء في سفر الملوك الثاني في الإصحاح الأول ومن الفقرة التي تقول: (... وعصى موآب على إسرائيل بعد وفاة آخاب.

---

(١) حبيب سعيد: المدخل إلى الكتاب المقدس صفحة ٢٩.

ويبدو أن اليهود السامريين استخدموا في فترة مبكرة كتابة ما انتهى إليهم من عقيدة وشريعة على أنها من سفر الشريعة أو على أنها الأسفار الخمسة بهذه اللغة القديمة،ولعلّ هذا هو السر وراء موقف يهود السامرة من عدم الاعتماد على النقول التي تمت بعد ذلك للأسفار الخمسة وعدم اعترافهم بباقي كتب العهد القديم.

والمعروف أن العبرية القديمة كأخواتها السامية كما يقول الدكتور فؤاد حسنين علي[١] كانت تكتب بدون حركات ولا أشكال وكانت تعبّر عن الفكرة بدون حركة ولا ضوابط ولا توجد وثائق لهذه اللغة القديمة تدل عليها سوى القطعة التي يرجع تاريخها إلى القرن الثاني بعد الميلاد وهي قطعة بردية المسمّاة (بردية ناش)[٢] ولعلّ ما عثر عليه العلماء في عام ١٨٦٨ ميلادية عن الحجر المؤابي الذي يرجع إلى عام ٨٦٠ ق.م وتلك البردية المسمّاة بردية ناش التي يرجع تاريخها إلى القرن الثاني بعد الميلاد يلقيان الضوء على مدى قلّة وضعف وجود مصادر للغة العبرية القديمة يطمئن إلى قواعدها ويعتدّ بها أو أن يكون التدوين قد تم بأساس منها.

وعلماء المقابلة بين اللغات لم يعثروا على العبرية كلغة مضبوطة الأصل بالحركات والأشكال إلاّ حوالي عام ٩٠٠ ميلادية ولم يتح لهم ذلك إلا بعد أن وقفوا على جهود العلماء اليهود الذي خشوا أن يضيع النُطق الصحيح للعبرية وأحسّوا أن الحاجة تلح عليهم للاحتفاظ بها بطريق ما.

ومما هو جدير بالذكر أن النطق الأصلي الصحيح لاسم الجلالة في اللغة العبرية على ضوء ما يقرر الشرّاح للغة العبرية قد ضاع[٣]. أما الحركات التي توضع عادة حيثما توجد هذه الحروف الصامتة فهي متعلقة بكلمة أخرى هي: (أدوناي) وهي الكلمة التي يُنطق بها عند قراءة الأسفار بدلاً من (يهوه) التي لم

(١) فؤاد حسنين علي:من الأدب العبري صفحة ٣١.
(٢) حبيب سعيد:المدخل إلى الكتاب المقدس صفحة ٣٠.
(٣) حبيب سعيد:المدخل إلى الكتاب المقدس صفحة ٣٠.

يكن يجوز النطق بها لقدسيتها عندهم إلا لـرئيس الكهنة مـرة واحدة في السنة[1].

هذا ومن المسلّم به عند العلماء اليهود أن حركـات وضوابط اللغـة العبرية لم تتم إلا في أوائل القرن الثامن الميلادي،وأطلق لقب (ماسوراتيين) على مجموعة من العلماء اليهود قاموا بوضع الترتيب النهائي للنصوص العبرية المُشْكَلة، ولمّا كانوا يبدأون من فراغ فقد طال معهم وقت هذه المهمة الشاقة التي يقال أنهم قضوا فيها أكثر من مائة عام أي ربما يكون أكثر من جيل اشترك في هذه المهمة: . . ولا توجد مخطوطات عبرية للعهد القديم يرجع تاريخها إلى ما قبل القرن الثامن الميلادي، وكان جهد العلماء متوجهاً إلى أن تكون هناك لغة واحدة يتفق عليها اليهود وتكون أقرب ما تكون إلى ما يتداولونه من أسفار ومأثورات بلغة عبرية قديمة غير مضبوطة تارة وبلغات أجنبية يونانية وآرامية تارة أخرى[2].والكلمة (ماسورا) معناها على ضوء ما لخّص الشرّاح (الشيء الذي تسلّم) وهي دلالة تعني أو تشير إلى مجموعة المذكرات والمناقشات التي دارت حول النصوص العبرية في أيـدي العلماء (الماسوراتيين) والتي جمعها بعد ذلك بحـرص وعنايـة العلماء اليهود أثنـاء التحضير لوضع القواعد والضوابط النهائية للغة العبرية.

ومما يجب التنبّه له هو أنه قبل أن يشرع الماسوراتيون في مهمتهم وهي وضع أسفارهم في نصوص لغوية ثابتة أو وضع نصوص لغوية ثابتة لأسفارهـم كان اليهود قد جـهدوا في أن تكون أسفارهم وهي مصبوبة في قوالب لغوية غير منضبطة بالحركة أو بالشكل على حال سليمة وخالية من الخلل التدويني الذي يقع عادة في عملية النقول التي تتم من اليونانية أو الآرامية إلى لغة غير منضبطة الحركة والأشكال لكن شيئاً من هذا لم يتح لهم، وخاصة لأنه كان من المتعذّر بل من المستحيل أمامهم أن يضعوا. . تسلسلاً للمخطوطات وأن

---

(١) حبيب سعيد:المدخل إلى الكتاب المقدس صفحة ٣١.

(٢) رحمة الله الهندي:إظهار الحق الجزء الأول صفحة ٢٢٩.

يقوموا بعملية المقابلة فيما بينها.

والذي حدث هو أن الترجمات التي وقعت للعهد القديم من اليونانية إلى العربية بل وفي اليونانية نفسها من الفوارق اللغوية بالنطق تارة وبالإشكالات والنقط تارة أخرى كان كثيراً إلى الحد الذي لا يمكن أن يكون أساساً لقاعدة لغوية واحدة. وحتى في فلسطين وهي مركز الحياة اليهودية قديماً وجدت نسخ الأسفار المختلفة في العهد القديم وهي تتفاوت في نصوصها. وفي مجمع (يمينيه) كانت هذه المعضلة أمام علماء اليهود لا تجد حلاً معقولاً أو مقبولاً، ومن هنا نشأت عندهم الرغبة في إعداد أفضل النصوص وأقربها إلى ما يمكن أن تكون عليه أسفار العهد القديم باللغة العبرية غير المنقوطة أو المشكلة التي كانت عليها والتي ظلت تتداول بها مئات من السنين حتى كانت جهود العلماء الماسوراتيين الذين وضعوا قواعد لغوية للتداول العبري المنضبط.

ويبدو أن الحَبْر اليهودي: (أكيبا) المتوفى سنة ١٣٥ م كان يقود مجموعة من زملائه لتحقيق بعض التقدم في إبراز مخطوطة مضبوطة لأسفار العهد القديم لا تكون صورة طبق الأصل عن النسخ التي تتعدد فيها المفارقات والمغالطات ولعلّه استطاع ومعه بعض من زملائه في هذه المرحلة من أوائل القرن الثاني الميلادي من نسخ نسخة عبرية باللغة غير المشكلة لم يجد فيها الماسوراتيون كبير فارق بينها وبين ما انتهوا إليه من صياغة ونسخ لأسفار العهد القديم على ضوء قواعد وضوابط اللغة العبرية التي وضعت في أواخر القرن التاسع الميلادي.

ومع كل هذا الذي مرّت به عملية نسخ العهد القديم بأساليب اللغة العبرية في أوضاعها المختلفة، فإن ترجمة (إيرنيوس) اللاتينية وهي منقولة عن العبرية قبل ظهور النصوص الماسوراتية بفترة أربعمائة سنة أو تزيد فقد كانت ترجمة إيرنيموس حوالي عام ٤٠٠ ميلادية، فإن العلماء الماسوراتيين وجدوا فيها فوارق واختلافات عن تلك التي انتهوا إليها بعد وضع قواعد النصوص الماسوراتية.

وأمامنا سؤال يطرح نفسه على ضوء كل هذه المراحل والتطورات التي مرت بعملية تداول ونقول أسفار العهد القديم عبر اللغة العبرية غير المضبوطة والقواعد اللاتينية التي قام بها إيرنيموس وتلك التي انتهى إليها العلماء الماسوراتيون وهو: أين ذهبت المخطوطات العبرية التي تم تداولها في الأيدي خلال. . القرون الخمسة التي سبقت الميلاد والتي أعقبته وخاصة أنه كان هناك قراءات. . ومخطوطات مختلفة لأسفار العهد القديم كما يدعي بذلك معظم الذين تناولوا العهد القديم بالدراسة فضلاً عن أولئك الذين قالوا بعصمة الكتاب المقدس؟. مع أنه لا توجد اليوم مخطوطة تخالف في نصها الأخرى أو تخرج على النصوص الماسوراتية والجواب بسيط، وهو أن اليهود منذ القرن التاسع الميلادي وبعد انتهاء العلماء الماسوراتيين من عملهم قاموا ودمروا كل النسخ التي تختلف عن النصوص الأساسية الماسوراتية التي وضعها اليهود في القرن التاسع الميلادي فقط، ويدّعي بعض الشرّاح المحدثين أنهم في هذا حذو حذوَ الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه حين نسخ نسخاً من القرآن الكريم وختمها بختمة ثم أحرق ما عداها. وتجيء عبارة حبيب سعيد في كتابه (المدخل إلى الكتاب المقدس) صفحة ٣٣ سطر ١٧ بهذا الخطأ العلمي التاريخي الشنيع: (وحذوا في هذا حذو الخليفة عثمان الذي بعد أن وضع نصوصاً أساسية للقرآن أمر بإحراق كل النسخ الأخرى التي تخالف هذه. . النصوص)، ومع أنه لم يقل أحد من المسلمين على امتداد التاريخ الإسلامي ولا يوجد مصدر واحد في علوم القرآن المتخصصة ولا كتب التاريخ والحضارة الإسلامية فضلاً عن أمهات كتب السنّة به سطر واحد يفيد أن هناك نسخاً من القرآن الكريم كان بها نصوصاً تخالف النسخ التي نسخها عثمان رضي الله عنه من المصحف الإمام الذي كان في بيت حفصة ومن قلوب الحَفَظَة وملء عقل كل جمهور المسلمين من كتاب ربهم، فإن ذلك يدل على أن الكاتب يجهل هذا الجانب التاريخي الديني في هذه المقابلة التي وضعها لسر اختفاء نسخ العهد القديم بأساسها اللغوي قبل الميلاد وبعده اكتفاءاً بتلك التي وضع العلماء اليهود الماسوراتيون قواعدها، ومع ذلك فإن الكاتب

النصراني يجهل الفرق الكبير، بل والتفاوت الحادّ بين ما تم لكتاب الله الحكيم من حيث صيانته وحفظه على أيدي المسلمين وفي ظل دولتهم وتحت رعاية حاكمهم وما حدث لأسفار العهد القديم في ظل أكثر من ألف عام وتحت أوضاع سياسية كانوا فيها دائماً أبداً تحت يد المستعمر وقبضته.

ومهما تكن تفسيرات وتأويلات العلماء اليهود في اختفاء النسخ الخطية.. القديمة لأسفار العهد القديم بلغاتها المختلفة فإن المحقق والذي لا اختلاف عليه أنه لا توجد من المخطوطات العبرية سوى تلك التي تحتوي النصوص الماسوراتية.. والنصوص التي تم تداولها اليوم للعهد القديم في طبعات لغوية انجليزية وألمانية وعربية وغيرها منقولة عن النصوص التي كتبها (ابن أشير وزملاؤه من الكتبة الفلسطينيين في القرن التاسع الميلادي وكانت على ضوء قواعد المدرسة الماسوراتية.

والعجيب الغريب في أمر أسفار العهد القديم أنه في الوقت الذي كانت فيه النصوص العبرية للعهد القديم على ضوء القواعد الماسوارتية تنسخ وتدوّن بمعرفة ابن أشير في فلسطين،كانت مدرسة أخرى ماسوراتية في بابل تدوّن نسخة عبرية أخرى للعهد القديم على يد (ابن نفتالي)،وكانت هذه النسخة مجهولة تماماً لم تعرفها أوروبا إلا بعد رحلة الاستكشاف والدراسة النقدية التي قام بها العلماء.. والباحثون حول الكتاب المقدس[1]. ومع أن المخطوطتين الخاصتين بابن نفتالي وابن أشير: أي الفلسطينية والبابلية قد فقدتا لكن يعتقد البعض من العلماء اللاهوتيين أنه تم نسخ نسخة عنهما نقلت لنا نقط الخلاف فيما بينهما،هذا الخلاف الذي أثبتت الدراسات النقدية أن طريقة (ابن أشير) تتفوق في أسلوبها وبيانها على طريقة ابن نفتالي.

هذا ومخطوطة ابن نفتالي التي تشتمل على كتابات بعض الأنبياء تعتبر

(١) حبيب سعيد: في المدخل إلى الكتاب المقدس صفحة ٣٤.

أقدم مخطوطة على ضوء القواعد الماسوراتية ويرجع تاريخها إلى عام ٩١٦ ميلادية وتوجد الآن بمتحف لينتجراد[١].

أما ما نسخ عن نسخة ابن أشير فيرجع تاريخها إلى القرن العاشر الميلادي، وهي تشمل الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام ومحفوظة بالمتحف البريطاني على أن بعض الشرّاح يذكر أن هناك نسخة خطيّة لأسفار الأنبياء تعرف بمخطوطة القاهرة، وقد دوّن تاريخها على نفس المخطوطة حيث قيل إنها كتبت في سنة ٨٢٧ بعد خراب هيكل أورشليم لكن يبدو أنها نسخة متأخرة منقولة عن نسخة أصلية يرجع عهدها إلى ذلك التاريخ، ويرى بعض الباحثين فيها أنه قد نسخ الكاتب الذي كتبها نسخة طبقة الأصل ووضع هذا التاريخ عليها.

هذا ومن النادر العثور على مخطوطة شاملة لكل أسفار العهد القديم، ومع ذلك فمعظم المخطوطات الموجودة في العالم اليوم للعهد القديم ترجع إلى القرن الثالث عشر أو الخامس عشر الميلادي فقط[٢].

ولعل في هذه الإشارة الموجزة إلى مراحل تدوين ونقل أسفار العهد القديم من عدة لغات ومن خلال أجيال ومؤتمرات ولجان بل ومن خلال مراحل متغيرة ومتطورة للغة العربية الواحدة ما يؤكد لنا أن الأسفار المدوّنة في العهد القديم التي أمامنا اليوم هي على ما هي عليه بعد عدة تعديلات وإضافات مختلفة، الأمر الذي يتعذر معه تماماً القول بأن فيها بقية من روح الوحي الإلهي فضلاً عن القول بعصمتها ككتب مقدسة عند المؤمنين بها.

---

(١) حبيب سعيد: المدخل إلى الكتاب المقدس صفحة ٣٤.

(٢) حبيب سعيد: المدخل إلى الكتاب المقدس صفحة ٣٦.

الأسفار اليهودية في اللغة العربية

من المرجح أو شبه المؤكد عند معظم الباحثين والدارسين للعهد القديم أن اللغة العربية لم تعرف الكتاب المقدس بعهديه حتى مطلع القرن السابع الميلادي أي حتى بعد ظهور الإسلام بفترة زمنية ليست قصيرة، وما كان في يد أهل الكتاب من العرب كان خليطاً من اليونانية والسريانية والعبرية غير المشكلة أو المضبوطة وكانت شرائعهم تتداول مشافهة وما كان مكتوباً من الكتاب المقدس بعهديه عند اليهود والنصارى العرب قبل الإسلام لم تكن تتداوله إلا فئة قليلة ومن خلال أسماء محددة وفي بيوت يهودية محدودة ولعلها كانت تعرف هذا الكتاب من خلال المصادر اللغوية العديدة التي كان فيها فمن المعروف أن كثيراً من العرب كان يعرف... السريانية واليونانية، أما تداول الكتاب المقدس وخاصة العهد القديم باللغة العربية على نطاق واسع مدون ومكتوب ومتداول قبل الإسلام أو حتى بعده بفترة لا تقل عن مائة عام فهذا ما لم يحدث ولعل هذا من فضل الله تعالى على الإسلام والمسلمين ومن قبيل الأعداد لظهور الإسلام، وهذا أيضاً مما قد ضايق عناصر غير مسلمة يبدو من سياق ما تكتبه نوعاً من الحسرة لعدم حدوث ترجمة للكتاب المقدس متداولة وشائعة إلى اللغة العربية قبل الإسلام يقول: (جميل حناطر انجان) خريج مدارس اللاهوت الإنجيلية في كتابه (الكتاب المقدس في اللغة الغربية) عام ١٩٣٦: (... لما ظهر الإسلام ولم يكن قد ترجم الكتاب إلى اللغة العربية لم يكن للكنيسة المسيحية القوة الكافية للوقوف أمام رسالته).

يقول خريج مدارس اللاهوت وقد ظهر عليه هذا الألم البادي في عبارته (. . . لذلك لما ظهر الإسلام وظهر عندئذ القرآن تهافت العرب على اعتناق الإسلام ديناً لهم لوجود كتاب عربي فصيح يستطيعون قراءته وتداوله عند ذلك. . . شعرت الكنيسة المسيحية بضعفها وتقصيرها إذ رأت كتاباً آخر يحتل مكانة رفيعة في قلوب كثيرين. . .).

ونحن هنا لا نناقش اللاهوتي فيما يقوله لكننا ندلل به باعتباره واحداً من خدام اللاهوت والكتاب المقدس على أن اللغة العربية لم تعرف هذا الكتاب قبل الإسلام وبعده بفترة كبيرة وما كان مدوناً عند العرب من التوراة والإنجيل فلعله كان بعدّة. لغات من تلك التي تداول فيها الكتاب المقدس قبل الترجمة العربية.

وليس صحيحاً ما يقوله (الثعالبي) في كتابه (قصص الأنبياء) من أن كتب اليهود والنصارى كانت معروفة عند العرب وبلغتهم قبل ظهور الإسلام. . . لو كان هذا القول صحيحاً عن ورقة بن نوفل وبحيرا الراهب في مكة وغيرهما من القيادات اليهودية التي كانت في المدينة ولو كان الكتاب المقدس قد نقل إلى اللغة العربية قبل الإسلام. . . لعرف ذلك وذاع وشاع لكن شيئاً من هذا لم يتم تداوله ولم يتحدث به أحد من علماء التاريخ والحضارة المسلمين أو غيرهم وكل ما هنالك والله أعلم أن بعض مدونات التوراة والإنجيل ربما تكون قد كتبت كتابة عربية خاصة لبعض الأحبار، لكنها لم تكن شائعة.

ويبدو أن أول علاقة للغة العربية بالكتاب المقدس كانت في الأندلس بعد أن شاعت ترجمة (ايرونيوس) اللاتينية المنقولة عن العبرية غير المشكلة ولا المضبوطة، وقد قام بالترجمة عن اللاتينية أسقف من أساقفة (اشبيليه) الذي كان يعرف العربية وكان ذلك بعد عام ٧٥٠ ميلادية ولم يتم ترجمة الكتاب المقدس جملة إلى اللغة العربية في هذا التاريخ بل تم على مراحل وأجزاء فقط.

وفي عام ٨٩٢ ميلادية قام رجل يهودي يدعى (سعد جدغاون الفيومي) وكان ينتمي لمدرسة بابل الماسوراتية استعان الرجل بالترجمة السبعينية اليونانية، وقد ترجم الأسفار الخمسة الأولى وبعض كتب العهد القديم وقد طبعت في القسطنطينية الأسفار الخمسة بالأحرف العبرية.

وفي عام ٩٤٦ ميلادية تم طبع هذه الأسفار في باريس وفي سنة ١٦٤٥ ميلادية تم طبعها في لندن كذلك تم طبعها في لندن أيضاً سنة ١٦٥٧ ميلادية بالحروف العربية ككتاب مكتمل بأسفاره المختلفة(١).

ومما يروى عن هذا الرجل (سعد جدغاون الفيومي) أنه لما كان ذات يوم سائراً في الطريق لمح اسكافياً يهودياً فقال له مازحاً: كم غرزة تعمل في النهار؟ فرد عليه الإسكافي مازحاً أيضاً: وكم حرف يحتوي كتابك المقدس، وعاد جادغاون وعكف على المطالعة نحو ثلاثة أشهر أحصى فيها عدد أعداد وكلمات وحروف العهد القديم لكنه مع ذلك لم يقولوا لنا ولم ينقلوا لنا أعداد وكلمات وحروف العهد القديم في عصر جدغاون ولم يتم ذلك إلا بعد عصر ظهور المعاجم الدينية للعهد القديم في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الميلاديين.

هذا ومما يروى بغير براهين قوية عن (حنين بن إسحاق) أنه نقل العهد القديم إلى اللغة العربية من الترجمة السبعينية في القرن التاسع للميلاد.. والعجيب والمثير للدهشة أن العالم الألماني (تشين دوروف) عند زيارته لدير القديسة (ماري ديبارا) في صحراء فيتريان وجد نسخة عربية للعهد القديم منقولة عن ترجمة عربية لبعض أسفار العهد القديم ترجع إلى القرن العاشر الميلادي.. منقولة من الترجمة السبعينية والسريانية وعن المتنين السامري والماسواراتي وقد وضعت الترجمتان العربية والسريانية في كتاب واحد وفي كل

---

(١) جميل حناطر ـ ا نجان الكتاب المقدس في اللغة العربية) مطبعة النيل المسيحية بالمناخ مصر عام ١٩٣٦ صفحة ١٠.

صفحة منه قائمتان. . . متحاذيتان تتضمن الترجمة العربية وقـائمة تتضمن الترجمة السريانية[1].

ويبدو أن رجلاً من يهود السامرة اسمه (بـو سعيد) تـرجم الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم وهي التي لا يتمسك يهود السامرة بما عداها وذلك في القرن الثاني عشر للميلاد، ويبدو أن هذه الترجمة ظهرت في هولندا بحروف عربية عام ١٨٥١ ميلادية بعد أكثر من خمسمائة عام على ترجمتها وقد كانت باللغة العربية الدارجة وبحروف سامرية ولكن الطبعة الهولندية جاءت بحروف عربية[2]. وقد جاء في مقدمة الترجمة كلمـات يظهر فيها بوضوح أثر الثقافة العربية الإسلامية في لغة اليهود السامريين بالذات فقد قال الرجل (. . . قال العبد الفقير إلى رحمة الله أبو سعيد بن أبي الحسين بن أبي سعيد) أحمد الله عاقبته إنني لما رأيت الكتاب الشريف الذي بأيدي أصحابنا كثرهم الله وأصلحهم مفسودة صورة ومعنى لجهلهم باللغة العربية، يزعمون أنها ترجمة الشيـخ الفاضـل أبي الحسن الصوري رحمـه الله، وليست له، ويستحيل أن ينطق بها وخصوصاً ما ترجم في. . . . مما هو كفر صراحة وما وقع مشبهاً له، وإنما هي ترجمة الفيومي عالم اليهود قابله رحمه الله، واقتضت المصلحة أن أترجم هذه النسخة وما قد اكتب بعدها انشاء الله تعالى بعبارة صحيحة فصيحة لتنقل منها نسخ تنسخ الباطل الذي عليه الفيومي ومن رضي بعباراته، وليصير لي جميل عند الله عز وجل ومبتدعي الحق انشاء الله).

والذي حدث بعد ذلك الكتاب المقدس بعهديه في اللغة العربية أن ظهرت عدة ترجمات من القرن السادس عشر الميلادي لم تكن لتفي بالحاجة تماماً فقد كانت دائماً مشحونة بالأخطاء وكما يقول (جميل حناطر انجان) خريج مدرسة اللاهوت الانجيلية في مصر في كتابه الكتاب المقدس في اللغة العربية في صفحة ١٣ وبالنص. (كانت هذه الترجمات تنقصها الدقة في التعبير والمتانة

---

(١) جميل حناطر انجان :الكتاب المقدس في اللغة العربية صفحة ١١.

(٢) المصدر السابق: صفحة ١٢.

في الإنشاء، وكان جل المترجمين يعتمدون على ترجمات غير الأصل كالسريانية والقبطية والترجمة السبعينية فنتج عن ذلك أن الترجمات العربية لم تكن حتى القرن الثالث عشر لتعطي صورة صادقة للعهد القديم حسب علاقته باللغات التي كان يتداول بها،بل نستطيع القول بناء على ما قام به المترجمون أنهم قد شوَّهوا الكتاب المقدس بترجماتهم السخيفة هذه، إذ كانوا غيورين أكثر منهم فاهمين، وأحياناً كانت ترجماتهم حرفية وأحياناً أخرى غير مفهومة، فكان محتماً أن ينهض بعض رجال اللغة الغيورين ويضعوا للكتاب ترجمات عربية يقبلها الذوق العربي السليم، ويجب أن يكون في الاعتبار أنه بناء على هذا الإقرار الذي جاء بين سياق خريج مدرسة اللاهوت الإنجيلية في مصر، والذي كان أحد اثنين اختارتها المدرسة ليكون له شرف القاء خطبة حفل توزيع الشهادات اللاهوتية عام ١٩٣٤ أن أجيالاً كثيرة من اتباع الكتاب المقدس قد اطلعت عليه وتعلمت فيه وتعبَّدت به في اللغة العربية وهو على ما فيه كما يصفه أحد الانجيليين مشحوناً بالغلط تنقصه الدقة في التعبير.

وإذا كان هذا هو الحال في نقله من اللغة اللاتينية أو السريانية أو اليونانية فكيف يكون حال هذه الترجمات نفسها، اليونانية واللاتينية والسريانية والقبطية حين كانت تنقل من العبرية غير ذات القواعد أو من العبرية الماسوراتية أو السامرية التي دونت من أفواه بعض الرجال وذاكرة بعض الكهَّان والأحبار؟ نعتقد أن النسخ المتداولة الآن للكتاب المقدس بعهديه بلغات العالم المختلفة، بينها وبين روح الوحي المدَّعي أو المتصور في أصول مفقودة أو منقولة هوّة سحيقة وانقطاع تام لا يتصور معه أن يكون ما في أيدي العالم الآن من أسفار العهد القديم فيه وحي الأنبياء أو بقية من روح الشريعة.

هذا.. وما يجدر ذكره في هذا المقام أن نسخة الكتاب المقدس التي بين أيدينا والتي نرجع إليها عند تناولنا لنصوص الأسفار المقدسة في اليهودية المطبوعة عام ١٩٦٦ عن جمعيات الكتاب المقدس في الشرق الأدنى لم تسلم

هي الأخرى في ترتيب طبعها من بعض الأخطاء التي تتمثل في تقديم وتأخير بعض إصحاحات سفر أشعيا في الصفحة الواحدة ولعل ذلك يقوم كبرهان مادي عصري لا يقبل الجدل فيما تعرَّض له هذا الكتاب من تعديل وتغيير وحذف وإضافة. فمثلاً جاء الإصحاح التاسع والعشرون من سفر أشعياء بالصفحة رقم ٨٠١ والمنطقي أن يكون الإصحاح الثلاثون على الوجه المقابل للورقة التي تحمل رقم ٨٠٢ لكنها جاءت تحمل رقم ٨٠٦ وفيها الإصحاح الثالث والثلاثون وجاء الأصحاح الرابع والثلاثون في الصفحة التي تحمل رقم ٨٠٧ وكان الطبيعي لو صحَّت الطبعة أن يكون الاصحاح الخامس والثلاثون في الصفحة رقم ٨٠٨ الوجه الثاني للورقة الواحدة لكنها جاءت تحمل رقم ٨٠٤ وفيها بقية الإصحاح الرابع والثلاثين وأول الأصحاح الحادي والثلاثون ثم جاءت الصفحة بعدها تحمل رقم ٨٠٥ وفيها الإصحاح الثاني والثلاثون بينما جاء في الترتيب متأخراً عن صفحة ٨٠٦، ٨٠٧ ٨٠٣ وفيها الإصحاح الثلاثون وليكون في الوجه الثاني للورقة الواحدة التي تحمل رقم ٨٠٣ وجهها التالي يحمل رقم ٨٠٥ وفيها بقية الإصحاح الثلاثون وأول الخامس والثلاثون.

وأمام مثل هذا المشهد الذي وجدناه ونحن نطالع نسخة واحدة رأيناها جاءت هكذا بهذا الخلل وبهذا الخلط، ما الذي كان يمكن أن تكون عليه نصوص السفر من تداخل والتباس لو لم تحمل الإصحاحات أرقاماً؟

ولا جدال أن المثل الذي بين أيدينا يقوم برهاناً يعاون على ما لدى الباحث من دلائل وبراهين تؤكد باليقين أن الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد على السواء قد انتهى إلينا وليس فيه بقية من وحي فضلاً عن افتقاده للوحدة الموضوعية والعقائدية بل والتدوينية على السواء.

النسخة العربية المتداولة اليوم

بداية ما انتهى إلينا اليوم من طبع (الكتاب المقدس) في لغة العرب كان بعد تلك المرحلة الطويلة من عمليات التراجم والنقول والطبع التي بدأت في نهاية القرن السادس عشر حتى أواخر القرن التاسع عشر:

هذا ومن الجدير بالذكر أنه من أول تلك النسخ التي تم تداولها باللغة العربية، كانت تلك التي تتضمن المزامير باللغة العربية ضمن لغات خمس هي: العبرية واليونانية والكلدانية واللاتينية، وقد طبعت في إيطاليا عام ١٥١٦ ميلادية. وبدار الكتب المصرية نسخة منها.

وفي عام ١٥٤٦ م ظهرت نسخة الآستانة ذات اللغات المختلفة وتحتوي على أسفار موسى الخمسة باللغة العربية منقولة عن ترجمة (سعد جدغاون.. الفيومي) التي هاجمها كما قال عن نفسه العبد الفقير أبو سعيد ابن أبي الحسين ابن أبي سعيد السامري.

هذا ومن الجدير بالذكر أن (جميل حناطر انجان) وهو يؤرخ للكتاب المقدس باللغة العربية عام ١٦١٤م يقول: تم طبع للمزامير في روما برعاية رجل فرنساوي هو (سافاري دي بريف) الذي كان سفيراً لبلاده لدى حكومة استنبول ثم لدى حكومة روما وقد طبعت ترجمة أخرى للمزامير مطابقة للسريانية في لبنان عام ١٦١٠م وفي عام ١٦٤٥م طبع من نسخة العهد القديم التي كانت في باريس نسخة كاملة إلى اللغة العربية.

هذا وفيما يذهب إليه جميل انجان أنه في عام ١٦٧١ م تم تداول نسخة كاملة من الكتاب المقدس باللغة العربية بدون أية نقولات أو تعليقات أو ترجمة أخرى وهذه الترجمة هي التي ظلت سائدة في اللغة العربية من هذا التاريخ عام ١٦٧١ م حتى ظهور الطبعة الحالية المطبوعة في بيروت والتي أشرف على ترجمتها وتنقيحها (فان ديك وسمث) في عام ١٨٥٨، وكانت هذه الطبعة بمعاونه (بطرس البستاني، والشيخ ناصيف اليازجي) وتمت الترجمة من اللغة العبرية إلى العربية وصالحة للتداول والفضل في هذا يرجع إلى الدكتور (سمث الذي تخرج من كلية بيل الأمريكية، وزار مالطة وروما واليونان وبعد أن رسم (قسا) استقر في بيروت عام ١٨٣٣ م وافتتحت زوجته مدرسة نظامية للبنات في بيروت، ثم قام الدكتور سمث باصطناع حروف عربية زار من أجلها استامبول ومصر) وألم باللغة العربية وكان يجيد التحدث بها.

وفي عام ١٨٤٤ م اجتمعت لجنة من المبشرين الأميركيين في بيروت مع المستر اندروس والدكتور (هوز) وبعد أيام أعلن الدكتور سمث رغبته في ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية، وقد انضم إليه الدكتور (كبنبوش فانديك) وهو أيضاً من رجال نيويورك في أمريكا. وبعد أن توفي الدكتور سمث تابع أعماله وأشرف على ترجمة وطبع الكتاب المقدس النسخة العربية المتداولة حتى الآن وهذه الترجمة العربية للكتاب المقدس التي وضعها الدكتور سمث والدكتور فان ديك والمعروفة باسم: (ترجمة فان ديك) قبلها كمقياس كل المرسلين المبشرين. البروتستانت وجمعيات... المرسلين في كل أنحاء العالم المسيحي، غير أن ذلك لم يمنع الآباء اليسوعيين[1] من أن يدلوا بدلوهم في هذا المدمار ذي الأهمية العظمى عندهم وأن يبذلوا جهدهم في إبراز الكتاب المقدس بالشكل الذي يرون أنه يمثل الغاية من أهدافهم الدينية والسياسية، فمع علمهم بما قام به الدكتور فان ديك (وسمث) وما انتهى إليه قاموا به في عام ١٨٨١ م وأصدروا ترجمة عربية جديدة بمعاونة (إبراهيم اليازجي) نجل

---

(١) الكتاب المقدس في اللغة العربية (جميل حناطر انجان) صفحة ٤١.

(ناصيف اليازجي) وباشتراك (قس) اسمه (جعجع) كان ذلك تحت إشراف بطريرك القدس ومن العجب أنه قد رحب بابا روما بمشروع الآباء اليسوعيين مع علمه بوجود الطبعة التي أشرف عليها الدكتور (فان ديك) وأمر الكردينال برنابو أن يتم الترجمة تحت إشراف بطريرك القدس، وقد تمت الترجمة من العبرية واليونانية، وقد سجلت اللجان التي أشرفت على هذا العمل هذا القول في الترجمة: (إننا لم ندخر وسعاً في أن نجعل هـذه الترجمـة أجدر الترجمات بإرضاء الأحبار المحترمين وأنفعها للكهنة والمؤمنين وأجلها لمجد الله الأعظم[1].

ويبدو أن الترجمة اليسوعية أفصح من الترجمة الأمريكية التي أشرف عليها الدكتور (فان ديك) لكن بعض الناقدين المحدثين يعلق على ترجمة الآباء بقوله: ظهر الكتاب المقدس من أوله إلى آخره كأنه لمؤلف واحد كتبه بنفس واحد مع أن كتبته كثيرون لكل منهم نفس خاص به وبعضهم قد تنوع نفسه بالنسبة إلى تنوع المواضيع التي كتب عنها ومع أن هذا القول الذي يدعيه بعض الآباء اليسوعيين من أن الترجمة العربية التي بين أيدينا ظهرت بنفس واحد وكأنها لمؤلف واحد يتناقض مع ما انتهينا إليه من دراستنا ونقدنا السابقين فضلاً عن أنه حين يدعي أن النسخة العربية كأنها لمؤلف واحد مع أنه يقر أن كتبة الكتاب المقدس كثيرون وأن بعضهم كان يتنوع بالنسبة لتنوع الموضوع الذي يكتب عنه فإن ذلك دليلاً على أن النص العربي خرج وهو لا يحمل سماة روح وسياق ولغة كتّاب العهد القديم الذين يختلفون بالقطع من كاتب إلى آخر.

ومع ذلك فيبدو أن الترجمة الأميركية تتميز بمحافظتها إلى حد ما على نفس الكاتب وأسلوبه بالقدر الذي يتسنى للمترجم مراعاته، وإلى حد ما. وفي التعليق على هذه الترجمة يقول (جميل حناطر انجان) إنك لتكاد تعرف أن السفر الفلاني للكاتب الفلاني لمطالعتك بضع فقرات من كتاب هذا وسفر

(١) الكتاب المقدس في اللغة العربية (جميل حناطر انجان) صفحة ٤١.

ذاك أما الترجمة اليسوعية فقد سكبت أقوال الكاتبين في قالب إنشائي عربي واحد يتعذر معه التمييز بين كاتب وآخر(1)، ومع كل الجهود التي بذلت من أجل الكتاب المقدس حتى يبدو كتاباً لا خلل فيه ولا تفاوت بين وحداته وأجزائه فإن أبسط قواعد التدوين في وحداته وأجزائه حتى في الأصول والنقول المبكرة من حيث التكامل ووحدة الموضوع لم يحظ بها العهد القديم على وجه الخصوص والأمر كما يقول حبيب سعيد النصراني في كتابه (المدخل إلى الكتاب المقدس) صفحة ٤٣: (... ومما يؤسف له أن تقسيم الفصول والآيات ليس واحداً في الكتب المستعملة في العبادات الكنسية، وهذا يجعل الرجوع إلى الشواهد عسيرا، فمثلاً تقسيم المزامير في نسخة الفولجات اللاتينية يختلف عن التقسيم المتبع في الكتب العبرية والانجليزية والعربية كذلك يختلف تقسيم الآيات العددي في كثير من المزامير، وسبب الاختلاف في تقسيم المزامير يرجع إلى أن الكتب المقدسة الانجليزية والعربية منقولة عن التقسيم الأصلي في النسخة العبرية، أما المزامير اللاتينية فمنقولة في تقسيمها حسب الوضع الذي جرى عليه كتاب الترجمة السبعينية)(2) انتهى.

وقد يقول قائل في التعليق على هذه الحقيقة التي يقررها ويسوقها واحد من الكتاب المحدثين ومن اتباع الكنيسة، أن هذا الاختلاف والتفاوت إنما هو شكلي وسببه عمل الكتاب والنساخين والناقلين، والجواب الذي نظن أنه لا تعليق عليه هو أنه إذا كان عمل الكتاب والنساخين أنهى إلى العالم نصوص الكتاب المقدس لا معناها بهذا القدر من التفاوت فضلاً عن اختلاف طوائف من المؤمنين به حول معظمه كما هو الحال وحتى اليوم مع البقية الباقية في العالم من اليهود السامريين الذين لم يصح عندهم من العهد القديم غير الكتب الخمسة الأولى فقط وما عداها من أسفار لا يعترفون به ولا يقرونها(3)

(1) جميل حناطر) صفحة ٤٥.
(2) (حبيب سعيد المدخل إلى الكتاب المقدس صفحة ٤٣.
(3) (التاريخ مما تقدم عن الآباء تأليف الحبر اليهودي (أبو الحسن.. السامري طبع بألمانيا بتعليق المسيو دلمار).

فأي نصوص وأي معاني تلك التي بقيت تحفظ آثار الوحي وبصماته عبر مئات من السنين وعشرات التراجم لأكثر من لغة بدأت وعلى ضوء قواعد اتفق عليها لعمليات وضع وصياغة.. عبارات وألفاظ العهد القديم والجديد على السواء في اللغة العربية المعاصرة؟.

نعتقد أنه بعد هذه اللمحة السريعة والموجزة عن أحوال وأوضاع وتطورات العهد القديم في لغاته القديمة حتى انتهى إلينا في اللغة العربية يتأكد لنا أن ثمة فارقا كبيراً بين ما يمكن أن تكون عليه نصوص الأسفار في ماضيها البعيد قبل الميلاد من بقية من نصوص تحمل بعض بصمات الوحي وبين عملية نقله إلى لغات العالم ومن بينها بالقطع لغة العهد القديم العربية والتي بين أيدينا مصدراً للأسفار المقدسة في اليهودية والمسيحية على السواء.

الباب الرابع

الجانب الإلهي في الأسفار اليهودية
التجسيم والتشبيه في الأسفار اليهودية
افتقاد عقيدة التوحيد في الأسفار اليهودية
العقائد الوثنية في الأسفار اليهودية
جوهر العقيدة الدينية في الأسفار اليهودية

الجانب الإلهي في الأسفار اليهودية

في هذا الموضوع الجليل والمتعلق بالذات العلية، نود ألا نذهب بعيداً بين كل أسفار العهد القديم، لنتعرف على قضية الألوهية ذاتاً وموضوعاً وصفاتاً لأن ذلك قد يطول بنا كثيراً، لكنه يكفينا في التعرف على منهج العهد القديم في هذه القضية بعض ما في كتب العهد القديم وهو أيضاً من أهم ما يعنى به المؤمنون بالعهد القديم في الوقوف على مصادر العقيدة والشريعة اليهودية وذلك من خلال الكتب الخمسة المدونة في العهد القديم على أنها لموسى عليه السلام وعلى أنها أيضاً سفر الشريعة: (التوراة).

والدارس لأسفار العهد القديم بصفة عامة، وأسفار (موسى) على وجه الخصوص يطالعه في الإصحاح العشرين من سفر الخروج سبعة عشر فقرة منسوبة لله تعالى في هذا السفر وموجهة إلى موسى عليه السلام، وما تود أن تنتهي إليه هذه الفقرات وما توحيه تتحدد أبعاد ومقومات العقيدة اليهودية ـ معتقداً وعبادة، وشريعة ـ على ضوء ما انتهت إلينا به أخبار كتب العهد القديم.

تقول فقرات الخروج في الإصحاح العشرين بعد مقدمة انتهى بها الإصحاح التاسع عشر تتحدث عن دعوة الله لموسى أن يصعد إلى الجبل ليتلقى ما هو معطيه إياه: (ثم تكلم الرب في جميع هذه الكلمات قائلاً: أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي، لا تصنع لك تمثالاً، لا منحوتاً ولا صورة مما في السماء من

فوق وما في فوق من تحت وما في الماء من تحت الأرض، لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك إله غيور، أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي وأصنع إحساناً إلى ألوف من محبي وحافظي وصاياي، لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً، لأن الرب لا يبرىء من نطق باسمه باطلاً، أذكر يوم السبت لتقدسه، ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك، وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك، لا تصنع عملاً ما، أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذي داخل أبوابك، لأن في ستة أيام صنع الرب الأرض والسماء والبحر وكل ما فيها واستراح في اليوم السابع لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض التي يعطيك الرب إلهك: لا تقتل، لا تزن، لا تسرق، لا تشهد على قريبك شهادة زور، لا تشته بيت قريبك، لا تشته امرأة قريبك، ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك)[1].

ليس في أسفار العهد القديم كله كلمات تتحدث عن العقيدة والعبادة والشريعة اليهودية بهذا القدر من الايجاز وبهذا القدر من الإلمام والشمول، . . فبصريح العبارة ودون أن يكون هناك مجال للبس أو تأويل جاءت الوصايا، العشر تحمل بين سياقها الجانب العقائدي والتعبدي والشرعي في صلب العقيدة اليهودية كما يبرزها العهد القديم ويرويها، ومن خلالها نستطيع أن نتعرف على بعض ما سجلته الأسفار الخمسة بعد ذلك عن عقيدة(الإله) عند اليهود على ضوء ما في أسفارهم تنزيهاً أو تجسيداً، مماثلة للمخلوقات وتشبها بها، أو تجرداً بالخالقية وانفراداً بها ومغايرة لما سواها.

إننا نستطيع أن نرتب ما جاء في الفقرات السابقة وبغير مسخ أو تشويه كما يحاول بعض علماء اليهود أن يفعلوا بالنصوص نستطيع أن نراها على الوجه الآتي:

(. . . أنا الرب إلهك. . لا يكن لك آلهة أخرى).

---

(١) سفر الخروج الإصحاح العشرون فقرات ١ ـ ١٧.

(لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً . . لا تسجد لهن ولا تعبدهن).

(لا تنطق باسم الرب آلهك باطلاً لأن الرب لا يبرىء من نطق باسمه باطلاً).

وعند هذه العناصر الثلاث التي جاءت بين النص نستطيع أن نرى العقيدة اليهودية، أو قل عقيدة التوحيد في اليهودية على ضوء ما هي عليه في هذا المشهد من كتب التوراة الخمسة وهي فيما نراه منها كعقيدة دينية بالمعيار المنزه لرب العالمين والموحد لذاته تعالى، والمقر بمخالفته تعالى للخلق لا نرى في هذه العناصر الثلاثة شيئاً يستحق الوقوف أمامه بالنقد أو التعليق، وذلك لما سنعرض له مما هو آت في هذا الموضوع الدقيق.

ثم تطالعنا هذه العناصر بين سياق نصوص الفقرات التي ذكرناها لتقول هي الأخرى.

(أذكر يوم السبت لتقدسه)

(أكرم أباك وأمك).

وفي هذين العنصرين نستطيع أن نرى الجانب التعبدي في اليهودية يوم كان ويوم مورس، وقد يتفرع عن هذين العنصرين معنى يقول: إن الله تعالى في اليهودية كان يعبد في يوم معلوم دون سواه و أنه أمر بإكرام الوالدين، وقرن يوم تقديس السبت بإكرام الوالدين، فهذا الجانب التعبدي إن كان هكذا يوم كان وكما ترويه النصوص التي بين أيدينا فلا بأس فيه عندهم ولا اعتراض لنا عليه يوم مورس ثم تطالعنا فقرات سفر الخروج التي أتينا عليها بخمس عناصر أو نقاط تتم بالخمس السابقين الوصايا العشر والتي نظن أنها البقية الباقية مما حملته أسفار العهد القديم من أثار الوحي، وهذه العناصر الخمس هي التي تقول: (لا تقتل، لا تزن ، لا تسرق، لا تشهد على قريبك شهادة زور، لا تشته بيت قريبك).

هذه هي الوصايا العشر كما وردت في سفر الخروج، والحديث فيها عن رب العزة أقرب ما يكون إلى التنزيه الذي يليق بذاته التي تتعالى عن المخلوقات.

غير أنه قد يعيب هذه النصوص التي تنسب إلى الله تعالى متضمنة هذه الأوامر التي أمر الله رسوله موسى بها متضمنة ما بين الفقرات المدعاة على أنها من الله تعالى لعبده موسى بعض المعتقدات التي قد يمكن أن يقال عنها إنها لا تستقيم في عقيدة صحيحة يتحدث أصحابها عن رب العالمين في الإصحاح العشرين ينسبون إلى رب العالمين أنه تعالى الله عما يقولون (يفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع)[1] كذلك فإن العنصرية اليهودية تبدو بارزة في علاقات اليهود مع غيرهم من خلال توجيهات تلك الوصايا فمفهوم المغايرة في العبارات التي تقول (لاتشهد على قريبك شهادة زور، لا تشته بيت قريبك يمكن على ضوء هذه الوصايا أن يكون المؤمنون بها من اليهود في. . . ممارساتهم مع غير اليهود في حل من تعاليم هذه الوصايا لأن النص الذي بين أيديهم يقول: (لا تشهد على قريبك شهادة زور) وكأنه في حل من هذه الشهادة مع غير قريبه، وتقول: (لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً ما لقريبك) وكأنه أيضاً في حل من أن يستحل كل هذه الأشياء مع غير قريبه، بينما بقية عناصر الوصايا جاءت بالنهي عن السلوك المنهي عنه مطلقاً، (لا تقتل ، لا تزن، لا تسرق).

ويبدو أن هذا التفاوت جاء بأثر من الحال الذي كان عليه بنو إسرائيل عقب خروجهم من مصر، وإن ظل بعد ذلك يلازمهم أجيالاً وأجيالاً.

هذا وقد عرف العلماء المعنيون اليهودية بأنها أول دين سماوي مكتوب أنزله الله تعالى وحياً على نبيه موسى ليعبده بنو إسرائيل ولا يشركون معه به شيئاً أي أنها دين سماوي يقوم على توحيد الواحد القهار، والمسلمون بهدى من كتاب الله تعالى مطالبون من خلال هيمنة الإسلام على ما في اليهودية والمسيحية من اعتقاد بالإيمان به أي الدين اليهودي السماوي باعتبار اليهودية الدين الذي أنزله الله على قلب عبده موسى يقوم على توحيد الله رب العالمين، ولكن العجيب الغريب أن الباحث إذا ما ذهب يدرس العقيدة

(١) سفر الخروج الإصحاح العشرون فقره.

اليهودية من خلال مصادرها التي بين أيدينا:

التوراة ـ كتب الأنبياء ـ التلمود ـ المدراش. لا يعثر فيها على ما يدل على أن المعتقد اليهودي في الذات الإلّهية قوامه (التوحيد) وتنزيه رب العالمين عن البشر ومخالفته للحوادث، فلفظة الجلالة التي ترد في العهد القديم وخاصة في الأسفار الخمسة الأولى التي يهمنا أمرها بالدرجة الأولى، حين تجيء بهذا المفرد العلم بين السياق العام (الله) تجيء وبغير علاقة الله تعالى بالخلق أو التدبير أو الرعاية، أو تجيء وليس لها وظيفة في السياق الذي وردت فيه فلا يتعبد لها ولا يستعان بها، ولا يرجع أو يلجأ إليها، ولكن الذي يبرز دائماً أبداً بجوار لفظ الجلالة (الله) في العهد القديم وفي الأسفار الخمسة أيضاً لفظة أخرى أو ألفاظ مغايرة للفظة الجلالة وتجيء هذه الألفاظ وهي تغاير تماماً خصائص ومقومات التوحيد المستقر في قلب وعقل المؤمن حين يستشعر روابط العلاقة التي يمكن (في ضوء الإيمان بالله) أن تقوم بينه وبين رب العالمين، فمثلاً نرى في سفر الخروج في الإصحاح الثالث فقرة ١٥ هذا النص الذي يقول: (وقال الله لموسى هكذا تقول لبني إسرائيل (يهوه) إلّه آبائكم إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب أرسلني إليكم هذا اسمى إلى الأبد وهذا ذكرى إلي دور فدور).

وفي هذه الفقرة مفارقة تجعل النص لا يستقيم.. (وقال الله لموسى...) بمنطق الإيمان الصحيح الذي يؤمن بوحي الله لبعض خلقه المصطفين لا غبار في مقدمة الفقرة التي تتحدث عن أن الله قال لموسى، ويؤمن المسلمون بأن الله قد أوحى إلى موسى بالقول أو بغيره لكن المفارقة في سفر الخروج تجيء هنا وفي هذا القول، حين يستشرف الناظر لهذه النصوص ما الذي قاله الله لموسى؟ وتكون المغايرة التامة أن الله سبحانه كما يحكى السفر ويدعى يقول لموسى... (هكذا تقول لبني إسرائيل (يهوه) إلّه أبائكم إلّه إبراهيم وإلّه إسحق وإلّه يعقوب أرسلني إليكم وبمقتضى هذا السياق فالله الذي قال لموسى في العبارة يعبر عن عقيدة في الإلّه الذي يوحي ويهوه إلّه أباء إسرائيل يعبر عن عقيدة أخرى لأنه في عقيدة إسرائيل أن يهوه هو رب

الجنود الخاص بإسرائيل دون سواهم وكان مقتضى السياق أن يجيء هكذا. . . (وقال الله لموسى هكذا تقول لبني إسرائيل إلّه آبائكم إبراهيم وإسحق ويعقوب أرسلني إليكم خاصة) وأن الإيمان بعقيدة يهوه عصر موسى عليه السلام لم يكن من المعتقدات الشائعة عند بني إسرائيل لأنهم حين جعلوا من عقيدتهم في الإلّه خصوصية لا يشترك معهم فيها أحد أطلقوا عليها اسم (يهوه) لكن يبدو أن النص الذي بين أيدينا كتب وسجل بعد ظهور عقيدة يهوه إله بني إسرائيل من دون البشر ومن هنا جاء ذلك الخلط والخلل في العبارة التي نسبها السفر لله رب العالمين موجهة إلى موسى عليه السلام.

التجسيم والتشبيه في الأسفار اليهودية

لا يقف أمر الرواية في العهد القديم حول الذات العليَّة بأنها ربّ إسرائيل دون سواهم من البشر وأنها نماذج وصور ينوب بعضها عن بعض ولكن الأدهى أن صوراً من التي تعرض عن الإلّه في العهد القديم، تجعله مثل غيره من المخلوقات يغار ويغضب ويتألم ويندم، وبعد كل تلك الصفات يلد، وعنده من الأولاد مثل البشر: الولد البكر الذي يعتني به وله حظوة عند أبيه ليست لغيره وإذا ما مسه السوء فإنه يغضب لذلك وينتقم، وبغير لغط أو تأويل المغرمين بتأويل النصوص وتمييعها بغير ما سند أو قرينة أو حتى منهج نظري، فإن الأبوة والبنوَّة المتعلقة برب إسرائيل التي عناها كاتب الفقرات رقم ٢١ ـ ٢٤ من الإصحاح الرابع من سفر الخروج جاءت على سبيل المماثلة والمشابهة والقرائن في النص لا تسمح بالتأويل أو اللعب فيه على ضوء ما يذهب بعض علماء اللاهوت فماذا تقول الفقرات التي نعنيها؟ تقول: (وقال الرب لموسى عندما تذهب لترجع إلى مصر انظر جميع العجائب التي جعلتها في يدل واصنعها قدَّام فرعون ولكني أشدّد قلبه حتى لا يطلق الشعب، فتقول لفرعون هكذا يقول الرب: إسرائيل ابني البكر، فقلت له أطلق ابني ليعبدني فأبيت أن تطلقه، ها أنا أقتل ابنك البكر).

وهكذا بغير لغط كما يفصح النص: بكراً ببكر، والسؤال هنا هو لماذا إسرائيل الذي هو (يعقوب بن اسحق بن إبراهيم) دون غيـره من الآباء والأبناء الذي حلَّت فيه تلك الخاصية العجيبة، لكن العجب قد يزول إذا

علم أن إسرائيل ليس وحده الابن الذي حظي بهذه المشاركة الحسيَّة مع (يهوه) ربّ إسرائيل وإنما هنا من قديم كما تروى النصوص من أول الخلق تتعلق بهم وفيهم البنوَّة وهم أفراد في منطق كاتب الأسفار لم يشأ أن يذكر لنا أسماءهم ولا عددهم ولا زمانهم، وإنما على ضوء ما ساقه وقصَّه، لما كثر الناس على الأرض كان منهم أبناء لله وأيضاً فلا يراد بالبنوّة عند كاتب الأسفار غير معناها الحسِّي المجسَّم والمحدَّد لأن الكاتب وضع هذه البنوَّة في مقابلة أبناء الناس أي أنه يريد في هذه المقابلة أن يضع: أبناء الله في مقابلة أبناء الناس، ويلعب الدور الحسِّي عمله في عقل المصنِّف للأسفار فيبرز تأثير أبناء الناس، (البنات) في أبناء الله (الذكور) وعندئذ يدرك الأب وينسى كاتب الأسفار أن الأصل فيه عنده أنه (إله) يدرك أن أبناءه زاغوا لأنهم بشر فعندئذ يصدر أحكامه وفرائضه.

هذه الصور الحسيَّة المجسَّمة والمعدَّدة والمحدَّدة على ضوء ما هي عليه في أسفار العهد القديم وفي الكتب الخمسة على وجه التحديد يستحيل معها تصوّر عقيدة التوحيد لله رب العالمين من خلال المعطيات التي بين أيدينا في الأسفار الخمسة أو غيرها من كتب العهد القديم، فماذا تقول فقرات الإصحاح السادس الأولى من سفر التكوين بخصوص أبناء الله وبنات الناس تقول: (وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات، أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا فقال الرَّب لايدين روحي في الإنسان إلى الأبد لزيغانه، هو بشر وتكون أيامه مائة وعشرين سنة، كان في الأرض طغاة في تلك الأيام، وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنوا الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً، هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذووا اسم).

والعجيب المزعج أن المصنِّف للسفر لم يخجل أن يذكر اسم الجلالة (الله) الذي لا يرد كثيراً في العهد القديم ليصفه بالأبوَّة ولمن؟ لأبناء يزيغون حين رأوا بنات الناس أنهن حسنات.

ولم يقل لنا المصنّف ما دخل اقتران أبناء الله ببنات الناس وفي الأرض طغاة، وكيف يتأتى أن ينجب أولاد الله من بنات الناس (جبابرة منذ الدهر)[1]. . . وقد يأتي مغالط مكابر من عشّاق التفسير بالرمز أو (بالشفرة) ليقول لنا ما لا يفهم ولا يتصوّر في هذه القضية بالذات وما يتعلق بها عندهم بمعنى الأبوّة والبنوّة[2] لكن الذي ينفي وباليقين عن لغة الأسفار صفة (التوحيد) في حديثها عن الإله هو ذلك التراث المروي عن الأساطير الوثنية في الأمم البدائية التي لم تعرف ديناً ولم تتخذ لها ربا فراحت تنسج بالخيال صورا أقرب إلى خيال الرسام منها إلى عقيدة وقلب المؤمن، وقد تجلّى أثر ذلك التراث الوثني فيما بين أيدينا من نصوص، فنفس الإصحاح الذي معنا من سفر التكوين (السادس) ومن الفقرات ٥ ـ ٨ تضع أمامنا (الربّ) الذي يتحدث عنه السفر وهو يفكر، أي يعرض له أمراً بعد أمر وتعن له أشياء لم تكن، وهكذا. . ثم حين رأى ما لا يروق له ولا يعجبه من أعمال الشر التي يقوم بها حلقه يحزن، ولا نريد هنا أن نقول لهم أن الحزن حالة نفسية تؤثر في الانفعالات العصبية والفسيولوجية وهي وليدة موقف مادي أو ذهني ولا يمكن أن ينطبق ذلك على الإله، لا بل إنه هنا كما دونوا يأسف ويود أن يدمّر ما صنع، [تعالى الله] فماذا تقول فقرات الإصحاح السادس من سفر التكوين؟ أحد الخمسة المدونة على أنها سفر الشريعة أو توراة موسى التي تعرض علينا هذه الصور الوثنية والتي لا يمكن لعقل فضلاً عن مقررات وضوابط عقيدة التوحيد أن تقرها حول الذات العليّة يقول: (ورأى الرب أن شرّ الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصوّر أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم فحزن الرّب أنه عقل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه فقال الرّب أمحو عن

---

(١) سفر التكوين: الإصحاح السادس. . . فقرات ١ ـ ٤.

(٢) كنموذج من هؤلاء: (القمس سرجيوس) في كتابه: (إن لم يكن المسيح إلّهاً. . فديانته تكون باطلة لأنها قامت على أساس دعواه أنه إلّه متجسد) الجزء الأول من ٢٧ ـ القاهرة ـ بدون تاريخ.

وجه الأرض الإنسان الذي خلقته.. الإنسان مع البهائم ودبابات وطيور السماء لأني حزنت أني عملتهم[1].

هل يستطيع أي فكر ديني مهما بلغ في التأويل والتفسير بالرمز أن يقول لنا أي نمط من الأرباب هذا الرَّب الذي حزن لأنه عمل الإنسان في الأرض، وأين كان علمه المتعلق بإرادته حتى فوجىء بتلك المصيبة التي جعلته يتأسف في قلبه؟.

ومن المفارقات أيضاً في لغة الأسفار الخمسة عند حديثها عن الإآله والنبي، أن النبوة في منطق الأسفار قد ترقى إلى مقام الألوهية فيصبح النبي إلْهاً ومن الممكن أن يصبح صديق أو شقيق ذلك النبي المترقي إلى درجة الألوهية أن يصبح نبياً هو الآخر، وهذا الخلل الديني الذي نعثر عليه بين سياق الأسفار ونصوصها هو بالقطع من أكبر البراهين على انعدام صفة (التوحيد) في العقيدة اليهودية على ضوء معطيات الأسفار الخمسة التي انتهت إلينا.. فالإصحاح السابع في سفر الخروج الفقرات الثلاثة الأولى منه تقول: (فقال الرب لموسى انظر: أنا جعلتك إلْهاً لفرعون وهارون أخوك يكون نبيّك، أنت تتكلم بكل ما آمرك[2]).

وهذه التركيبة العجيبة في نصوص الأسفار مما تحيِّر القلب والعقل معاً ولا تسعف فيها القواميس ولا المعاجم ولا التفاسير ولا التأويلات الكهنوتية فالرب: والإآله: والنبي هنا في هذه النصوص دلالاتها غير محدّدة المضمون ولا معروفة الهوية، فالرب جعل الإنسان إلْهاً، ولم يقل لنا السفر ما الفرق عند كاتبه بين الرب والإآله؟ ومع ذلك فإنه ساق لنا الإنسان وقد أصبح إلهاً له نبي ووظيفة هذا النبي بجوار (النبي الإآله)الذي صنعه لنا كاتب الأسفار ثانوية لأن تتمة الفقرات التي أتينا عليها تقول لموسى الذي جعله رب كاتب الأسفار إلْهاً (أنت تتكلم بكل ما آمرك).

(١) سفر التكوين.. الإصحاح السادس فقرات ٥ ـ ٨.
سفر الخروج الإصحاح الخامس عشر فقرة رقم ١١.

ولكن الأدهى والأمر أن الإله الذي تحدثنا عنه التوراة في الأسفار الخمسة ليس الإله المنفرد بالخلق والواحد في الوجود والخالق لكل شيء ولكنه الإله الأعظم بين الآلهة الأقل عظمة، والمزعج حقاً أن فقرات في الأسفار من هذه النماذج التي تتحدث عن (الإله) بهذا الشكل الوثني والمتخلف كثيراً عن عقائد بعض الأمم والشعوب التي كانت قبل موسى بمئات السنين تنسب هذه العبارات، لا أقول المجسمة أو المشبِّهة في تصوّرها أو حديثها عن (الذات العليَّة) ولكنها وثنية المضمون.. وثنية التعبير إلى نبي الله موسى عليه السلام، وكذلك إلى نبيّه سليمان عليه السلام، ولا جدال أن النبيين العظيمين كانا موحدين لربهما لا يعرفان رباً سواه ويدركان باليقين أنه وراء كل شيء وخالق كل شيء وهو على كل شيء قدير، لكن كاتب الإصحاح الخامس عشر فقرة رقم (١١) من سفر الخروج بعد افتتاح من الإصحاح عن ترنيم موسى وبني إسرائيل للرب ينسب الكاتب لموسى عليه السلام قوله: .(من مثلك بين الآلهة يا رب، من مثلك معتزاً في القداسة مخوّفاً بالتسابيح).

ونحن نريد هنا أن نسأل مصنّف هذا الكلام: هل كان إله موسى بين الآلهة معتزاً في القداسة؟ وإذا كان كذلك فما موقعه فيما نبحث عنه في الأسفار الخمسة متعلقاً بموضوع: (الله بين التنزيه والتجسيم) هل يمكن أن يقال بعد ذلك على ضوء هذه الصور وتلك النماذج أن إله العهد القديم يقوم على التنزيه وأنه ربّ العالمين.. وليت الأمر اقتصر على موسى فيما ادعت عليه الأسفار ولكنه بعد حقبة تاريخية ضخمة من عصر موسى إلى عصر سليمان وقع المصنّف الأعجوبة لكتب العهد القديم في تلك المصيبة الوثنية أيضاً ونسبها إلى نبي الله سليمان عليه السلام على أنها عقيدته في الإله، في الإصحاح الثاني من أخبار الأيام الثاني في الفقرة رقم (٥) ـ يطالعنا الكاتب بحديث ينسبه إلى سليمان عمّا سيفعله سليمان لبيت الرَّب ويقول: (والبيت الذي أنا بانيه عظيم، لأن إلهنا أعظم من جميع الآلهة).

وهذه النصوص وغيرها كثير تدل على أن عقيدة اليهود في (يهوه) الإله

الذي غلب عليهم التعلق به والارتباط به أكثر من غيره من الآلهة التي شاعت وكثر استعمالها في العهد القديم لم تكن عقيدة في الإلّه الواحد الذي يعترفون به بربوبيته وبالإذعان له وحده دون سواه، لكنه كما جاء حتى في الوصية الأولى من الوصايا العشر التي دونت في العهد القديم إلّه يطلب أن يكون مقامه فوق سائر الأرباب وهو يقر بأنه إلّه غيور ويأمر أتباعه بهدم مذابحهم وتكسير أصنامهم وإبادتها، وهو إله عنصري لإسرائيل دون سواهم من البشر، ومن هنا فلما كان اليهود قبل (أشعياء يفكرون في أن يكون يهوه إلّه الأسباط جميعاً أو حتى إلّه العبرانيين كلهم، فقد كان للمؤابيين آلههم (شمس) وكانت (نعمى) تظهر أنه لا ضير من أن تظل (راعوث) على ولائها للإلّه (بعل) الذي كانوا يعظّمونه ويقدّسونه، وقد ورد في السفر المسمَّى باسمها ما يفيد إمكان استبدال الإلّه بإلّه آخر عند القوم جميعاً حتى عند أنبياء العهد القديم أنفسهم يقول الإصحاح الأول من سفر (راعوث) فقرات ١١ ـ ١٥: (فقالت نعمى ارجعا يا بنتي، لماذا تذهبان معي، هل في أحشائي بنون حتى يكونوا لكما رجالا، ارجعا يا بنتي واذهبا لأني قد شخت عن أن أكون لرجل، وإن قلت لي رجاء أيضاً بأني أصير هذه الليلة لرجل وألد بنين أيضاً هل تصيران لهم حتى يكبروا، هل تنحجزان من أجلهم عن أن تكونا لرجل، لا يا بنتيّ فإني مغمومة جداً من أجلكما لأن يد الربّ قد خرجت عليّ، ثم رفعن أصواتهن وبكين أيضاً، فقبّلت عرف حماتها وأما راعوث فلصقت بها، فقالت هو ذا قد رجعت سلفتك إلى شعبها وآلهتها ارجعي أنتي وراء سلفتك)[1].

وهكذا كما يقول عباس محمود العقاد في كتابه (إبراهيم أبو الأنبياء نقلاً عن: الكاتب (إنجل): أن الوحدانية التي كان يدركها الإسرائيليون في ذلك الزمن لم تكن وحدانية تفكير ولكنها وحدانية تغليب لرب من الأرباب على

(١) سفر راعوث الإصحاح الأول فقرات ١١ ـ ١٥.

سائر الأرباب، ولم يخط اليهود خطوة غير هذه الخطوة وهي أن لليهود إلهاً يعلو على آلهة غيرهم من الشر[1].

وحتى في المراحل التي ارتقوا فيها بعقيدة الإلّه الذي يؤمنون بـه لم ينزهوه أبداً، فهو إما حال في صورة وموقف. . . وإما جسم وكيان وحيّز في صورة وموقف آخر. . وإما صور خيالية غير معبـود بالـذات ولا معروف الصفات في موقف ثالث وهكذا.

فمثلاً (سفر القضاة) يصوّر لنا ربّ إسرائيل حالاً في مكان وهذا المكان موقع بركاني فيه نار ولهيب يأوي إليه رب العهد القديم أحياناً وحين يخرج منه ترتعد الأرض وتنفطر السماء، وهذا الشكل الوثني المتخلف، كثيراً ما نراه بين سياق كتب العهد القديم. . يقول (سفر القضاة) في الإصحاح الخامس ناقلاً أخبار ترنيمة تعبّدية (لدبورة)، (باراق بن أبينوعم) تقول فيها دبّورة: اسمعوا أيها الملوك واصغوا أيها العظماء أنا أنا للرب أترنّم أذمّر للرب للرب إلّه إسرائيل يا رب بخروجك من سعير بصعودك من صحراء آدوم الأرض ارتعدت السماوات أيضاً فترت كذلك السحب قطرت ماء، تزلزلت الجبال من وجه الرب وسيناء هذا من وجه الرب إلّه إسرائيل).

هذا ويعلل (هنري برستيد) ما جاء في العهد القديم عن الإله الخاص ببني إسرائيل من ظهوره بهذه الصور والنماذج التي ساقها كاتب الأسفار بأنه لا بد وأن يكون عند خروج العبرانيين من مصر قد صحبتهم بعض الخوارق الطبيعية، ولا يشك في أنها كانت ذات صبغة بركانية، فالمظهر الغريب الذي ظهر به (يهوه) في صورة عامود نار أو عمود من دخان ثم تجلّيه فوق سيناء نهارا محدثاً الرعد والبرق والسحاب الكثيف، هي بالبداهـة عنده ظـواهر بركانية، حسبها العبرانيون مقترنة ومرتبطة ومتلبسة بالهمم، وعلى ذلك كان من المعترف به عندهم منذ زمن بعيد أن (يهوه) ليس إلا إلّهاً محلياً للبراكين

---

(١) إبراهيم أبو الأنبياء عباس محمود العقاد ـ دار الهلال ـ القاهرة بدون تاريخ.

وكان مقرَّه المختار سيناء[1]. . ويبدو أن (يهوه) هذا كان كثير النسيان ينسى عهوده ثم يتذكرها، ويستهويه أن يبرهن كثيراً على أنه الرب القادر على كل شيء، فالإصحاح السادس من (سفر الخروج) فقرات ٢ ـ ٦ تطالعنا بما سجَّله المصنِّف للسفر من تذكّر عهد كان قد نسيه (الرَّب) في العهد القديم [تعالى الله] تقول هذه الفقرات: (ثم كلم الله موسى وقال له أنا الربّ وأنا ظهرت لإبراهيم واسحق ويعقوب بأني الإلّه القادر على كل شيء، وأما باسمي (يهوه) فلم أعرف عندهم وأيضاً أقمت معهم عهدي أن أعطيهم أرض كنعان أرض غربتهم التي تغرَّبوا فيها وأنا أيضاً قد سمعت أنين بني إسرائيل الذين يستعبدهم المصريون وتذكرت عهدي).

وإذا كان لنا من تعليق على هذا النص أو غيره فنحن نسأل كاتب الأسفار أين يضع إلّهه بين عقائد الأمم والشعوب، أيضعه مع تلك التي قطعت شوطاً في الترقي بعقيدة الإله منزَّهة له عن بعض المخلوقات في أطوارها المختلفة أم تلك التي جعلته نمطاً ونموذجاً من النماذج المألوفة والمعروفة أم مع تلك الأمم والشعوب التي حاولت أن تتعرَّف على ربّ خالق يعلوا على المخلوقات ويترفَّع عنها بضروب المغايرة ومخالفته للمخلوقات حتى هذه العقائد الوضعية التي قطعت فيها الإنسانية شوطاً قبل يهودية العهد القديم وأثناءها وبعدها لم يرق كتَّاب العهد القديم بفكرتهم عن الإلّه إلى مستوى هذه الأمم والشعوب في معظم ما كتبوا وما دوّنوا عن الإله.

(١) (محمد بيومي مهران) في كتابه: دراسات في تاريخ الشرق الأقصى جزء ٢ ٦٣.

افتقاد عقيدة التوحيد في الأسفار اليهودية

الدَّارس للعهد القديم بصفة عامة وللأسفار الخمسة المنسوبة لموسى عليه السلام على أنها (التوراة) يجد أن كتَّاب الأسفار لم يستحوا من أن يصفوا ربّ إسرائيل ربّ الخروج وقائده كما دوّنوا عليه بأن يكون زعيم لصوص (تعالى الله علواً كبيراً) يأمر موسى بأن يوجّه الخارجين إلى أن يسرقوا كل ما يقع تحت أيديهم وأن يحتالوا في ذلك، وفي ذلك تقول الفقرة الأخيرة من الإصحاح الثالث: (فيكون حينما تمضون أنه لا تمضون فارغين، بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضّة وأمتعة ذهب وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين).

لكن الذي يؤكد بالبرهان القاطع والحجَّة الدَّامغة على أنه في موضوع العقيدة الدينية في الإله عند بني إسرائيل تفتقد عقيدة التوحيد تماماً ذلك أنه على ضوء التراث الذي انتهى إلينا لم يرق بنو إسرائيل بالعقيدة الدينية ولم يعرفوا معنى التنزيه للإله الخالق ومن لم يعرفوا التوحيد الخالص والعجب العجاب أنهم لم يحاولوا أن يقطعوا شوطاً في هذا الموضوع على غرار غيرهم من الشعوب بالإضافة إلى عمل الأنبياء فيهم ودور الرسالة الإلهية بينهم.

والناظر في الفقرات الأخيرة من الإصحاح الثاني عشر من (سفر الخروج) الذي كان طوال فقرات الإصحاح يقّص أخبار أحاديث بين موسى وهارون والرَّب الإله الذي يحدِّد لهم مواعيد ومواقيت وشعائر وطقوس قبيل خروجهم من مصر يفاجأ في نهاية الإصحاح بذلك القرار المزعج والمؤسف

والمنسوب عند الكتَّاب وفي الأسفار زيفاً وبطلاناً لرب العالمين أنه قرَّر أن ينتقم من المصريين، وأن يكون انتقامه شاملاً لكل شيء. : للناس والبهائم، يطلب الرب فيها نسب كاتب السفر (الوثني) إلى موسى بأن يقوم ومعه جماعة إسرائيل على أهل مصر على بيوتهم ويرشوها بدماء الكباش المضحَّاة حتى يكون ربُّهم على بيِّنة منها حين يقوم بتدمير بيوت المصريين، وحتى لا تمتد يده إلى بيوت بني إسرائيل ساعة أن يدمّر بيوت المصريين. وهذا الفكر الوثني الجاهل الذي ينسب إلى ربّ العالمين فوق العدوان والعنصرية الجهل بالأشياء، وعدم التمييز بين بيوت أعدائه والمؤمنين به، والعجيب المحيّر هو أن جماعة إسرائيل التي تتحدَّث ـ عنها الأسفار لم تطالعنا بعبادة وعقيدة في الإلّه بغير ذلك النمط المعروف من خلال العجل والصنم. . . كاتب الفقرات رقم ١٢ ـ ١٤ من الإصحاح الثاني عشر في (سفر الخروج) يقول بالنص كبرهان مادي لا يقبل الجدل في التدليل على عقيدة بني إسرائيل في نوع الإلّه الذي عرفوه والذي آمنوا به حتى في تلك الفترة التي ما كان يتصوَّر من كاتب الأسفار أن يقع في الحديث عنها في ذلك الخلل البيّن والمعتقد الوثني المتخلّف يقول كاتب الفقرات المشار إليها: (فإني أجتاز في أرض مصر هذه الليلة، وأضرب كل بكر في أرض مصر من الناس والبهائم، وأصنع أحكاماً بكل آلهة المصريين، أنا الرب، ويكون لكم الدَّم علامة على البيوت التي أنتم فيها، فأرى الدَّم وأعبر عنكم، فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر، ويكون لكم هذا اليوم تذكاراً فتعبدونه عيدا للرب في أجيالكم تعبدونه فريضة أبديَّة).

والسؤال الذي بين أيدينا ويطرح نفسه من خلال هذا النص هو: شعب قادم على شعب مستقر في أرضه آمن في يومه وغده، أفسد الشعب القادم حياة الشعب المستقر المستوطن صاحب الأرض والمعمَّر لها، ولما قرَّر الشعب القادم الخروج والهرب سرق الحلي والماشية بناءً على أوامر الرَّب الذي يعبدونه ثم استمطر الشعب الخارج ربه الغضب والنقمة والتدمير لحياة الشعب المضياف. . ونزل ربُّ الشعب الذي تحدَّث عنه هذا النَّص وهو لا

يميّز بين بيت وبيت ويحتاج إلى علامة بالدّم.. والسؤال هنا هل يمكن في منطق الإيمان وعلى ضوء توجيه الرسالة الإلْهية أن يكون هذا ربًّا؟ ولما يكون هذا الحدث وهذا اليوم عيداً وفريضة أبدية؟ إن شرَّاح وكتَّاب العهد القديم فيما أطلعنا عليه ليس عندهم جواباً شافياً لهذا السؤال، وما عليهم إلا أن ينظروا إلى ما جاء في أسفار العهد القديم بكل الجمود فإذا ما جاء نّص يرفضه العقل والبداهة والفطرة والتاريخ ومنطق الإيمان قالوا نبوءة وبشارة ولجأوا إلى التفسير بالرمز أو (بالشفرة).

وإذا كان كاتب (سفر الخروج) قد صوَّر (الإِلٓه) بهذا الوصف الوثني وبهذا المضمون الظالم ـ تعالى الله ـ الذي يتحوَّل فيه الخالق إلى زعيم أو رئيس قبيلة ينزل بسيفه إلى حيث أصاب قومه الأذى وينتقم وهو من الغباء والقصور بحيث يريد علامات يميّز بها بين مواقع أهله ومواقع عدوّه.

وإذا كان لنا أن ننظر هذه الصورة المرفوضة ففي أي دائرة يريد أن يضع كاتب الأسفار عقيدته في الإِلٓه... هل يمكن أن تكون في غير موضعها من الفكر المادي والوثني المتخلِّف؟ إن كاتب (سفر التكوين) أرانا في مقام القضية التي نحن بصددها عقيدة (التنزيه) والتجسيم للإِلٓه في العهد القديم) العجب العجاب أرانا كاتب التكوين ربّ العزَّة (سبحانه).. لا بل الأجدر أن نقول: أرانا كاتب السفر وهو (وثني) ربَّه في هذا السفر وهو يمارس من الأعمال والأشياء نفس الأعمال والأشياء التي يمارسها الإنسان... إنه عند كاتب (سفر التكوين) يتمشى في الجنَّة يتنزه تاركاً من مشيته أثر صوت وحركة في الشجر وإذ كان الرب (تعالى الله وتنزه) يتمشى في الجنَّة سمع آدم وحوَّاء صوته عند هبوب الرِّيح فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإِلٓه في وسط شجر الجنَّة فنادى الرب الإِلٓه آدم وقال له: أين أنت؟ فقال: سمعت صوتك في الجنَّة لأني عريان فاختبأت.. ومن مثل هذه الصور والنماذج يكثر الحديث في

(١) (جيمس فريزر) في كتابه (الفولكلور في العهد القديم) ترجمة نبيلة إبراهيم ـ مراجعة حسن ظاظا ـ الجزء الأول ص ٢٦٣، القاهرة عام ١٩٧٢.

(سفر التكوين) عن الإلّه وحركته وتجواله في الجنَّة ومخاطبته بعض خلقه ـ تعالى الله عمَّا يقولون علواً كبيراً.

وهذه الصور المغرقة في المادية والوثنية ما كان لكاتب (سفر التكوين) أو غيره من كتَّاب الأسفار أن يقع فيها وأن ينقلها لولا المؤثرات الدينية الوثنية التي كان ينقل منها مما كان لدى الأمم والشعوب، . .ولننظر إليه وهو يقصّ هذه الواقعة التي يدَّعيها على الإلّه بلغته فماذا قال: (فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهيَّة للنظر فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل، فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر، وسمعا صوت الرب الإله ماشيا في الجنَّة عند هبوب ريح النهار، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنَّة، فنادى الرب الإله آدم وقال له: أين أنت، فقال سمعت صوتك في الجنة فخشيتك لأني عريان فاختبأت فقال من علمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟ فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت).

وهكذا يمضي كتَّاب الأسفار المقدسة في العهد القديم ولا يعقلون فبهذه الصورة التي ينقلها إلينا كتَّاب الأسفار تكون العقيدة عندهم في الإلّه، ثم يجتر الكتاب والمؤرخون بأن يهود العهد القديم هم أول من عرف الإلّه الخالق ربّ العالمين[1] وأنهم أول من بشّروا في كتبهم بالإيمان وبمجيىء المخلّص ـ فالنص هنا يريد أن يقول: سمع آدم وحواء صوت الرب ماشيا ولم يسمعهما الرب فقد نادى الرب الإلّه آدم وقال له: أين أنت، ولا يستحي كاتب السفر أن ينسب إلى خالق آدم هذا الاستفهام الدال على الجهل التام عند السائل. . هل أكلت من الشجرة؟ وكأنه لا يعلم إن كان أكل أو لم يأكل. واضح تماماً من هذه النماذج وغيرها كثير تفيض به أسفار كتب العهد القديم أن إلّه بني

(١) (مرقس رينسفورد) في كتابه (المسيح يصلي لأجل خاصته) تعريب دكتور ماهر فهمي ـ نشر لجنة خلاص النفوس للنشر عام ١٩٦٧ ص ٧٠.

إسرائيل في مرويات العهد القديم وتراثهم لم يعرفوه ربا خالقاً يغاير الخلق والأشياء لكنه إن صدق عندهم أنه رب فهو رب يغاير أرباب الشعوب والقبائل الوثنية التي كانت لا تزال بقاياها في عقل وعواطف المجتمعات المتخلفة والتي انتقل تراثها إلى كاتب الأسفار فتأثر بها ونقل عنها ولم يخلص لهم في يوم من الأيام ربّاً تميّز عن غيره من الأرباب الوثنية التي كانت شائعة في العصور القديمة قبل البدء في كتابة وتدوين الأسفار وبعدها، وكيف يكون لهم غير ذلك وكاتب (سفر التكوين) يلعب به خياله ويشتط به الهوى الجامح في نقل أساطير الشعوب بغير رويَّة وبغير عقل أيضاً ويذهب إلى بعيد إلى عصر أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام.. ولا يكفيه أن صوَّر لنا موسى وسليمان عليهما السلام على ضوء الصور الوثنية في علاقاتهما بربهما تلك الصور التي نجزم بأن نبيا الله موسى وسليمان عليهما السلام ما عرفا منها شيئاً - ولا تقربا لربهما بنمط من أنماطها، ومع ذلك يجيىء الكاتب هنا إلى أبي الأنبياء ويصوّر لنا حاله وبيته وامرأته عقب زيارة قام بها على حد ما ينسب كاتب السفر ويدَّعي الرب - تعالى وتنزه رب العالمين - مع ملكين إلى إبراهيم وهناك على ضوء خيال الكاتب جلس الثلاثة الرب والملكان عند إبراهيم يستريحون من وعثاء السفر وعناء الرحلة واغتسلوا وأكلوا واستراحوا، وفي ظل شجرة قضى الرب.. هكذا يزعم كاتب السفر.. بعض الوقت مع إبراهيم ثم أعطاه البشارة بميلاد ولد من السيدة العقيم التي لم تكن قد ولدت بعد، وهكذا يمضي كتَّاب الأسفار ولا يعقلون أن أكثر العقائد القديمة تخلفا لم تهبط بالمعتقد الديني في الإلّه إلى هذا المستوى أبداً وإذا ما أردنا أن ننظر ما كتبه كاتب (سفر التكوين) أحد الخمسة في الإصحاح الثامن عشر[1] ومن الفقرات ١ - ١١ فإنا سنرى العجب: (وظهر له الرب.. عند بلّوطات ممرا وهو جالس في باب الخيمة وقت حرّ النهار فرفع عينيه ونظر وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه فلمّا نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض، وقال يا سيد

---

(١) (سفر التكوين) الإصحاح الثالث فقرات ٦ - ١٢.

إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عبدك، ليؤخذ قليل ماء، واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت الشجرة، فأخذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثم تجتازون لأنكم قد مررتم على عبدكم فقالوا هكذا نفعل كما تكلمت، فأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى سارّة وقال اسرعي بثلاث كيلات دقيقاً سميذاً اعجني واصنعي خبز ملّة، ثم ركض إبراهيم إلى البقر وأخذ عجلاً رخصاً وجيداً وأعطاه للغلام فأسرع ليعمله، ثم أخذ زبدا ولبناً والعجل الذي عمله ووضعه قدّامهم وإذ كان هو واقفاً لديهم تحت الشجرة أكل وقالوا له أين سارة امرأتك، فقال ها هي في الخيمة، فقال إني أرجع إليك نحو زمان الحياة، ويكون لسارة امرأتك ابن وكانت سارة سامعة في الباب الخيمة وهو وراءه، وكان إبراهيم وسارة شيخين متقدمين في الأيام وقد انقطع أن يكون سارة عادة كالنساء فضحكت سارة في باطنها قائلة أبعد فنائي يكون لي تنعّم وسيّدي قد شاخ فقال الرب لإبراهيم: لماذا ضحكت سارة قائلة أفبالحقيقة ألد وأنا قد شخت؟ هل يستحيل على الرب شيىء، في الميعاد أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة ابن).

وهذا النص العجيب هو الآخر يجعلنا نسأل هل يعقل أو يقبل قلب مؤمن على إلّهه ما انتهى إليه كاتب الفقرات السالفة؟ ولأي معنى يصبح رب العزَّة خالق الخلق ثالث ثلاثة: ملكان وخالقهما على هيئة ثلاثة رجال وفي منطق كاتب النص يسيرون ويتعبون ويستريحون ويشربون، ويغسلون أرجلهم بل ودقيقاً سميذاً وزبداً ولبناً ولحم عجل يأكلون، مرَّة ثانية نسأل كاتب السفر هل حقاً أكل ربه الذي يؤمن به طعام إبراهيم؟ وإذا كان قد أكل فهل كان هناك شهود عيان حضروا تلك الوليمة ونقلوها بالتواتر إلى كاتب السفر أم أن إبراهيم عليه السلام أذاع نبأها وأعلنها، وإذا كان كذلك ففي أي مكان في الدنيا اطلع كاتب السفر على ما يثبت دعواه، وإذا كان كاتب (سفر التكوين) لا يستطيع أن يجد جواباً على زيف ما افتراه على رب إبراهيم رب العالمين، فإن خطيئة كاتب (سفر الخروج) أدهى وأمر لأنه نقل موقف يدّعيه زيفاً وبهتاناً عن الله مع إبراهيم حين جعل الإله من نفسه بشراً مع ملكين

جعلهما كذلك بشراً وجلس الثلاثة مع إبراهيم يأكلون ويشربون كاتب (سفر الخروج) نقل هذا الموقف الذي انفرد به كاتب (سفر التكوين) إلى صورة أخرى وإلى موقف شبيه نقل موفقاً ادّعاه لله مع مجموعة من شيوخ إسرائيل مع موسى وهارون رأوا الله جميعاً. . وبادىء ذي بدىء نرجو ألا يرهق عشّاق التفسيرات الرمزية أنفسهم في معنى الرؤية فالنص الذي أورده صاحب (سفر الخروج) حدد نوع رؤيتهم لله - تنزّه الله سبحانه عمّا يقولون بأنها رؤ ية شاملة لحدود الإلّه عندهم وجرمه وكنهه فقد رأوا ما تحت رجليه على حد ما يذهب وما وصف كاتب السفر[1] في الحياة الدنيا وعياناً بيانا.

وهذا الخلل الصارخ في منطق كتّاب الأسفار وفي أسلوب تدوين التراث الإسرائيلي يجعلنا نسأل إذا جاز (جدلاً) أن يجهد قوم أنفسهم في تبرير وتفسير ما يساق عن الإلّه في العهد القديم من دعوى تقول عن الرؤية والمشاهدة الحسّية للإلّه من مجموعات من الأنبياء مثل إبراهيم وموسى وداود وسليمان وغيرهم فأي مبرر في أن يتساوى الشيوخ من بني إسرائيل مع الأنبياء في كل ما يحظون به من رؤية ربهم في الدنيا فيما تنسبه أسفار العهد القديم. .

وللنظر إلى ما يقصّه كاتب (سفر الخروج) في الإصحاح الرابع والعشرين في الفقرات ٩ - ١١ يقول: (ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل، ورأوا إلّه إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشّفاف وكذات السماء في النقاوة، ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل، فرأوا الله وأكلوا وشربوا).

وكأن النصوص تضج بما تحمله من زيف وعدوان على الله، فبعد قول الكاتب: (. . . ورأوا إلّه إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق) يستدرك المؤلف ويحاول أن يخرج من الاستغراق في هذه الصورة الوثنية

(١) (عوض سمعان). . (فلسفة الغفران في المسيحية) المطبعة التجارية الحديثة رقم الإيداع بدار الكتب ٤٥٠٨ عام ١٩٧٢ ص ١٥٥.

الصنمية إذ بعد أن يروا الله كما يقول النص حتى يروا ما تحت رجليه فإنه من المتيسر إزاء ذلك أن تكون جلسة سمر يتحدث فيها الشيوخ من بني إسرائيل مع إله إسرائيل لكن الكاتب يعود على الفور ليقـول في نفس الفقرات: (ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل) وأراد بذلك أن يميّز بين الموقفين الذين ساقهما كتّاب سفري(التكوين والخروج) ففي سفر التكوين جلس الرب مع إبراهيم وأكل وشرب وفي سفر الخروج مع موسى وشيوخ بني إسرائيل اكتفى بالمقابلة دون الجلوس والمصافحة، ولا يقتصر الأمر على هذه الخاصية من بين الأنبياء وشيوخ إسرائيل في لغة العهد القديم، بل أن كاتب (سفر الخروج) أضفى على انشعب الإسرائيلي كله في عصر موسى شرف رؤية إله إسرائيل وسماع صوته في مؤتمر كبير دعا إليه رب - إسرائيل وكلّف موسى على ضوء نصوص (سفر الخروج) أن يخبر الشعب بـذلك المؤتمـر ليستعد ويغسل ثيابه ويرتب أمره لشرف اللقاء مع رب إسرائيل - هكذا - ولا يخجل كتّاب الأسفار المقدسة من تسجيل وسوق ونقل مثل هذه المأثورات بغير عقل وبغير تدبّر كاتب الإصحاح التاسع عشر من (سفـر الخروج) يقـول من الفقرات ٧ - ١٣، (فجاء موسى ودعا شيوخ الشعب ووضع قدّامهم كل هذه الكلمات التي أوصاه بها الرب، فأجاب جميع الشعب معاً وقالوا: كل ما تكلم به الرب نفعَلَ، فرد موسى كلام الشعب إلى الرب فقال الرب لموسى ها أنا آت إليك في ظلام السحاب لكي يسمع الشعب حينما أتكلم معك فيؤمن بك أيضاً إلى الأبد، وأخبر موسى الرب بكلام الشعب فقال الرب لموسى اذهب إلى الشعب وقدّسهم اليوم اليوم وغداً وليغسلوا ثيابهم ويكونوا مستعدين لليوم الثالث، لأنه في اليوم الثالث ينزل الرب أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء)[1].

ولم يقل لنا كاتب السفر الذي أورد هذا النص لماذا أتى الرب لموسى في ظلام السحاب، ففي مثل هذا الحجاب لا يكتمل شرف اللقاء والمقابلة بينهما

---

(١) (سفر الخروج) الإصحاح التاسع عشر فقرات ٧ - ١٣.

هو على حد ما يزعم بعد ثلاثة أيام سينزل على جبل سيناء ليكون أمام عيون جميع الشعب؟ ويبدو أن كتَّاب الأسفار لا يعرفون ولا يفرّقون ربما لأنهم لم يعرفوا الفرق بين رتبة النبوّة وشرفها ورتبة المدعوين إلى الله من خلال هذه النبوّة وصاحبها ومن هنا فلا بأس عند كتَّاب الأسفار فيما يقصّونه أن يجعلوا شرف النبوّة موازياً أو أقل من قيمة وشرف المدعوين إلى الله من خلالها ولكن العجب هو في الرواية التي بين أيدينا هذه والتي قصَّها كاتب الإصحاح التاسع من (سفر الخروج) إذ أن المؤتمر الذي دعا إليه رب إسرائيل ـ فيما قصَّ السفر ـ ليحضره الشعب وليكون الإلّه أمام جميع عيون إسرائيل، ليرى الشعب ربَّه من ناحية وليؤمنوا بموسى بعد هذه الرؤية إلى الأبد من ناحية أخرى لم يتم، ولماذا؟ لأنه كما زعم كاتب السفر رب إسرائيل اكتشف أنه حين ينزل إلى الجبل ستكون النار والدخان وسيرتجف الجبل، وأمام الرعود والبروق والسحاب الثقيل الذي سينزل بصحبة رب إسرائيل فإن الشعب لو نظر إلى ربّه في ذلك المناخ ووسط هذه الحالة سيسقط منه الكثير، ولذا جاء قرار الإلغاء لهذا المؤتمر الذي خصَّته الفقرات الوسطى من الإصحاح التاسع عشر الفقرات من ٧ ـ ١١ وفي نفس الإصحاح ونفس السفر من الفقرات ١٤ ـ ٢١ وما ندري سر هذا الخلل وهذا التفاوت الذي قصَّه إصحاح واحد في سفر واحد من الأسفار الخمسة (عمد الشريعة) وعلى ضوء هذه النصوص يستطيع السائل أن يناقش كتَّاب أسفار العهد القديم: هل رجع رب إسرائيل عن رأيه؟ أم اكتشف كما تقول الفقرات أن الشعب لا يقدر على رؤيته؟ أي علم بعد أن لم يكن يعلم؟ ونستطيع أن نسأل أيضاً ما سرَّ هذا الخلل تدوينياً؟ هل كتب شطر من الإصحاح وهو صغير في حجم صفحة واحدة كاتب وكتب شطره الثاني كاتب آخر ولكل منهما عقيدة تخالف الآخر ولم يطلع اللاحق على ما كتب السابق فجاء هذا الخلل في رواية الخبر الواحد للموقف الواحد ثم وحين كان التدوين والنقل والترجمة تمَّ كل ذلك بغير إعمال للعقل أو تحكيم لمقومات الإيمان بالخالق جلَّ وعلا... إن كل هذه الاستفسارات وغيرها كثير لا جواب لها عند كتَّاب النصوص غير الهراء الذي تضج به كتب

وشروح رجال اللاهوت حول مثل هذه النصوص[1] هذا. . وتقول الفقرات رقم ١٤ ـ ٢١ من الإصحاح التاسع عشر في (سفر الخروج) ما يأتي: وما به تتناقض رواية النص الواحد في المصدر الواحد من كتب العهد القديم: (فانحدر موسى من الجبل وقدَّس الشعب وغسلوا ثيابهم، وقال للشعب كونوا مستعدين لليوم الثالث، لا تقربوا امرأة، وحدث في اليوم الثالث لمَّا كان الصباح أنه صارت رعود وبروق وسحاب ثقيل على الجبل وصوت بوق شديد جداً، فارتعد الشعب الذي في المحلَّة، وأخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة الله فوقفوا في أسفل الجبل، وكان جبل سيناء كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار وصعد دخانه كدخان الآتون وارتجف كل الجبل جداً فكان صوت البوق يزداد اشتداداً جداً وموسى يتكلم والله يجيبه بصوت، ونزل الرب على جبل سيناء إلى رأس الجبل، ودعا الله موسى إلا رأس الجبل فصعد موسى فقال الرب لموسى انحدر حذّر الشعب لئلا يقتحم إلى الرب لينظروا فيسقط منهم كثيرون)[2].

وهكذا لم يشفق كاتب السفر على موسى عليه السلام من هذه المحنة التي ادعى أن رب إسرائيل وضعه فيها حين كلَّفه بدعوة الشعب بعد غسل الثياب والابتعاد عن النساء من أجل رؤية إلههم والحديث معه وليزدادوا إيماناً به إلى الأبد ثم ذلك الموقف المفاجىء والقرار الذي ألغي بعد ثلاثة أيام من صدوره من رب لنبي، أيرضى كتَّاب الأسفار عن هذا الإله الذي يصدر قرارات مهمة كتلك ثم يرجع فيها بعد أن يكتشف ما لم يكن في الحسبان.

على ضوء مثل هذه النصوص التي أتينا عليها واستشهدنا بها كنماذج صريحة ندلل بها على افتقاد الباحث لعقيدة التوحيد في كتب العهد القديم، هل يمكن بعد ذلك أن يقال أن العهد القديم يحمل صفة الوحي الإلهي وأن

(١) من هذه الدراسة كتاب (العشاء الربَّاني) للكاتب المسيحي المكثر (عوض سمعان) صدر عن دار الثقافة المسيحية بدون تاريخ ص ١٣٤ ـ القاهرة.
(٢) (سفر الخروج) الإصحاح التاسع عشر فقرات ١٤ ـ ٢١.

ما دوَّن فيه إنما هو بإرادة الله على يد أنبياء بني إسرائيل عقيدة وديناً وشريعة لبني إسرائيل نعتقد أنه في ضوء هذه المعالجة التي انتهينا إليها يتعذر على الباحث القول بأن ما في أسفار العهد القديم من تراث أو ميراث يحمل بين سياقه وحيا إلّهياً أو حتى بقية من وحي إلّهي.

هذا ونرجع بعد هذه النظرة الموجزة مرَّة ثانية ونقول: أين العقيدة الدينية التي تقوم على الإيمان برب خالق ينفرد بالخلق ويغاير مخلوقاته في مرويات العهد القديم، وهل يستطيع باحث منصف أن يرى قضية (الألوهية في العهد القديم) من خلال هذه النصوص مطروحة بغير مؤثـرات الوثن والصنم وأساطير الخرافة في الأمم البدائية(١).

إن الباحث في كتب العهد القديم مهما بلغت سماحته وقوي صبره على انعدام الوحدة الموضوعية والعقائدية فيما يتعلق بأمر عقيـدة الإيمان بـالإلّه الواحد لا يستطيع أن يرى في العقدة الإلّهية التي دان بها بنوا إسرائيل في العهد القديم أكثر من أنها عقيدة دينية وضعية في إلّه مختار بين الآلهة التي شاعت في الأمم والشعوب الوثنية، وليس في هذه العقيدة إيمان بالله يقوم على التوحيد.

وفي النهاية ليست العقيدة الدينية في العهد القديم مما يتسع لديـانة إنسانية أو مما يصح أن يحسبه الباحث المنصف مقدمة للإيمان بالإلّه الخالق الذي يدعو إليه الإسلام(٢).

---

(١) (جيمس غريزر) الفلوكلور في العهد القديم ترجمة نبيلة إبراهيم مراجعة حسن ظاظا الجزء الأول ص ٢٦٣ ـ القاهرة عام ١٩٧٢ م.

(٢) (عباس محمود العقاد) (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه) دار القلم الطبعة الثالثة عام ١٩٦٦ ص٥٠.

العقائد الوثنية في الأسفار اليهودية

قد سبق القول أن الدعوة الدينية القائمة على توجيه الوحي الإلّهي وعمل الرسالة الإلّهية على يد نبي أو رسول بدءاً من أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام حتى عصر ظهور النبي موسى عليه السلام مفتقدة تماماً أثارها الأخلاقية والسياسية في سيرة وتراث بني إسرائيل في العهد القديم فضلاً عن افتقاد مقومات عقيدة الإيمان بالإلّه الواحد، لكن سؤالاً قد يطرح نفسه حول المصادر والمنابع التي استقى منها كتاب العهد القديم معلوماتهم وعقائدهم التي دونوها في أسفار العهد القديم المختلفة ونسبوها بعد ذلك ـ زيفاً وعدواناً إلى أنبياء الله ـ. ونحن هنا نحاول التعرّف على أقرب المؤثرات الدينية الوضعية والتي لم ترتق بعقيدة الإيمان بالله في اتجاه التوحيد الخالص ولم ينقل عنها ولم يحفظ عن تراثها أن عمل الرسالة الإلّهية فيها كان شائعاً أو معروفاً مثلما هو مدعى في عقيدة المؤمنين بالعهد القديم. وسنقتصر في التعرّف على المصادر المؤثرة في المعتقد الديني في يهودية العهد القديم على نموذجين في العقيدة الدينية الوضعية في بابل وآشور م-عمدين أن نغفل العقيدة الدينية الوضعية التي اجتهد فيها المصريون القدماء على يد (أمنحوتب الرابع) الذي صاغ أدعية يمكن المقابلة بينها وبين مزامير الأسفار التي دونت في العهد القديم ليتضح من خلال المقابلة سبقها وشمولها الكثير مما جاء في المزامير.

وبادىء ذي بدء فإنا نود أن نشير إلى أن أثر الحضارة المادية التي كانت

عليها أحوال وأوضاع الشعب في بابل وآشور كانت هي السمة البارزة في تراث هاتين الحضارتين، هذا وإن أول ما يميّز الحضارة البابلية الأشورية إذا قورنت بالنظم السامية الأصلية هو انتقالها من البداوة إلى حياة الاستقرار، فأحوال الساميين التاريخية والحضارية كانت تتأثر تأثراً عميقاً بثبوت حضارتهم على حال واحدة عند استقرارهم في مواطن ثابتة بعد أن كانت حضارة متقلبة وصور تكيّفهم ببيئتهم الجديدة كانت تحددها صلاتهم بالشعوب الأخرى وكان السوماريون هم الشعب غير السّامي الذي اختلط به السّاميون المتقلون من البداوة أكبر الاختلاط وكان أولئك السوماريون قد بلغوا من الحضارة مبلغاً يسمو كثيراً على ما بلغه الوافدون الجدد، وكان استيعاب الساميين لعناصر الحضارة السومارية متصلاً واسع النطاق إلى حد صارت معه جوانب عدَّة من الحضارة البابلية الآشورية تعتمد اعتماداً مباشراً على تلك العناصر، وما أن نشأت الحضارة البابلية الأشورية نتيجة لعمليات الاستيعاب المعقَّدة حتى أخذت هي أيضاً تؤثر تأثيراً بعيداً في جميع المناطق المحيطة بها فأصبحت أرض الرافدين مركزاً حضارياً انتشرت منه الأفكار الأسطورية والعقائدية وإن جانباً كبيراً من أدب الشعوب السامية الآخرين وعاداتها صدى مباشراً لصوت أرض الرافدين، ولم تقتصر أفكار أرض الرافدين على العالم الثاني وإنما تغلغلت في آسيا الصغرى وبلغت بلاد اليونان نفسها، وتدل الدراسات التي تزداد وضوحاً يوماً بعد يوم على أن الحضارة اليونانية تدين بكثير من أفكارها لشعوب أرض الرافدين.

هذا . . والجوانب التي نريد أن نتناولها أو ننظر أثرها في العقيدة اليهودية التي تحدث عنها العهد القديم هي الجوانب العقائدية في الدين والأدب في الحضارة البابلية الأشورية وليست هذه الجوانب وحدات متميزة منفصلة تماماً وإنما هي متداخلة تؤلف معاً وحدة مركَّبة، وهي ظاهرة طبيعية في الشرق الأدنى القديم حيث لم تكن هذه الجوانب من الحضارة واضحة التمييز كما هي في عالمنا الحديث، فلم يكن يفرق عندئذ مثلاً بين الأدب الديني والأدب الدنيوي أو بين القانون المدني والقانون الديني.

وكان الدين هو العامل المسيطر في كل ركن من أركان الحياة الإنسانية وكانت نظرة الرافدين إلى الأدب والقانون والفن هي نظرة الشرق الأدنى كله قديماً فلم يكن ينظر إليها إلا في نطاق الدوافع متغلغلة في مظهر من مظاهر الحياة فكانت قوام الجوهر العميق لتلك الحياة، ولعل هذا أبرز خصائص الحضارة في الشرق الأدنى القديم، فكان الدين خلاصة القيم الإنسانية، أما التأمل الفلسفي المستقل والإبداع الفني فلم يتيسرا إلا بعد ذلك على يد اليونان.

وطابع التوفيق بين الأشياء المختلفة الذي يميّز حضارة أرض الرافدين لا يتجلى في شيء كما يتجلى في نظمها الدينية، فآلهتها السامية هي إلى حد كبير آلهة سومرية تقبلها الغزاة المنتصرون مع بعض التعديل، وهي ظاهرة تتكرر كثيراً خلال التاريخ، هذا إلى أن الآلهة البابلية والآشورية نفسها امتزجت وتفاعلت بعد ذلك بعضها ببعض بتغيير الأزمان والأحوال السياسية في أرض الرافدين، والدين الآكدي وافر الآلهة، وخصائص آلهته من نوع مماثل لخصائص الإنسان، لا تختلف عنها إلا أنها أكثر كمالاً وتجديداً ولباس الآلهة كلباس البشر ولكن لباس الآلهة أبهى من ثياب الأمراء، ويصدر عنها بريق يخطف الأبصار.

وللآلهة أسر وأسلحة، وصراعها كصراع الناس ولكنه بالطبع على نطاق أعظم وأهول ولعل هذه النظرة إلى الآلهة أقرب إلى نظرة هوميروس في أشعاره منها إلى نظرة العقائد السامية كلها، والدور الذي لعبته العناصر السامية في هذا كله هو كما قلنا موضع شك وهو قطعاً ليس بالدور الكبير.

وكانت الحياة اليومية التي يحياها البابليون والآشوريون تظللها دائماً مخافة الشياطين، وكانت هذه الشياطين مخلوقات عجيبة، يمكنها أن تتشكل في أية صورة، وأن تنفذ من أي جسم، وأن تتحرك في كل مكان دون أن يراها أحد، وكانت تفضل عامة الأماكن المهجورة المظلمة، والخرائب والمدافن وكل مكان آخر يبعث على الرهبة وكانت تدل على وجودها بأصوات حيوانية،

تبعث الفزع الشديد في الأماكن الموحشة.

وفي أرض الرافدين، وهو صورة صادرة لحياة الشعب غني بصور الشياطين، وهي تجمع عادة بين أجسام الإنس ورؤوس الحيوان أو تربط بين أعضاء حيوانات مختلفة على نحو رهيب.

وكانت الشياطين في الغالب أرواحاً شريرة صعدت من جوف الأرض وكان بعضها أرواح الذين لم يدفنوا في قبور، فكانوا يهيمون من مكان إلى مكان لا يهدأ لهم قرار وينتقمون لأنفسهم على مصيرهم التعس بمهاجمة البشر ومضاعفة الكوارث.

وإن أبرز ما يميّز السيكولوجية الدينية لأرض الرافدين فيما يتعلق بالشياطين هو أنه كان ينظر إلى الإنسان على أنه لا عاصم له فعلاً.. فحتى المرء الذي يحيا حياة طاهرة، ولا يسيىء إلى إلّه من الآلهة يمكن أن يقع فريسة لمكانة ساحر شرير، أو أن يتصل عن غير قصد بكائن أو بشيىء نجس فالإنسان فيما اعتقد أهل الرافدين يمكن أن يكون ضحية بريئة لقوى شريرة وأن مثل هذه النظرة المؤلمة في التشاؤم، لتدل على ضعف كبير في الأفكار الخلقية وعلى انعدام الإيمان بجزاء عادل في حياة أخرى على ما تقدمه من أعمال في هذه الدنيا، ولعل مثل هذه العقيدة كانت أمام كاتب بعض الأسفار اليهودية وهو يدوّن فيها دوّن منسوباً لرب إسرائيل مفتقداً ذنوب الآباء في الأبناء.

ولقد كانت الخطيئة في أرض الرافدين أقرب الطرق التي يسنطيع بها الشيطان دخول جسم الإنسان، وكانت الخطيئة صنوفاً عدَّة كإهمال الطقوس الدينية والسرقة والقتل، ولم يكن ثمَّة تمييز بين الذنوب الخلقية والذنوب المتعلقة بالطقوس الدينية فكان ينظر إليها كلها على أنها من نوع واحد وذلك بسبب الدور الغالب الذي كانت تلعبه الأفكار الدينية في نظام الحياة اليومية كلها، ولعل هذا أيضاً كان فكراً متداولاً أمام كتّاب الأسفار الدينية الإسرائيلية في كل ما نسبوه إلى سلسلة الأنبياء الصغار الذين كانوا يتعاقبون

على إسرائيل ويهوذا أثناء السبي وبعده ولا همّ لهم فيها نسب إليهم كتّاب الأسفار إلا متابعة الخطيئة ورصد الذنوب وما يترتب على الوقوع فيهما بالوعد والإنذار والتهديد الذي ساد معظم أسفار أنبياء بني إسرائيل في العهد القديم، وإن شابها شيء من الأمل أو البشارة كما يقولون في بعض المواقف والمراحل.

وكان من الطبيعي أن يختلط في أرض الرافدين أمر الدين بالكهانة.. بالطب ممزوجاً ببعض الأفكار والطقوس، وفي سبيل هذا الغرض كانت تتبع إجراءات مفصّلة معقّدة فكان على المريض أولاً تعيين الشيطان الذي سبّب له المرض، وهنا يجد العون من الأفكار السائدة عند القوم.. فأسماء الشياطين التي تقيم في أجزاء الجسم كانت معروفة منذ وقت طويل وأولها (أشكو) شيطان الرأس الذي كان يسبّب الصداع، وكان سكان البلاد يخشون الصداع خشية بالغة، فإذا ظلت حقيقة الشيطان موضع شك عمد إلى تدبير احتياطي، وهو أن يتلو المريض اعترافاً طويلاً بالآثام التي قد يكون اقترفها فيتأكد ذكره للإثم الذي ارتكبه فعلاً.

وكان من الضروري بعد ذلك طرد الشيطان وكان يتولاه كاهن متخصص في هذا الأمر وذلك بالرقي والأعمال السحرية التي تتطلبها الحالة.

وكانت طقوس أرض الرافدين بالغة التعقيد تشتمل على تفصيلات محددة في صرامة ودقة وهذا يدل على مدى تطور الناحية الشكلية من الدين عند القوم كما يبينّ في الوقت نفسه سيادة الدين المطلقة من كل جانب آخر من جوانب الحياة الاجتماعية وهذا ما لم يكن واضحاً في تأثير العقيدة الدينية على الحياة اليومية عند شعب العهد القديم.

وكان تقديم القرابين أشيع الطقوس الدينية وأغلبها في الاستعمال، وكانت القرابين تقدّم في أغراض مختلفة: للتكفير عن الذنوب أو اكتساب رضا إله من الآلهة أو تدشين معبد جديد أو تمثال جديد، هذا عدا القرابين العادية التي كانت تقدّم كل يوم في المعابد في أوقات محددة.

وكانت القرابين في الغالب من الحيوانات والسوائل وكان الجمل والجدي أكثر الحيوانات استعمالاً في هذا الصدد وكان النبيذ والجعة واللبن والعسل والزيت أكثر السوائل استعمالاً، وكان القربان من الأضاحي أو غيرها يوضع على مذبح أمام تمثال الآلهة أو الإلـه، ويبدأ الحفل الديني بالصلوات تصحبها بعض الطقوس العملية والرش بالماء المقدَّس، وكانت أجزاء معينة من القرابين مخصصة للإله أو الآلهة، تسكب أوتحرق تكريماً له أو لها وكانت أجزاء أخرى تؤول إلى الكهنة، ويرد الباقي إلى صاحب القربان.

وكان هناك فيما يبدو كهنة مخادعون، يجنون الربح من غير جهد بالاستيلاء على القرابين التي يؤتى بها إليهم، وإحلال قرابين أخرى أقل قيمة محلها، وكانت المعابد تتلقى مقادير كبيرة من السلع المختلفة الأنواع، وكانت إدارة هذه السلع مسألة معقدة كما يتبين من سجلات الحسابات التي كشفت بين الآثار.

وكانت المبالغة في مراعاة الطقوس تنعكس أيضاً في التقويم المقدس وكان يضبط أيضاً بطائفة كبيرة من القواعد المفصلة، فكانت أيام السنة تقسم إلى أيام مواتية وأخرى غير مواتية، وكان أداء الأعمال العامة والخاصة المختلفة في أيام معينة يصرح به أو يحرم وفق هذا التقسيم.

وكانت الأعياد الدينية هي أعياد الآلهة، وكان الناس يشاركون فيها بالمسرات والطقوس، وكانت أهم هذه الأعياد أعياد الآلهة حماة المدن المختلفة، وكان من أبرزها عيد العام الجديد في مدينة بابل وكان هذا العيد يشمل احتفالاً مهيباً يبدي فيه الملك خضوعه للإله، وكانت وفود ضخمة من الحجاج تهرع إلى المدينة في كل صوب، وكان الإله ينعم بالقرابين، والناس بالمآدب وكانت الدعوات ترسل دعاء بعد دعاء إلى «مزدك» الإله الأسمى للمدينة وكل المنطقة التي سادت فيها الدولة البابلية الأولى، وفي ذلك اليوم كان الإله يقرر في احتفال مهيب مصائر الدولة طوال العام الذي يستهلكه ذلك اليوم.

وكانت تصحب الصلوات حركات مختلفة فكانت تؤدى عادة وقوفاً أمام الإآله مع رفع اليد اليمنى، ويبدو أن الصلاة مع مد الكفين مفتوحتين نحو الإآله من أصل سامي.

وكانت هناك صلوات عامة وأخرى خاصة، ومن الطبيعي أن تكون الصلوات الخاصة أكثر تفصيلاً وأشد اصطباغاً بالجوانب الشخصية، وأن يكون للصلوات العامة أسلوب أعم وأكثر إيغالاً في النواحي الشكلية.

ورغم أن حقائق التاريخ المتعلق بمنطقة غربي آسيا في العصور القديمة والتي نشط شعوبها حضارياً في منطقة الرافدين بالذات، وكانت تتمدد في نشاطها بحكم الموقع الجغرافي لتكون على مباشرة من المحيط الهندي، وأيضاً لتكون على أرض جبال إيران وأرمينيا، وفي اتجاه حوض البحر الأبيض المتوسط لم يقتصر النشاط الحضاري على الوجود البابلي والأشوري على حده، فإن هناك من بناة الحضارة والتاريخ في أرض ما بين النهرين شعبين ينتميان إلى أصلين مختلفين، ولكنهما أبداعاً حضارياً وتركا من الآثار الفنية والأدبية الشيء الكثير، ونعني بهما السومري والشعب الأكدي اللذين عاشا مختلطين ببعضهما إلى حد كبير فكانت حضارة الرافدين وتاريخها نتاج شعب مركب ليس من اليسير في كثير من الأحيان أن يوضح البحث العلمي الفرق بين العنصرين اللذين يتألف منهما، ولقد كان هـذا باعثـاً للعلماء والباحثـين أن يطلقـوا اصطلاحاً اسم (أكد) والأكديون على ما يعرف (بالبابليين) (والأشوريـين) وأصبح اسم (الا كديون) اسم جامع للبابليين والأشوريين وهو نسبة إلى (أكد) وأيضاً أصبحت تطلق (أكد) على الدولة السامية التي. أسسها سرجون (الملك الشرعي) في الجزء الشمالي من أرض بابل حوالي ٢٣٥٠ ق. م. بعد أن قضى على سلطان السوماريين في جنوب أرض الرافدين وهي أول دولة سامية شهدتها تلك المدينة.

وعلى المدينة التي بناها سرجون بالقرب من (كيش) -(تل الأحيمر) لتكون مقراً لدولته ولا يعرف مكانها على وجه اليقين بالرغم من ذكرها في

الفقرة رقم ١٠ من الإصحاح العاشر في (سفر التكوين) وقد جاءت على الوجه التالي: (وكان ابتداء مملكته بابل وآرك وأكد وكلنة في أرض شنعار).

والمنطقة الممتدة حول مدينة آكد سميت المنطقة باسم عاصمتها، ومنطقة آكد هي الجزء الشمالي من أرض بابل، وسومر هي الجزء الجنوبي وفي العصر البابلي المتأخر (العصر الكلداني) أطلق اسم آكد على بلاد آكد وسومر معاً واللغة الآكدية القديمة هي لغة دولة آكد الأولى خاصة[١].

أقول هذه النماذج والصور الدينية التي كانت عليها حضارات ما بين النهرين كانت كشأن الحضارات القديمة قائمة على علاقات توجهها الكهانة الدينية وقوة الحاكم وعلاقات الظلم، ولا شك أن المتابع لحضارات الشرق الأدنى القديم وخاصة في منطقة ما بين النهرين تجابهه صور من العقيدة الدينية الوضعية تؤكد أنها في تطورها أو في قصورها وجمودها كانت أسبق في الرؤية والتصوّر من فكر بني إسرائيل فيما دوّنوا في أسفارهم وما سجّلوا على تاريخهم وعقيدتهم في كتب العهد القديم، وتؤكد هذه النظرة العابرة أنه ليست الجماعات اليهودية الإسرائيلية وحدها هي التي كانت في التاريخ الإنساني تصوغ العقيدة الدينية أو تتحدَّث عن الإلّه، بل أنها مدينة في فكرها الوضعي الذي دوّن في العهد القديم بعد أن فقدوا منحة الله إليهم في الوحي الإلّهي الذي كان كتاباً سماوياً على يد نبي الله موسى ثم أنبياء بني إسرائيل الذين كانوا رسلاً مبشرين ومنذرين لشعب ألف الفسق والعصيان.

ونستطيع مثلاً أن نلمس دور العقيدة الدينية الوضعية في حياة شعوب منطقة الرافدين وأثرها على فكر كتّاب الأسفار في صور ونماذج كثيرة، ولتكون هذه الصور دليلاً على أن أفكار النظرة الدينية رغم مرورها بالمراحل الوثنية عند غير بني إسرائيل كانت أرقى وأكثر أثراً في حياة شعوب الرافدين مما هي عليه فكراً مدوّناً وأثراً متداولاً في أسفار العهد القديم.

(١) (الحضارات السامية القديمة) تأليف سبتينو موسكاتي ـ ترجمة وتعليق الدكتور السيد يعقوب بكر.

ولقد وصل التطور بالفكرة الدينية الوضعية عند أصحاب الحضارات القديمة إلى مستوى لم تبلغه بين معظم كتب وأسفار التراث الإسرائيلي فمثلاً الشعر الغنائي في أرض الرافدين يفيض بجملة من المزامير أو الأدعية التي تعبّر عن نظرة في طريق التطوّر الذي كان يمكن أن يكون أساساً أخلاقياً لكثير من المذاهب والنظريات التي انعدم ما يقابلها من أساس في فكر كتّاب العهد القديم فيما دوّنوا وسجّلوا وخاصة عن عقيدتهم في (الإلّه).

إننا نلمح بين سياق الشعر التأملي في أرض الرافدين ذلك المزمور أو قل الترنيمة العذبة التي نسبت إلى ابن الإلّه الذي كانوا يؤمنون به وكانت (الشمس) مظهره وبرهانه عندهم، إن هذه الترنيمة تقول:

إيه يا شمس يا ملك السماء والأرض.
يا من توجه كل شيء في عال وسافل.
يا شمس: إن بيدك إعادة الميّت إلى الحياة.
وتحرير الأسير من قيده.
إنك قاض لا سبيل لإفساد ذمته.
ومرشد لبني الإنسان.
وابن رائع للإلّه (نمرصت)[1].
ابن عظيم القوّة والنبل.
نور البلاد.
وخالق كل ما في السموات وما في الأرض
هذا هو أنت يا شمس.

هذه الصور من العقيدة التأملية التي أتينا عليها ولم نشأ أن ـ نتعرّض

(١) (نمرصت) اسم للإلّه (سين) إلّه القمر ومعناه عندهم (الطلوع المنير) وعلى ضوء ما قرر الأستاذ سبتينو موسكاتي) في كتابه (الحضارات السامية) الذي ترجمه (السيد يعقوب بكر يقول وكان إلّه القمر عند شعوب ما بين النهرين بعد أقدم إلّهة لهذا ويعتبر أبا لإلّه الشمس وكوكب الزهرة وعلى هذا كان إلّه الشمس عندهم أخاً للزهرة وكانت الزهرة أختاً له.

لدقائق التفاصيل تقدّم ولا شك برهاناً على أن جهود الإنسان حتى في مجال مراحل النظرة المادية القاصرة في عقائد الشعوب الوضعية لم تكن فيها جماعة إسرائيل في العهد القديم تتميَّز بشيء أو تتفوّق في إحساس أو ترقى بعقيدة، وكان أمرهم بعد عصر يعقوب بن إسحق عليهما السلام أنهم يرتبطون نفسياً ويتعلقون عاطفياً بكل ما يعبر عن عقيدتهم في الإله بالمظاهر المادية وما يتعلق بها من صنم أو توتم أو رمز، ولم تكن عقيدتهم في الوحدانية ذات مضمون فلسفي أو فكري ولكنها كما يقول القس فهيم عزيز (وحدانية العمل والوجود)[1].

(١) القس فهيم عزيز في كتابه (ملكوت الله) الثقافة المسيحية ص ٧٨.

جوهر العقيدة الدينية في الأسفار اليهودية

لئن كان اليهود وجماعات إسرائيل جميعاً مثلهم في أمور العقيدة الدينية على ضوء ما رأينا مثل غيرهم من الأمم والشعوب التي دانت بعبادة الأوثان وتعلقت بظواهر الطبيعة، فإنها ظلت متعلقة بعبادة الأوثان ولم تأخذ طريقاً في اتجاه (التوحيد) بالرغم من لغط المفسرين الروحيين للاهوت في العهد القديم، فإنها ظلّت يدور اعتقادها وتتعلق اهتماماتها بظواهر في الطبيعة أو حاجات في الحسّ تعبّر عن رغبة القوم في استغلال المعتقد الديني ليظل أداة في أيدي البعض ضد البعض الآخر من الكهنة أو رجال الدين ليتيسر لهم دورهم في خدمة الحاكم، وليتيسر لهم خلق مجالات للسخرة والسيطرة عن طريق الشعائر وأمور العبادة التي يعدّلون في طقوسها ورسومها جيلاً بعد جيل ومرحلة بعد الأخرى[١].

وبينما سارت شعوب وأمم كثيرة في طريق المعتقد الديني الوضعي تطوّر فيه من مرحلة الارتباط بعبادة الأوثان والكواكب وظواهر الطبيعة والتواتم إلى الارتقاء بالفكرة الدينية والتطهر بها ومحاولة أن تكون رمزية أو معنوية بعد أن ترتدت الإنسانية بعيداً عن الفطرة فإن الجماعات اليهودية والإسرائيلية وعلى

---

(١) ناقشت (أبكار السقّاف) في كتابها (إسرائيل وعقيدة الأرض الموعودة) منهج كتاب أسفار التوراة ودور المتغيرات السياسية التي كان يمر بها المجتمع الإسرائيلي وخاصة في مراحل السبي البابلي في توجيه فكر كتاب الأسفار وتأثير الحوادث فيما كتبوا وفيما كانوا يودون الإتجاه إليه.

ضوء تراثهم في العهد القديم منذ حملوا ميراث الجماعات (العبرية) التي كانت تنتجع البادية وتنتقل من مكان لآخر طلباً للمرعى والكلأ وهم على ما هم عليه من تعلّق بالأفكار الوثنية وعبادة الحسّ المرتبطة بأمور الحياة اليومية.

ولقد بقيت في القوم منذ عصر (العبرانيين) الأول أي منذ عصر إبراهيم عليه السلام عبادة الأوثان والاهتمام بصنع التماثيل للتعبّد بها، والمغالاة في أساليب البيع والشراء لأدوات العبادة الطوطمية المتخذة من الحديد والحجر.

ومنذ دعوة النبي إبراهيم عليه السلام وظهور الأنبياء من بعده حتى عصر النبي موسى عليه السلام لم ترتق العقيدة الدينية عند الجماعات الإسرائيلية - اليهودية الذين يفترض فيهم أنهم حملوا ميراث إبراهيم واسحق ويعقوب وموسى في هداية النبوّة وعملها، لكنهم وعلى ضوء سيرتهم في التراث حملوا خلقاً مرتبطاً بالسطو والإغارة بتأثير من حياة العبرانيين الأول، ومعتقد الإله الذي يحدثنا عنه العهد القديم عند القوم لا نعثر فيه على صفات منزّهة أو متطهرة أو متعبّدة حتى ولو على مستوى وضعي كذلك المستوى الذي أشرنا إليه في مصر عصر احناتون وآشور وبابل التي كانت كل واحدة منها رغم وثنيتها أرقى في السلوك الديني مما نراه ونلمسه في التراث اليهودي الإسرائيلي الذي يقصّه العهد القديم.

فالإله في العقيدة اليهودية التي آمن بها ونقلها ودوّنها كتّاب العهد القديم عن شعب إسرائيل إله يقوم بأعمال الإنسان وحركاته كما سبق لنا القول بذلك، لكنه هنا ونحن نبحث عن المضمون الديني نراه في التراث الإسرائيلي يأكل ويشرب ويصارع التنين، وهو عندهم تارة (يهوه) الذي يقصد بالتعلّق به ضمير الغائب، وهو (إيل) القوي وعقيدة (يهوه) عند الجماعات اليهودية على حد ما نقلوا عنه فيما دونوا أنه إله يكيد لهم وينصب الفخاخ ويضللهم ويغرر بهم، بل أنه كما نقلوا عنه أنه غير راضٍ عن وجودهم في مصر، ولذا فإنه يتمنى إهلاكهم بعيداً عن أرض وادي النيل التي ما كانوا يودّون الخروج منها:

ومن عجب أن العقيدة عند الجماعات اليهودية سواء المتعلقة بـ (يهوه) أو المرتبطة بـ (إيل) هي من قبيل ربوبية السيادة والسيطرة والتسلّط، ولم تحمل مضموناً يقوم على أنها عقيدة (الخالق).

ولم يكن من الخطأ عند القوم أن تتعدّد الأرباب من موطن لآخر لأنهم لا ينكرون الأرباب التي تدين بها القبائل أو الأمم الأخرى.

ويستطيع الدارس لتراث العهد القديم والباحث عن مضمون العقيدة الدينية عند الجماعات اليهودية أن يلحظ ذلك الارتباط المطرد في تاريخ القوم بالممارسة الوثنية للتعبير عن العقيدة كوظيفة اجتماعية يقوم بها من يوكل إليه أمر تقديم الذبائح وعمل القرابين أو رعاية الهيكل والقيام على طقوسه، ففي سفر (أشعيا) نبي العهد القديم الذي عاش فيما حقق سيرته بعض الباحثين في القرن الثالث قبل ميلاد عيسى بن مريم وسواء أكان ذلك التاريخ صحيحاً أم غير ذلك فهو بالقطع من رجال عصر ما بعد السبي، في الإصحاح الأول من سفره كلمات تكشف عن المضمون الديني الذي كان يتمثل في صور من الطقوس والشعائر والممارسات في عقيدة الشعب يسجلها كتّاب سفر أشعيا أو أشعيا بنفسه بذلك النوع من النقد الساخن والمتأسف لهذا السلوك من الممارسات في عقيدة الشعب الدينية عند بني إسرائيل يقول: (اسمعوا كلام الرب يا قضاة سدوم، اصغوا إلى شريعة إلهنا يا شعب عمورة. لماذا لي كثرة ذبائحكم، يقول الرب أتخمت من محرقات كباش، وشحم مسمنات وبدم عجول وخرفان وتيوس ما أسر)[1]؟

وتكاد أن تنعدم تماماً من أسفار العهد القديم أفكار تتعلق باليوم الآخر أو تتداول صوراً عن الخير والنعيم في الجنّة أو العقاب والعذاب في النار وإذا ما جاءت عبارات قليلة تتعلق بين السياق العام لبعض المواضيع بهذا الموضوع

(١) سفر أشعيا ـ الإصحاح الأول فقرتا ١٠ ـ ١١.

الحيوي الذي لا تخلو منه عقيدة دينية صحيحة تقوم على الإيمان بالله رب العالمين فإنما تأتي من خلال عرض غامض ونسق مادي وثني بحت.

وما ورد في هذا الشأن مما تركه لنا تراث العقيدة الدينية الإسرائيلية في المضمون الديني عندهم لا يقدم تصوراً كاملاً ولا يملأ عاطفة معتقدة في الإله ترجو ثوابه وتخشى عقابه كما أنه لا يرضى قلباً يتعلق بالغيب ويقوم إيمانه بالله على ضوء من الإيمان بالغيب، ففي كتاب (أشعيا) من الإصحاح الرابع والعشرين عن ذلك اليوم الذي تبعث فيه الخلائق أنه: (يكون في ذلك اليوم أن الرب يطالب جند العلاء في العلاء وملوك الأرض على الأرض ويجمعون جميعاً كأسارى في سجن ويغلق عليهم في حبس ثم بعد أيام كثيرة يتعهدون، ويخجل القمر وتخزي الشمس لأن رب الجنود قد ملك في جبل صهيون وفي أورشليم وقدام شيوخه)[1].

ورغم هذا الجدب والعقم الديني الذي يلازم صور ومضمون المعتقد الديني في كل جوانب العقيدة الدينية اليهودية التي روتها أسفار العهد القديم بعد قيامهم بتحريف دين الله ووحيه تعالى إلى أنبيائهم، فإن هناك من وهم بأن الديانة التي حملتها الجماعات اليهودية كانت أسبق الأديان إلى تقرير القصص الديني والتعليق على المسائل المتعلقة بأمور الغيب والاعتقاد القائم على التوحيد[2] والواقع أن عقيدة الإله (يهوه) الذي كان يظهر للقوم كما تخيَّلوا وكما دوَّنوا باعتباره إلهاً خاصاً بهم قد عقد معهم دون غيرهم عهداً بأن لا يكون إلهاً لسواهم من البشر، وكانوا كما أرادوا منه وكما سجَّلوا عنه يحبّون أن يروه وسط سحب البرق والعواصف مستعرضاً قوته وجبروته لشعبه، وكانوا يتصورون أنه لا يظهر إلا فوق أو حول (تابوت العهد) الذي هو عبارة عن

---

(١) سفر أشعياء ـ الإصحاح الرابع والعشرون فقرات: ٢١ ـ ٢٣.

(٢) القس فايز فارس في كتابه (مجيء المسيح ثانية) صادر عن دار الثقافة المسيحية ـ القاهرة عام ١٩٦٩ وطبع بالتعاون مع مجمع الكنائس للشرق الأدنى ص ٤١ وعند الحديث على (البراهين على صحة التفسير الروحي) وهي مغالطات عقلية وتاريخية.

صندوق من الذهب يحيط به تمثالين من الذهب لملكين من ملائكة السماء كما زعموا ـ ومن طوائف ملائكة ««الكروبيم» أي المقربين، وكان عليهم فيما اعتقدوا ودوّنوا لكي يطمئنوا إلى أن علاقاتهم بالإلّه قائمة ونافذة لا بدّ وأن يكون هذا الصندوق الذهبي والذي كان يطلق عليه تابوت العهد معهم في حلّهم وترحالهم وكانت الجماعة من جماعات إسرائيل إذا خرجت لسفر فإنما يخرج معهم (تابوت ـ العهد) لتنصب لـه خيمة خاصة بـه حين يحطون رحالهم، وظلت هذه العلاقة «الوثنية» مظهر العبادة الإسرائيلية من عصر موسى عليه السلام حتى كان عصر سليمان الذي تقول الأسفار عنه أنه استبدل الخيمة بعبد، وحين ضاعت المملكة بعد عصر سليمان وانقسمت إلى مملكتين ثم جاء لكل منهما عدوّه المتربّص به لم يعد عند القوم تابوت أو عهد أو معبد ولم يسجلوا على أنفسهم ذكريات أو آلام كانت تعاود من يتذكر العهد والمعبد.

وعلى هذا فنصيب القوم من نقاء الفطرة وسمو المعتقد الديني القائم على التوحيد وتنزيه رب العالمين بعيداً عن مظاهر الوثن أو الصنم أو الحسّ المباشر هو الجدب والقحط(١).

ومن أقدم مراحل تاريخ الجماعات الإسرائيلية اليهودية منذ المصادر الأولى للجماعات (العبرية) لم ترتق معتقداتهم في الإلّه والإيمان به عن أمور الحياة العامة ومطالب الحس، فلم يكن عندهم من فارق بين طبيعة الكائنات أو القوى العلوية أو الغيبية وبين طبيعة القوى أو الكائنات الأرضية من إنسان وحيوان، ومن ثم فلم تميّز العقيدة الدينية عند القوم الفرق بين الخلق الخيّر والخلق الشرّير، فعلى ضوء تراثهم فالشيطان يحضر بين يدي الله على الأرض مع الملائكة بل ويدخل في حوار مع إلّـه العهد القـديم يتغلب فيه رأي الشيطان على رأي إلّه العهد القديم كما هو الأمر في الحديث عن سيرة أيوب في سفره، والملائكة الكائنات العلوية بكل صفاتها وطبقاتها تهبط إلى الأرض

(١) اليهود بين الدين والتاريخ (للمؤلف) وهو دراسة عن الجوانب الدينية والعقائدية عند بني إسرائيل صادر عام ١٩٧٣ ـ القاهرة.

لتعاشر النساء من جماعات إسرائيل وخاصة البنات[1].

الإله عندهم - تعالى الله - حين يرضى ينزل إلى الأرض من أجل شعب إسرائيل وعقيدته المزعومة والنزول في رواية التراث الإسرائيلي ليس نزولاً معنوياً على غرار ما قالت به بعض الفرق الضالة التي انتسبت لعقيدة الإسلام حين جاء الإسلام أي بخيره أو فيضه أو رحمته أو عونه، وإنما ينزل ليمشي في الحدائق يأكل اللحم والخبز ويتشاجر فيحقد وينتقم ويفعل كما يفعل كل مخلوقاته[2] - تعالى الله -.

ومن عجب أن دارس العقيدة الدينية في أسفار العهد القديم يجد أنه حين تتطور العقيدة الدينية عند القوم في النظر إلى معتقد من المعتقدات لا تتحرك نحو التنزيه أبداً، فحين تطورت عقائدهم في النظر إلى الكائنات العلوية وخاصة الملائكة ظهرت بوادر (التخصص) في وظائف الملائكة فمنهم ملائكة مهامها في الأرض أن يقوم بعضهم على الآبار وبعضهم على الأنهار وبعضهم للتلال وللجبال والبعض الآخر يعمل في طاعة الشيطان وينتقل بين السماء والأرض على هواه.

وليس في جملة العقدة الدينية الإسرائيلية على مدى ضخامة أسفار العهد القديم محاولات تتحدث فيها هذه الأسفار عن صور أخلاقية إيمانية فيها المؤمنون يقومون بالتبتل أو التعبّد لله بروح جماعية أو فردية الأمر الذي جعل معظم علماء الأديان من الغرب يرجعون في يسر وسهولة الصلوات والأدعية الإسرائيلية التي جاءت في بعض فقرات العهد القديم إلى مصادر تأثرت بها ونقلت عنها الصلوات الإسرائيلية من بابل وفارس حين كانوا في الأسر بعد أن فقدوا كل مصادر الوحي الإلهي.

فبالمقارنة البسيطة نجد قصة الخليقة في العقائد الإسرائيلية والتي أفاض

---

(١) المصدر السابق ص ٥٣٩.

(٢) انظر (سفر التكوين) الإصحاح الثالث: الذي يقصّ أخبارا عن إله العهد القديم حين نزل في الجنّة يتمشى ويتنزّه وتقابل مع آدم - وحوّاء.

فيها (سفر التكوين) تشابه إلى حد كبير قصة الخليقة فيما تركه البابليون من ميراث عن معتقداتهم في الإله، بل أن عقيدة (المخلّص) التي تبدو واضحة في تفسيرات رجال اللاهوت لنصوص العهد القديم ترجع أصولها إلى معتقدات فاوسية

والذي يواجه الباحث حول المضمون الديني للعقيدة الدينية عند اليهود على ضوء معطيات العهد القديم يجد أنه لم تزدهر الفكرة الدينية الإسرائيلية أبداً بقيم التوحيد ولم يعرف المتعبّدون الإسرائيليون أسلوباً دينياً يعبّر عن التوحيد، فحتى المرحلة التي اقترنت بدور الأنبياء والمرسلين الكبار كانت في عواطف القوم واهتماماتهم مرحلة كرب أو ضنك أخفوا فيها بالإهمال تارة وبالقصد والتحريف تارة أخرى حقيقة الدعوة الإلهية التي وجّههم إليها أنبياء ورسل الوحي الإلهي.

هذا.. ومظاهر الإستجابة الدينية في تراث وتاريخ بني إسرائيل للتوحيد توشك أن تكون معدومة.

يوضع سفر الملوك الثاني من الإصحاح الثامن عشر، كيف يساغ في عقل القوم ومنطقهم الديني أن يأتي على إسرائيل ملك من الشباب الذين لم يبلغوا مبلغ الرجال الحكماء أو الكهّان أو الأنبياء، وينصبّ بالكهانة نفسه ملكاً ويقيم شعائر للعبادة جديدة.. ثم يطوّر في أسلوب التعبّد ويمسخ معتقدات وثنية عند القوم ليأتي بغيرها دون خروج أو حرج أو مشقّة، بأي معتقد وبأي أسلوب ابتدع وأخذ المدعو (حزقيا بن أحاز) على عاتقه أن يقدمه أسلوباً وعقيدة جديدة.

إن العهد القديم على ديدنه في التسجيل دون إعمال لفكر أو عقل ذهب كتّابه لينسبوا (لحزقيا بن آحاز) أنه أراد أن يطوّر أسلوب ومعتقد النبي موسى فيما رأوا وفيما دوّنوا على ابن آحاز وعلى نبي الله موسى عليه السلام من قبله.

يقول فقرات الإصحاح الثامن عشر رقم ١ ـ ٨ من (سفر الملوك الثاني)

(وفي السنة الثالثة لهوشع بن أيلة ملك إسرائيل ملك حزقيا بن آحاز ملك يهوذا كان ابن خمس وعشرين سنة حين ملك وملك تسعاً وعشرين سنة في أورشليم، واسم أمة أبي ابنة زكريا، وعمل المستقيم في عيني الرب حسب كل ما عمل داود أبوه، هو أزال المرتفعات، وكسَّر التماثيل وقطَّع السواري وسحق حيَّة النحاس التي عملها موسى لأن بني إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها ودعوها نحشتان).

وهذه الصورة المسجلة في العهد القديم وفي سفر من أسفار التاريخ التي تلقى كل عناية واهتمام من علماء اللاهوت عن معتقدات اليهود منسوبة من غير حياء ولا خلق إلى نبي كموسى عليه السلام تدل في تأكيد على أن عقيدة التوحيد التي دعا إليها النبي موسى باعتباره نبياً رسولاً قد رفضت تماماً في بني إسرائيل ولم تجد مجالاً في نفوس القوم أو قلوبهم.

وليت الأمر قد أمكن معه أن يكون هناك أدنى أثر أخلاقي خيِّر وفاضل قد اقترن أو تأثر بالمراحل المتعددة التي مرَّت بها صور العقيدة الدينية عند اليهود، فإن الإله الإسرائيلي رب الجنود الذي كان يضرب الشعوب والأمم من أجل إسرائيل، هذا الإله الذي أسكنوه في (صهيون) على حد ما تقصّ رواية (أشعيا) من سفره في الإصحاح العاشر، فإن القيم الأخلاقية التي كان عليها الشعب والتي كانت في نفس هذا الوطن الذي يتحدث عنه العهد القديم (صهيون) كانت سيئة ومنحرفة ومعوجة ومنحلَّة وبعيدة عن طريق الرب إلى الحد الذي يخبر فيه سفر أشعيا من الاصحاح الثالث فقرات ١٦ ـ ٢٦ أن الرب لا يرضى عن كل هذا الفسق الذي كانت عليه نساء القوم وبناتهم فماذا قال أشعيا: (وقال الرب من أجل أن بنات صهيون يتشامخن ويمشين ممدودات الأعناق وغامزات بعيونهن وخاطرات في مشيهن ويخشخشن بأرجلهن، يصلع السيد هامة بنات صهيون ويعرِّي الرب عورتهن، ينزع السيد في ذلك اليوم زينة الخلاخيل والضفائر والأهلَّة والحلق والأساور والبراقع والعصائب والسلاسل والمناطق وحناجر الشمَّامات والأحراز والخواتم وخزائم الأنف والثياب المزخرفة والعطف والأردية والأكياس والمرائي

والقمصان والعمائم والأزر، فيكون عوض الطيب عفونة، وعوض المنطقة حبل، وعوض الجدائل قرعة، وعوض الديباج زنار مسح، وعوض الجمال كيّ، رجالك يسقطون بالسيف، وأبطالك في الحرب، فتئن وتنوح أبوابها وهي فارغة تجلس على الأرض فتمسك سبع نساء برجل واحد في ذلك اليوم، قائلات نأكل خبزنا ونلبس ثيابنا ليدع فقط اسمك علينا. انزع عارنا).

وقد تأخذ المرء الحيرة إذا علم أن هذه النصوص التي كانت تعبّر عن الإله المرتبط في ضمير القوم وعقيدتهم يجيء هنا في نص أشعيا (ليعرّي) بنات صهيون ويكشف عوراتهن وإذا ما غضب من الذين ادعوا أنه لهم وحدهم وأنهم لهم كل شيء وليس عليهم من شيء فإنه سرعان ما تفاجئنا النصوص بأنه ينزل إلى الأرض بطلاً أسطورياً على غرار نفس الصور أو أقل التي كان ينظر بها أهل بابل وآشور إلى الإله، إنه ينزل ليبيد الأمم والشعوب من أجل غضبه على إسرائيل لا بل إنه ينزل ناراً تحرق الأخضر واليابس من أجل مفتريات عقيدة أصحاب التراث الإسرائيلي في العهد القديم، ولننظر إلى (سفر أشعيا) وهو يقول في الإصحاح الرابع والثلاثين من الفقرات ٢٧ ـ ٣٣: هو ذا اسم الرب يأت من بعيد غضبه مشتعل والحريق عظيم، شفتاه ممتلئتان سخطاً ولسانه كنار آكلة، ونفخته كنهر غامر يبلغ إلى الرقبة، لغربلة الأمم بغربال السوء، وعلى فكوك الشعوب رسن مضل تكون لكم أغنية كليلة تقديس عيد وفرح قلب كالسائر بالناي ليأتي إلى جبل الرب إلى صخر إسرائيل، ويسمع الرب جلال صوته ويرى نزول دراعه بهيجان غضب ولهيب نار آكلة نوء وحجارة برد لأنه من صوت الرب يرتاع أشور بالقضيب يضرب، ويكون كل مرور عصا القضاء التي ينزلها الرب عليه بالدفوف والعيدان وبحروب ثائرة يحاربه لأن نفسه مرتّبة منذ الأمس مهيئة هي أيضاً للملك عميقة واسعة كومتها نار وحطب بكثرة نفخة الرب كنهر كبريت توقدها).

ولا يبقى لنا بعد أن وقفنا على هذه النماذج وتعرفنا على تلك النصوص

التي لا يمكن أن تكون برهاناً إلا على فكر وعقيدة أبعد ما تكون عن عقيدة (التوحيد).

أقول لا يبقى أمـامنا إلا أن نقرر أن المعتقد الديني الإسرائيلي على ضوء ما هو عليه في التراث الإسرائيلي معتقد وثني لا يمكن أن يكون في اتجاه التوحيد لله كما أنه لا يمكن أن يكون بين ثناياه أو في مضمونه بقية من آثار الوحي الإلٓهي: ذلك أن القوم على ضوء ما عندهم من نصوص لم يعرفوا عقيدة الإيمان بالإلٓه الواحد ربّاً وسيّداً وهم منذ دعوة النبي إبراهيم عليه السلام حتى مراحل الأنبياء الكبار لم يحافظوا على منحة الله لهم وعونه إياهم فعكفوا على عبادة الوثن والصنم، ذلك أن جماعة إسرائيل بحكم تكوينهم النفسي كانوا ممن سار على طريق يحقق مطامعهم وغرائزهم ويخدم كل ما تعرضوا له من محن سياسية ودينية ولم يـكونوا أبداً على طريق الدعوة الدينية في الإيمان بالإلٓه الواحد باستثناء تلك المراحل القليلة والجماعات المحدودة التي حفظت وحي الله وعملت بالرسالة الإلٓهية على ضوء ما أخبر القرآن الكريم منصفاً ومطهراً للتاريخ الذي زيّفه ودنّسه كتاب الأسفار اليهودية، وهذا ما تعرضنا له بالدراسة الموسعة في كتابنا (بنو إسرائيل بين نبأ القرآن الكريم وخبر العهد القديم)[1].

---

(١) الكتاب صدر عن (عالم الكتب) بيروت ـ لبنان عام ١٤٠٤ ـ ١٩٨٤ م.

الباب الخامس

التطور التاريخي للتلمود.
أهمية التلمود عند اليهود.
الكتاب المقدس في الفكر الحديث.
افتقار العنصر الأخلاقي في العهد القديم.

التطور التاريخي للتلمود

الدَّارس لمصادر العقيدة الدينية الإسرائيلية اليهودية من خلال التراث الإسرائيلي عبر مراحل التاريخ يلحظ بوضوح أن فكراً أخلاقياً ومعتقداً دينياً بل وسلوكاً تطبيقياً في الحياة العامة وفي مضمون عقيدة الإيمان الديني عند اليهود يرتبط بمصدر ديني مكتوب ومسجَّل ومتداول يضاف إلى أهمية المصدر الديني المعتقد والممثل في (العهد القديم) وهذا المصدر هو: التلمود الذي اكتسب في نفوس الجماعات الإسرائيلية واليهودية على المدى الطويل قداسة وأهمية تفوقان كل مقدَّس وكل تصور.

والتلمود من بين جملة المصادر الدينية الإسرائيلية قد أصبح (التوراة) المهمة في عواطف القوم ومعتقداتهم عبر مراحل التاريخ وهو: جملة من القواعد والوصايا والشرائع والتعاليم الدينية والأدبية والشروح والتفاسير والروايات المتعلقة بدين وتاريخ وجنس إسرائيل على مدى التاريخ. وكانت هذه التعاليم والقواعد والشرائع تتناقل وتدرس مشافهة من حين لآخر كما سبق الإشارة إلى ذلك.

ولما تعاظم شأن هذه التعاليم في نفوس الجماعات الإسرائيلية واليهودية عبر التاريخ وكثرت هذه التعاليم كثرة شملت كل تاريخ وحياة وعقيدة ومستقبل الجماعات الإسرائيلية اليهودية قرر كبار الحاخامات من رجال العقيدة الإسرائيلية أن يسجلوا هذه التعاليم حتى تضاف إلى ما لديهم من نصوص أو مستندات[1].

(١) في التعليق على كتاب (التلمود) والتعريف به يقول الكاتب المسيحي عوض سمعان في كتابه =

وبدأت عملية التسجيل والتدوين على مراحل متعددة وفي مواقع مختلفة وتركزت عمليات التسجيل والتدوين في (بابل) وفي مناطق (فلسطين) وخاصة في أورشليم، وتمت التعاليم التي سجّلت في أورشليم تسمى (المشنا) وقام بها علماء من أحبار اليهود كانوا يسمون (التنائيم) وكان أولهم شمعون الصدّيق وقد قام هؤلاء العلماء بعد رجال المجمع الأكبر ابتداء من سنة ١٠٠ ـ ٢٢٠ م وكانوا في مجموعهم فرقتان الأولى بدأت بـ(شمعون) الصديق إلى (هليل) (وشماي) وهم الأحبار أو الشيوخ الأول وكانوا يلقبون بأسماء كان منها (ربّان).

والفرقة الثانية هم الجماعات التي كان يطلق عليها (الربى) ـ ربا أريحا ـ ولقبهم (ربي). والمشنا تعني الدرس وهي عبارة عن خلاصة من التعاليم الشفهية ومجموعة من قوانين اليهود السياسية والمدنية والدينية التي أقرها العلماء اليهود الكبار والتي بدأها الحبر.. (شمعون بن جميل) يعاونه في الترتيب والتنسيق مجموعة من الأحبار رجال العقيدة وخدم التراث في الفترة من عام ١٦٦ ـ ٢١٦ حتى جاء القرن السادس الميلادي حيث أصبحت تعاليم (المشنا) عدة أقسام تحتوي على بحوث تشمل دراسة خاصة بالزراعة ودراسة خاصة بأحكام الصلوات والبركات، ودراسة خاصة بالأعياد والسبوت ودراسة خاصة بأمور النساء وأحكام الزواج والطلاق ودراسة خاصة بالأحكام المالية والجنح والقرابين والذبائح[1] وغيرها.

= الصادر عن دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية بمصر عام ١٩٧١ والمودع بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٧٨٢ والمسمّى: (صلب المسيح وموقف الغنوسطيين إزاءه) ص ٢٤: (كلمة تلمود معناها (تعليم). ولليهود تلمودان ـ الأول هو التلمود الأورشليمي وقد وضعه أحبار اليهود في أورشليم في أواخر القرن الرابع والثاني هو (التلمود البابلي) وقد وضعه أحبار اليهود في بابل في القرن الخامس الميلادي ـ ويعتبر التلمود أهم الكتب الدينية لدى اليهود بعد التوراة.

(١) (الكنز المرصود في قواعد التلمود) دكتور روهلنج ترجمة من اللغة الفرنسية الدكتور يوسف حنا نصر الله ـ الطبعة الثانية بيروت سنة ١٩٦٨.

وكذلك أيضاً أمر القسم الثاني أو الشق الآخر من مجموعة :القواعد والآداب والتعاليم والتفاسير المسماة (الجمارا) وهذا القسم (الجمارا) من بين ما تعنيه (الإتمام) أو التكميل، والجمارا تقوم في مضمونها على جملة من الروايات والأحاديث المسموعة المتداولة عن الحاخامات على مدى أجيال متعددة وهي أي الجمارا تقوم على إيضاح وشرح وتفسير (المشنا) وهي تحتوي أيضاً على خلاصة ومحصلة البحوث والدراسات والمجادلات التي تم تداولها في معابد الكهانة الدينية وهي تشمل من أنواع الدراسات والبحوث الأمثال والحكم والأخبار والمعلومات المتعلقة بالأمور العامة والصناعات القبطية أو الفلكية أو الحرفية، وتكاد أن تكون (الجمارا) دائرة معارف تشمل كل أمور الحياة الإسرائيلية اليهودية[٢] ومن مجموع ما تحتويه المشنا وما تشتمل عليه الجمارا تتعدد المصادر الدينية عند اليهود في مجال تدوين التراث الإسرائيلي وتداوله، وفي الوقت نفسه يتكون المصدر الديني الذي بلغت قداسته في قلوب الجماعات الإسرائيلية حداً فاق فيه أهمية المصدر القديم والذي من أجله كانت تعاليم المشنا والجمارا وأعني به أسفار العهد القديم. هذا وقد ظلت عملية التدوين والإضافة للجزء الأورشليمي من التلمود حتى أواخر القرن الرابع الميلادي وكذلك أمر الجزء البابلي الذي كان ينفق على نسبة جزء كبير منه المدعو (رب آشى) والذي كان رئيساً (للأكاديميا) في (سورة) على مقربة من بغداد وكانت تسجّل التعاليم قبل ذلك بمساعدة الأحبار اليهود في أرض بابل، وظلت عملية التدوين والتسجيل حتى أخذت في الاكتمال الذي أراده لها الأحبار في أواخر القرن الخامس الميلادي.

هذا.. ومن الجدير بالذكر أن التعاليم التي يحتويها الجزأ الخاص في منطقة (بابل) أكثر شيوعاً وانتشاراً من الجزء الأورشليمي، وظلت الأفكار

---

(١) (إسرائيل والتلمود) إبراهيم خليل أحمد ـ مكتبة الوعي العربي سنة ١٩٦٧.

من المراجع التي تناولت التلمود بالدراسة والتفصيل كتاب جوزيف لويس (الختان ضلالة إسرائيلية مؤذية ترجمة عصام الدين حنفي ناصف) دار مطابع الشعب ـ القاهرة. وكذلك كتاب (الذبائح البشرية التلمودية) (حبيب تادرس).

والتعاليم التي احتواها التلمود بشقيه (المشنا والجمارا) تتداول وتنقل باللسان في معظم مراحل التاريخ مخافة أن يطّلع عليها أحد غير يهودي، فلما استقر رأي الأحبار اليهود نهائياً على تسجيلها في كتاب واحد، وعقدوا العزم على ذلك ولم يعد غير مهم عندهم أن تقع هذه التعاليم في أيدي غير اليهود ابتدأت هذه التعاليم تقع فعلاً في أيدي غير اليهود وخاصة عندما ظهرت الطباعة ورجح الرأي اليهودي الذي كان يرى أنه من الأفضل طبع التلمود وتداوله ليمكن لتعاليمه أن تنتشر بين اليهود[1] وليمكن أيضاً تحديد النص التلمودي من غيره وخاصة بعد ما ظهرت تفاسير وإضافات في العصور الوسطى قام بها رجال الدين اليهود وخاصة (حاخامات) فرنسا الذين أضافوا للتلمود ملحقات مثل مجموعة (مشتابوت) التي أضافها (ربي حيا) و(ربي أوشعيا) وهي شروح لأحبار فرنسا في القرون الوسطى على شرح راشي على التلمود[2].

وبالفعل فإن التلمود قد ظهر مطبوعاً لأول مرَّة في كتاب من اثني عشر مجلداً في (البندقية).

وهناك بعد ذلك ظهرت طبعات عدَّة أقدمها طبعة (البندقية) التي طبعت في عام ١٥٢٠ م والتي كانت في اثني عشر مجلَّداً، وأعيد طبعها دون تعديل في البندقية أيضاً عام ١٥٥٠ م وكان من أثر هاتين الطبعتين أن تعرّض - اليهود في كل بلدان العالم لحرج شديد لم يكن في تقديرهم ولا تصوّرهم أن يلاقوه ولم يجدوا تفسيراً معقولاً يجابهون به العالم بعد حيرته الشديدة مما في التلمود من أفكار وقضايا. . . فإن الفقرات والأخبار والأخلاق التي في التلمود

(١) في كتاب (همجية التعاليم الصهيونية) الذي ألفه (بولس حنا سعد) وقدمه الأستاذ (محمد خليفة التونسي) دراسة موسّعة عن مراحل طبع التلمود بشقيه (المشنا والجمارا) وقد صدر الكتاب في طبعة أولى في بيروت عام ١٩٦٩ م.

(٢) انظر في واحد من أمهات البحوث العلمية المعاصرة عن التلمود فيما كتبه الباحث المتخصص الدكتور (أسعد رزوق) في كتابه (التلمود والصهيونية) صادر عن مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية.

والتي كشفت عن نواياه تجاه العالم الإنساني كله جعلت الكثير من شعوب العالم من التي أتيح لهم أن يطلعوا على نيَّات اليهود وعقائدهم المسجَّلة في التراث الإسرائيلي وخاصة التلمود تأخذ من اليهود موقف رفض ومقاومة لهذه الأطماع المسجَّلة في التلمود، ولذلك كانت الطبعة الثالثة للتلمود والتي كانت في (بازل) عام ١٥٨١ م خالية من بعض الفقرات والأخبار والأخلاق التي تفصح نيَّات اليهود ومقاصدهم تجاه غيرهم من الشعوب على ضوء هذا التراث العصري الذي طوّروا به التراث القديم ومع ذلك فإنه بعد طبعة (بازل) عام ١٥٨١ م والتي كانت خالية من بعض فقرات معيّنة تفضح اليهود وتكشف أطماعهم في العالم على ضوء نعرة وعنصرية التراث المدوّن في التلمود، فإن الجماعات اليهودية قامت بطبع هذه الفقرات منفصلة وقامت بتوزيعها على الإسرائيليين لحشرها فيما بينهم بين صفحات التلمود في الأماكن التي انتزعت منها، ومع ذلك فإنه قد سارت مضايقات من الذين أتيح لهم أن يطّلعوا على تعاليم التلمود أثر ظهور طبعتي (امَستردام) ١٦٠٠ م و(كراكوفيا) ١٦٠٥ م فاجتمع أحبار اليهود في صورة مجمع مقدَّس، وقرروا حذف الفقرات المريبة في كل طبعة تطبع في المستقبل، وقالوا في مقدمة قرارهم ما نصه: (. . . ولذلك تقرر إصدار الحرمان ضد كل شخص يجرؤ على أن يثبت في الطبعات المستقبلة ـ للمشنا والجمارا ـ كل ما يعتبر طعنا مباشراً في عيسى أو في الأديان الأخرى. وتقرر أن يترك مكان هذه الفقرات خالياً، حتى يستطيع اليهود بعد ذلك أن يثبتوها فيه بخط يدهم، أو أن يوضع في مكان كل منها دائرة هكذا ـ (. . .) تشير إلى الحذف مع التنبيه على الأحبار ومعلّمي المدارس أن يكتفوا بتلقينها للشباب والتلاميذ شفهياً، وبهذه الوسيلة نستطيع أن نصل إلى أهدافنا دون إثارة الأعداء حوالينا)[1].

وفي التعليق على مراحل طباعة التلمود وتطوّره يقول الدكتور (محمد

---

(١) (العدوان الثلاثي على مصر): سلسلة (اخترنا لك) رقم ٣١ طبع دار المعارف / القاهرة.

القصّاص) في بحثه المعنون بـ(الإسرائيليون وروح العدوان)[1]: وقد هذا القرار بحذافيره في الطبعات التي ظهرت بعد ذلك مثل طبعة (امستردام) لسنة ١٦٤٤ م و(فرانكفورت) لسنة ١٦٩٧، ١٧١٥، ١٧٢١ م و(ساليسباخ) سنة ١٧٦٩ و(براغ) سنة ١٨٣٩ و(فرسوفيا) سنة ١٨٦٣ م.

ولكن بالرغم من الحذف والتبديل والتغيير المتوالي فإن هذه الطبعات المختلفة التي يظهر فيها التلمود بلغات العالم العديدة لا يزال يذخر بالفضائح والشنائع المخجلة[2] والتي لا يمكن أن تقوم برهاناً على أنه في تراث إسرائيل في العهد القديم أو في شروحه يمكن أن يعثر الباحث على عقيدة تتصل بالإيمان بالله والتوحيد له.

(١) (المصدر السابق) بحث (الدكتور محمد القصّاص) المعنون (في هذا الكتاب الإسرائيليون وروح العدوان).

(٢) (الدكتور هلال فرحي) في كتاب (أساس الدين) يتناول التلمود بدراسة جادّة وموضوعية يتناول فيه مراحل تطوّر التلمود ويتميز بعمق النظرة والاستيعاب الشامل.

«أهمية التلمود عند اليهود»

هذا.. وقداسة التلمود في التراث الإسرائيلي القديم والحديث تكاد تكون بدعاً بين الأمم والشعوب بل أنها ظاهرة غير منطقية في تاريخ العقيدة الدينية الوضعية أو السماوية أن تتحوَّل الاجتهادات والتفاسير والتعاليم المنبثقة من مصدر مقدَّس إلى أهمية سياسية وقداسة دينية في وقت واحد ثم تفوق في أهميتها وقداستها والتعلّق بها المصدر الديني الأم لها والتي هي أصلاً من أجل تفسيره والعمل بأحكامه ذلك هو أمر التلمود بالنسبة للعهد القديم، فبينما هو في الأصل تعاليم (الحاخامات) ورجال الكهانة الدينية لأفكار وعقائد العهد القديم فإن أفكار العهد القديم وهي التي تتداول في عقيدة القوم ووجدانهم على أنها تعاليم الوحي على لسان الأنبياء قد أصبح حظها من التعلّق بها والارتباط بما فيها أقل كثيراً من التعلّق بأفكار وعقيدة التلمود وذلك ممّا تفصح عنه القرائن وتؤكده الشواهد من تحمّس وتعلق الجماعات اليهودية في إيمانها بتعاليم التلمود وتقديرها المفرط للقائمين على أمره، هذا ولقد عمل (الحاخامات) من اليهود على إذكاء روح الحماس والتعلق العاطفي والديني عند الجماعات اليهودية فراح واحد من الحاخامات يقول كما سجّل عنه اليهودي الذي ألّف الكتاب المسمَّى (كرافت) والذي طبع عام ١٥٩٠ م قول: (اعلم أن أقوال الحاخامات أفضل عند الله من أقوال الأنبياء) ومن قبله في عام ١٥٠٠ م قال أحد الحاخامات: إن من يقرأ التوراة بدون المشنا

والجمار) فليس له إله[1].

ولقد بلغ الغباء والتعصّب الديني العنصري عند القوم وهم يسجّلون تفاسير لعقيدتهم في العهد القديم حدا يفوق كل صور الخرافة (والأسطورة) فمن الأخبار التي احتواها التلمود عن قداسة وعظمة الحاخامات اليهود قوله: (. . . إن تعاليم الحاخامات لا يمكن نقضها ولا تغييرها ولو بأمر الله. وقد وقع الاختلاف يوماً بين الله وعلماء اليهود في مسألة، ـ تعالى الله ـ وبعد أن طال الجدل تقررت إحالة المشكلة إلى أحد الحاخامات الربانيين، واضطر الله أن يعترف بخطأه بعد حكم الحاخام المذكور)[2].

وليس الإسفاف والوثنية الدينية هو كل ما في جعبة القوم بين دفتي كتب التراث الإسرائيلي المقدس وخاصة في التلمود، وإنما يقول الحاخام (الرّابي مناحم) وهو من كبار الحاخامات. . (إن الله ـ تعالى الله عمّا يقوله الحاخام ـ يستشير الحاخامات على الأرض عندما توجد مسألة عويصة لا يمكن حلّها في السماء، وأنه يجب الالتفات إلى أقوال الحاخامات أكثر من الالتفات إلى شريعة موسى)[3].

ثم وبقدر ما في تعاليم التلمود من حثّ على التعصّب وإبرازه دعوى العنصرية اليهودية والقول بأفضلية ونقاء شعب إسرائيل، فإن فكر التأثر بالخرافة والأسطورة التي كانت لدى الشعوب الوثنية تشيع كثيراً في مضمون تعاليم التلمود ففيه فوق الحديث عن مذلّة اليهود وضياعهم وتفتتهم بين

---

(١) كنموذج على تأثير معطيات العقيدة الدينية التلمودية عند اليهود ذكر صاحب (الكنز المرصود في قواعد التلمود) حادثة الأب توما وخادمه إبراهيم عيمار اللذان قام اليهود بذبحهما في دمشق من أجل عمل (فطير) عيد الفصح بدمهما طبقاً لشريعة التلمود في تفسيرها لتراث العهد القديم. الحادثة ذكرها الدكتور (روهلينج) في كتابه بالفرنسية وقد ترجمه الدكتور يوسف حنّا نصر الله قد ذكرت الحادثة في صفحة ١١١ من الطبعة الثانية عام ١٩٦٨ م.

(٢) (الكنز المرصود في قواعد التلمود) دكتور (روهلينج) ترجمة يوسف حنّا نصر الله ـ الطبعة الثانية ص ٤٧ عام ١٩٦٨ م.

(٣) من نصائح الحاخام (روسكي المشهور): (التفت يا بني إلى أقوال الحاخامات أكثر من التفاتك إلى شريعة موسى). . . نقلاً عن كتاب الكنز المرصود في قواعد التلمود ص ٤٥.

الأجناس والأمم أن الله ـ تعالى الله ـ يندم على تركه اليهود في حالة التعاسة التي هم فيها حتى أنه يلطم ويبكي كل يوم فتسقط من عينيه دمعتان في البحر، فيسمع دويها من بدء العالم إلى نهايته، وتضطرب الأرض في أغلب الأوقات فتحصل الزلازل والبراكين.

وأما عن نظرة تعاليم التلمود لله أي الأساس الديني الذي تدور حوله أفكار الحاخامات فهو أن الله عندهم كما هو في بعض أسفار العهد القديم يخطىء ويضيب لا بل إنه عندهم هنا كثير الخطأ، وكثيراً ما يطلب إلى القائمين على أمر التلمود أن يغفروا له أخطاءه، وليست أخطاء الله تقع بينه وبين الذين اصطفاهم التلمود وجعلهم أكثر عصمة من خالقهم، بل إن الأخطاء التي نسبوها لله تعالى في التلمود وقعت منه في الكون الكبير حين خلقه ـ سبحانه وتعالى عمّا يلوكه التراث الإسرائيلي من إثم وخطيئة في الذّات العليّة ـ فهو قد أخطأ عندهم لكون القمر أصغر من الشمس وعن هذه الخطيئة كون القمر أصغر من الشمس تسجل فقرات التلمود أن حواراً حدث بين الله والقمر وأن القمر قال لله، أخطأت حيث خلقتني أصغر من الشمس فأذعن الله لذلك واعترف بخطئه وقال: اذبحوا لي ذبيحة أكفّر بها عن ذنبي لأني خلقت القمر أصغر من الشمس، ورغم أن هذا المعتقد الوثني الصرف الذي تفيض به تعاليم التلمود يدل على جهل بعلوم الفلك وبالنظريات العلمية عن الكون والتي كانت تحاول أن تتعرَّف على حركة الكون منذ القرن الأول الميلادي، فإن هناك من بين تعاليم التلمود دعوات عنصرية يلوك بها اليهود تراثاً متداولاً لا يملّون أبداً من ذكره والتحدّث به وهو يتعلّق بما تصوّروه عن أفضليتهم ونقاء عنصرهم ومن بين هذه الدعوات التي يبرزها فكر التلمود في عنصرية وثنية لا تنتمي إلى إيمان أو نبوّة: أن الإسرائيلي أفضل عند الله من الملائكة فإذا ضرب أممي أو اعتدى على إسرائيلي فكأنه ضرب العزَّة الإلّهية، ذلك لأن اليهودي حسبما تملي عليه عقيدة التلمود أنه جزء مادي من الله كما أن الابن جزء من أبيه، وعلى هذا فإنه إذا ضرب أممي إسرائيلياً (فالأممي) يستحق الموت لأن اليهود لو لم يخلقوا لانعدمت البركة من الأرض ولما خلقت الأمطار والشمس بل تقول

عقيدة التلمود وتعاليمه:

(ولما أمكن لباقي المخلوقات أن تعيش) ومن أجل هذا الامتياز المختار ـ والاصطفاء الذي لا يعقله غير دعاة العنصرية الإسرائيلية التي يفيض بها التراث الإسرائيلي ويبرزها هنا قويًّة فكر التلمود فإن الفرق بين درجة الإنسان العادي غير اليهودي وبين الحيوان هو الفرق بين اليهود وباقي الشعوب غير اليهودية (١).

ومن أجل هذه الدعاوى المتعصّبة، فإن العالم كلّه يصبح أمام مفتريات الأسفار اليهودية في التراث الإسرائيلي أقل درجة ومستوى من أصحاب هذا التراث ولذا يعمل اليهود بوحي من هذا التراث معظم مراحل تاريخهم باعتبارهم فئة قليلة وجماعة محدودة بين الشعوب لا تقوم إلا على تداول هذه الذكريات القائمة على العنصرية والعدوان.

---

(١) انظر: (الكنز المرصود في قواعد التلمود) وعند الفصل الخامس الخاص بأرواح اليهود والنصارى ص ٦٠.

الكتاب المقدس في الفكر الحديث

منذ العصر الوسيط والكتاب المقدس لم يعد أحد يملك حجب العقول عن أن تنظر بعين النقد وإبراز أوجه التعارض بين ما تضمنه ومعطيات التجارب في العلوم والمعارف، وكان من ثمرة انفتاح العقول على هذا النمط من التعارض القائم على كذب وتهافت الأخبار والمعارف التي تضمنها العهد القديم وجاءت معارف العصر الوسيط قد دحضتها وأبانت عن أوجه القصور فيها. ولم تقتصر الحرب بين مقررات الكتاب المقدس وقوانين البحوث العلمية بعد ذلك في العصر الحديث. بل خضع الكتاب المقدس لعملية نقد علمي هائلة، كان من أبرز رجالات العلم الحديث فيها: «جيمس فريزر» و«موريس بوكاي». ولم يكن هذين الرجلين هما كل ما في جعبة التناقض الذي بين ثنايا الكتاب المقدس والدراسات العلمية، بل منذ ظهر ما يسمى بفلسفة العصور الحديثة في المدرسة التجريبية والتي كان من روادها: بيكون، وهويس، وجامندي ولوك، والمدرسة العقلية والتي كان من روادها: (ديكارت) و (ملبرانش)، وسبينوزا، إلى المذهب الحسّي الممثل في المذهب الحسّي عند «كندلياك» والمذهب المادي الممثل في «هلغنيوس» والمذهب التصوري الممثل في «بركلي» والمذهب الإرتيابي في «هيوم» والمذهب الوجداني الممثل في «سميث» إلى الفلسفات الحرة عند: عمانويل كانت. وفخته، وهيجل، ولوتز، وشوبنهور، ونتشه، وستوارت ميل وداروين. منذ ظهور هؤلاء الفلاسفة واشتغالهم بما شغلوا أنفسهم به وهم يسقطون عائقاً من العوائق التي تحول دون وضع

الكتاب المقدس في موضعه المتهافت أمام النقد العلمي.

ومن أفضل ما اطلعنا عليه في التدليل على تهافت الكتاب المقدس. مقال علمي مسهب للكاتب الغربي: «تشارلس وطس» والذي عنون له تحت هذا العنوان الخلاب. «أضرار تعليم التوراة والإنجيل»، وللإستعانة بأفكار البحث في التدليل على فساد المقومات الأساسية للكتاب المقدس نأتي على أساسيات المقال بالرغم من أن الكاتب المفروض فيه: أنه واحد من أتباع الإنجيل. لكنه أمام تهافته وسقيم معطياته، لم يملك إلا أن يقول:

إنا لا نود تعظيم التوراة فوق ما تستحق ولا نريد وضعها أسفل سافلين أكثر مما تستوجب، وإنا نعترف أنه قد يوجد فيها بعض تعاليم حسنة لكنها مطموسة بغيوم فروض مضرة ماحية لأثر تلك التعاليم العادلة وما فيها من الكلام البذيء الخشن قد صيرها غير صالحة للدراسة بين الناس ولا يخفى أن بهاء التهذيب والتعليم متعلق بالآداب. ولذلك نرى كتب القصص والروايات تروج وتقدر قدرها لدى العلاقات بقدر ما تزدان به من حلى الآداب بخلاف القصص الدنيئة السافلة وهكذا التوراة فإن كانت خسيسة فيما تأمر به وغير صادقة فيما ترويه فلا يمكن أن نقبلها على أنها الأساس لتهذيب الأخلاق ومن ضروريات الأدب أن تكون مواده بينة صادقة سهلة الاستعمال لا مستحيلته خصوصاً متى كان العذاب الأليم يوم الدين بالمرصاد لمن يخالف الأوامر كما هو نص التعاليم النصرانية فكان الاحتياج إلى السلوك الأدبي الخالي من المعايب ضرورياً في الكتاب الذي هو للدين أصل وأساس.

ولا يخفى أن آداب التوراة وفروضها ناقصة متناقضة لا يمكن العمل بها وفي الفصل الواحد تبيح ثم تحرم ما قد أباحته ثم تبيحه ونراها ناقشت الحساب أحد الرجال المذكورين فيها لأنه كان ذا قلب لا يرى استئصال أعداء آله ونراها مدحت رجالاً آخرين من المذكورين فيها لأنهم قاموا بفروض استئصال أعداء هذا الكتاب من رجال ونساء وأطفال ولقد قيل في هذا الكتاب «لا تقتل» بل كن محباً للإحسان فهل القتل والاستئصال من دلائل

هذا الحب المذكور فيها ولقد وعدت: المحافظين على السبت أجراً عظيماً ثم رجعت عن ذلك وأذاقتهم أشد العذاب ومزقتهم كل ممزق وأبطلت قصاص العاتي الكَفَّار وأنعمت عليه بالغفران.

أمرتنا التوراة بأن يحب بعضنا بعضاً ثم رجعت وأمرتنا بأن نبغض حتى جسدنا ودمنا. أمرتنا بأن نسعى وراء تحصيل معاشنا في الدنيا ثم نسخت ذلك وأمرتنا بالكسل والإهمال،حرمت علينا تمني ما بأيدي الناس أو اشتهاءه ثم أباحته وعلى هذا النمط منسوجة أوامرها فهي والحالة هذه خالية من الفروض الأدبية.

ومن جملة الاعتقادات الأصلية التي لقنها النصارى من فم التوراة واستحكم فيهم أمرها هو أن أصل الفضيلة «الإيمان» لا العمل الصالح وأن اضطهاد وظلم غير المسيحيين حلال ومحتم وأما نحن فنقول إن أعظم واجبات الأبوين وأهمها نحو أبنائهم منع التعاليم الخبيثة كيلا يصبح التوحش فيهم طبيعة إذا كان دين الأبوين يأمر بالمنكر وهذا خير درس تشب عليه الأطفال فتحمد عافيتهم ويرجى منهم الخير لأبناء جنسهم «بني آدم» أما التوراة فلا تحض إلا على عكس هذا المبدأ الشريف وأغرب من ذلك أن التعاليم المسيحية تحرم شكر من يعمل من المعتقدين فيها عملاً صالحاً من قبل أن يعلم أن عمله لإله التوراة خاصة فإن كان عمله حباً ببني آدم فلا يقبل منه ولا يجوز شكره لأن العمل الصالح المعمول حباً وإخلاصاً للناس يعد عندهم ذنباً عظيماً وإذا أسرف في القتل والنهب والجور والسرقة حباً في إله التوراة يعد عمله صالحاً مبروراً وهذا الذي جعل الكذب والبهتان من الكمالات النصرانية على أنه من الوسائط المقوية للكنيسة. وحق الحق أن الكتاب الذي يعلم كما جاء بإنجيل متى الإصحاح ٢٠ العدد ١٦ بأن «كثيرين يدعون وقليلين ينتخبون» لا يعين تعليمه على تعظيم سعادة الإنسان، إنما يؤدي تعليمه إلى العداوة والبغضاء بين الأخ وأخيه وما كان سبب الشرور بين رجل وآخر من جهة الدين إلا تعليم «التوراة»،وإذا تدبرنا ناموس المحبة الطبيعية

رأيناه نـقياً طاهراً ونرى بموجبه أن أهم واجباتنا محبة الناس كافة ولا يجوز لنا الرجوع عن ذلك إلا متى بان لنا أن الصحبة قد وضعت بغير مكانها بأن تأتي عنها ازدراء فيجب عند ذلك إظهار الانقلاب صونـاً للنفس من الإهانـة كالشرائع المدنية اتخذت لـدفع النـاس بعضهم عن بعض ومتى كان دين الإنسان يأمره باضطهاد أبناء غير ملته كان من الواجب علينا أن نكون بغاية الاحتراس منه فإن التجارب قد علمتنا ما لتلك التعاليم الوحشية من السلطة على الأخلاق ومتى كان اعتقاد الإنسان بأمور دينه لا يمس أخلاقه بسوء فلا يجب أن نبغضه لأن اعتقاده يعد لدينا باطلاً وما دامت الأخلاق سليمة فلا يجوز لنا أن نكرهه أو أن نغالي بحبه أما التوراة فتعلمنا عكس هذا وتأمرنا بأن نحب من يؤمن بها مطلقاً وأن نبغض من يكفر بها وإن كان ذا أخلاق خير من أخلاق المؤمن بها.

يقولون إن أساس المواد الأدبية في التوراة هي الوصايا العشر وأنه ليس في الإمكان أن ينتقد عليها وهذه الوصايا مذكورة في سفري الخروج والتثنية ولكنهما يختلفان اختلافا بيناً ويقولون، إن موسى (عليه السلام) أتانا بهذه الوصايا «بعد ما كلم ربه وجهاً لوجه» مكتوبة على لوح من الحجر وعن هذا اللوح نقلت إلى سفر الخروج في الإصحاح ٢٠ لنفع الناس ويقولون إنه كتبها ثانياً في سفر التثنية الإصحاح الخامس وأنه بهذا الموضع أملاها من ذاكرته لا عن اللوح الحجري وكان ذلك الإملاء في شيخوخته فلا عجب من التحريف الكائن ما بين النصين. ويليق بنا أن نسأل النصارى بيان وجوه التحريف والتبديل في أهم الأمور الدينية المذكورة في كتبهم المدعوة إلهامية.

وتقسم هذه الوصايا إلى قسمين أحدهما يبين واجبات الإنسان نحو خالقه والثاني يبين ما على الإنسان من الواجبات نحو أبناء قومه ويليق بنا تنبيه القارىء اللبيب إلى أمر مهم وهو أن القسم الثاني يحتوي على ستة فروض والقسم الأول يحتوي على أربعة فروض غير أن القسم الأول الذي هو أربعة فروض أطول من الثاني بكثير وإذا أمعنا النظر نرى أن الوصية الثانية والثالثة

والرابعة من القسم الأول إعادة وتكرار للوصية الأولى ويمكن الاستغناء بها عنهن فقوله: «لا يكن لك آلهة غيري» يعم الثانية الناهية عن عبادة الأصنام وكذلك الثالثة الناهية عن السجود لهن وكذلك الرابعة فبهذه الوصايا نرى القول بخصوص ما علينا من الواجبات نحو خالقنا كثيراً وأما الذي هو بخصوص ما علينا من الواجبات نحو بعضنا بعضاً فقليل غير مفيد وجاء في الوصية الثانية ذكر الخلة التي امتاز بها إله النصارى وهي الغيرة والحقد كما سنرى.

لقد منعنا بموجب نص الوصايا العشر من عمل الأصنام ثم السجود لها ونعم الأمر وإننا من صميم الفؤاد نقبله لكن لم هذا النهي في التوراة هل هو لكون عبادة الأصنام تحقيراً وازدراءً بقدر الإنسان العاقل وإخماداً لنور قلبه؟ كلا ليس من أجل ذلك بل هو لغيرة عندهم كما قالت التوراة وهو أن إلهها إله غيور يفتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضيه، فلو قال لا تسجد للأصنام ولا تعبدها إني إله كريم محسن خلقتك مكرماً فلا تنجس نفسك ولا جسدك بعبادة الأصنام أنا الذي صورتك وبيد التكريم حافظك فلا تذل نفسك بعبادة أوثان لا تغني عنك شيئاً لكان قوله يأخذ بمجامع القلوب ويؤثر فيها أكثر مما جاء بهذا الكتاب من سفر التكوين حتى سفر الرؤيا الخرافية.

قال في الوصايا «لا تقتل» ولم يزد على ذلك كلمة واحدة كما فعل بخصوص عبادة الأوثان ووعيد من يأتيها وقال في الوصية الخامسة «أكرم أباك وأمك» فهذه وصية لو خلت من معايب التوراة لكانت تأخذ بالألباب لأن فضل الأبوين عظيم لا يجحده إلا من سفه نفسه وليس لنا على كلمة «أكرم أباك وأمك» اعتراض إنما اعتراضنا على ما وعدت به التوراة من طول العمر لمن يكرم أبويه حتى أصبح إكرامهما لعلة وهو طول العمر وكم من الأولاد النجباء البارين لوالديهم أتاهم ريب المنون وهم في نضارة الشباب وكم من ولد شقي عاق لولديه عاش دهراً طويلاً صرفه بإغاظتهما وإهانة نفسه فكان

حسرة على والديه فأين ما وعدت به التوراة من طول العمر وإننا ننادي على رؤوس الأشهاد «يا أيها الأولاد بروا والديكم وأكرموهم ليس من أجل أطماع كطول العمر وغيره كلا بل ليكن ذلك منكم إجلالاً وإكراماً لهم ومن منكم ينسى كيف ربياه صغيرا مدسنين لما كان لا يقدر أن يعمل شيئاً فشكرهما واجب وبرهما فرض ليس من أجل طول عمر أو نقصه كما قالت التوراة التي ما جاءتنا بوصية حسنة إلا وحفتها بالجهل فأهم واجبات الولد نحو أبويه شكرهما وإطاعتهما».

أما الوصية السادسة والسابعة والثامنة فلا نقول عنها سوى أن رجال التوراة الأبرار قد كانوا أول الناس مخالفة لها (كالسرقة والزنا والسكر والكذب وما شاكل ذلك) وما زال المعظمون للتوراة ينادون أن أساس تعليمها الأدبي هو الحب مع أنه إذا عومل بنو آدم بحسب قانونها الحبي في هذا العصر لما بقي أحد ينادي بهذه المحبة.

ولقد جاء بالوصية التاسعة «لا تشهد على قريبك بالزور» فلم جاءت التوراة بكلمة قريبك أما هو على الحد سواء قباحة إذا شهدنا زوراً على الغريب كما لو شهدناه على القريب فهذا الكتاب «التوراة» لا يعلم الخير وحسن المعاملة لنيل الحياة الطيبة.

اعلم أيها القارىء الفاضل أن المحبة المبنية على تعاليم التوراة تأمر بقتل أهل المدن كافة. انظر سفر تثنية الاشتراع الإصحاح العشرين في العدد العاشر إلى السادس عشر وإليك نصه «حين تقترب من مدينة لتحاربها استدعها إلى الصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك. وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك وهكذا تفعل بجميع المدن البعيدة جداً منك التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا وأما

مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما».

هذا هو مثال المحبة المتفاخر بها عندهم.

وأخلاق المسيح المذكورة بالتوراة لم تعلمنا الحب بل عكسه فهو القائل كما جاء بإنجيل متى الإصحاح العاشر العدد ٣٣ «ولكن من ينكرني قدام الناس أنكره أنا أيضاً قدام أبي الذي في السموات» وزاد على ذلك ما جاء بإنجيل لوقا الإصحاح التاسع عشر العدد ٢٧ «أما أعدائي أولئك الذين يريدوا أن أملك عليهم تأتوا بهم إلى هنا واذبحوهم قدامي».

فهل بعد هذا ثم من دليل على تعليم هذا الكتاب للبغض وغيره ثم أما يعاب على المسيح أن يقول مثل هذا الكلام ختاماً لما يضربه من الأمثال تعليماً لتلاميذه وكم من مثل ضربه للناس ظاهره يخالف باطنه وانظر كيف كان التلاميذ يسألونه عن ألغازه وأحاجيه وكيف كان يجيبهم كما جاء في إنجيل مرقص الإصحاح الرابع من العدد ١١ إلى ١٢ (فقال لهم قد أعطي لكم أن تعرفوا سر ملكوت الله وأما الذين هم من خارج فبالأمثال يكون لهم كل شيء لكي يبصروا مبصرين ولا ينظروا ويسمعوا سامعين ولا يفهموا لئلا يرجعوا ويتوبوا فتغفر لهم خطاياهم). فهذا دليل على المكر والانحياز المقصود وليكون له ما يتمناه اختار التعليم بضرب أمثال غامضة غير مفهومة ويعد مثل هذا التعليم بزماننا ضرراً وخديعة ولا يوافق إلا عصراً كان فيه وحي التوراة على أناس مخصوصين قد أوحي إليهم ما جاء في رسالة تسالونيكي الثانية الإصحاح الثاني العدد ١١ و١٢ «ولأجل هذا سيرسل إليهم الله عمل الضلال حتى يصدقوا الكذب لكي يدان جميع الذين لم يصدقوا الحق بل سروا بالإثم».

أمرنا بأن نكون مقدسين أبراراً كالله لكن أتعلمون ما هو هذا التقديس في عرف التوراة هو أن يأتي الإنسان الكذب والخديعة والقتل إذا أدرنا الطرف نحو الإصحاح العاشر من سفر الملوك الثاني ونرى من هم أحباب إله التوراة

وما هي أعمالهم ففيه ما عمله (ياهو) ببيت أخاب وقتله جميع أولاده وعدتهم سبعون وكل ذلك حسن في عين الرب. ولما صار (ياهو) ملكاً على إسرائيل كان أول أعماله الإسراف بالقتل وتاريخ حياته كناية عن تاريخ سفك الدماء بطرق متعددة ولما عزم على إهلاك بيت أخاب باشر ذلك بطريقة لا يقدر عليها أحد سوى رجال التوراة الأبرار فإنه شرع بقتل من توهم أنهم سيكونون مانعاً دون إتمام مقاصده ومن بعد ذلك جاء إلى السامرة عازماً على قتل عبدة البعل، وكيلا يفلت منهم أحد ادعى أنه جاء ليعبد البعل ويقرب له الذبائح فتمكن بمكره من قتل الجميع بحد السيف ولما أتم عمله أتاه وحي تلك الأيام المقدسة «وقال الرب (لياهو) من أجل أنك قد أحسنت بعمل ماهو مستقيم في عيني وحسب كل ما في قلبي في بيت أخاب فأبناؤك إلى الجبل الرابع يجلسون على كرسي إسرائيل».

ولقد ازدانت التوراة بإداء صموئيلها المرضية لما أتاه وحي تلك الأيام بأن يتخذ الكذب ديدناً. انظر سفر صموئيل الأول الإصحاح السادس عشر من عدد واحد إلى الاربعة وهو: «فقال الرب لصموئيل حتى متى تنوح على شاول وأنا قد رفضته من أن يملك على إسرائيل، إملأ قرنك دهناً وتعال أرسلك إلى يسي البيتلحمي لأني قد رأيت لي في بيته ملكاً فقال صموئيل كيف أذهب إن سمع شاول يقتلني فقال الرب خذ بيدك عجلة من البقر وقل قد جئت لأذبح للرب وأدع يسي إلى الذبيحة وأنا أعلمك ماذا تصنع وامسح لي الذي أقول لك عنه» فأخبرونا أمن الأدب أن يكون الإنسان كذاباً سفاكاً للدماء وإلا فلم تدعون الناس إلى اتباع من دأبه إتيان المنكرات.

ولتعلم ما هي حقيقة آداب التوراة فما علينا إلا أن نقرأ الإصحاح الثلاثين والواحد والثلاثين من سفر التكوين حيث نرى مثال الغش والخديعة والسرقة. انظر الإصحاح الثاني والثلاثين من سفر الخروج ترَ مثالاً من غضب موسى واستباحته سفك الدماء وانظر الإصحاح السادس والثامن والعاشر من سفر يشوع بن نون ترَ كيف قتل هذا البار ألوفاً من الرجال والنساء والأطفال

وانظر سفرا صموئيل الثاني الإصحاح الثاني عشر من عدد ١١ إلى ٣٢ وغيره مما يتعلق بداود [حاشا لنبي الله داود أن يقع في خطيئة الزنا] تراه زانياً سفـاكاً للدماء ومع ذلك نقرأ في سفر الملوك الأول الإصحاح الرابع عشر العدد الثامن ما معناه أن داود عمل بحسب ما هو كائن بقلب الرب فهذه آداب التوراة التي تحرمها الآداب الدنيوية والآداب الفلسفية. [لا يزال الكلام في أضرار التوراة والإنجيل للكاتب الإنجليزي «تشارلس وطس»].

وفروض التوراة وأحكامها تجوز الاستعباد إلى النهاية إذ تبيح بيع الرجال والنساء كما تباع البهائم ولقد جعلت بأحكامها الفقير عبد الغني والقوي وجاء في سفر الخروج الإصحاح الحادي والعشرين من عدد ٢ إلى ٦ «إذا اشتريت عبداً عبرانياً فست سنين يخدم وفي السابعة يخرج حراً مجاناً إن دخل وحده فوحده يخرج إن كان بعل امرأة تخرج امرأته معه «إن أعطاه سيده امرأة وولدت له بنين أو بنات فالمرأة وأولادها يكونون لسيده وهو يخرج وحده ولكن إن قال العبد أحب سيدي وامرأتي وأولادي لا أخرج حراً يقدمه سيده إلى الله ويقربه إلى الباب وإلى القائمة ويثقب أذنه بالمثقب فيخدمه إلى الأبد». فهذه شريعة ليس بعدها ظلم.

إذا كان العبد وحيداً وتزوج عند مولاه ورزق أولاد قبل انتهاء سني العبودية يخرج وحيداً تاركاً أولاده عبيداً لمولاه مع أمهم يفعل بهم ما يشاء. وأأسفاه كيف تصبح حالة ذاك الرجل المسكين يفصل عن زوجته وأولاده وهم حياة روحه أيتركهم وحبهم يفتت كبده لينال الإعتاق؟ فإذا كان حبه لأولاده وزوجته أكثر من حبه للإعتاق كان البلاء له بالمرصاد لأن التوراة فرضت على كل من كان مثل هذا المسكين بأن يؤتى به إلى الحاخام ليثقب أذنه بمثقب علامة القضاء عليه بالعبودية ما دام حياً هو وأولاده وزوجته. ثم لم تثقب أذنه؟ لعلها تثقب ليذوق جسده بعض الآلام التي ذاقتها روحه.

ثم ليخبرونا أي مبدأ أدبي أو أي مثال نافع دنيوي في قول التوراة بسفر التثنية الإصحاح الرابع عشر العدد ٢٦ «وأنفق الفضة في كل ما تشتهي

نفسك في البقر والغنم والخمر والمسكر وكل ما تطلب منك نفسك وكل هناك أمام الرب إلهك وافرح أنت وبيتك» تدبروا هذا الكلام الآمر باستباحة الرذائل وليس له عن ذلك انفكاك ما لم يصر الكلام بغير معنى.

«افتقاد العنصر الأخلاقي في العهد القديم»

ولقد أبت التوراة إلا الإيقاع بسعادة الإنسان بتعاليمها فإنها تسعى وراء إطفاء نور المودة وتأمر بالقسوة ـ تأمر الإنسان بقتل زوجته إذا راودته على ترك التوراة وتعاليمها انظر سفر التثنية الإصحاح الثالث عشر من العدد ٦ إلى ٩ «وإذا أغواك سراً أخوك ابن أمك أو ابنك أو ابنتك أو امرأة حضنك أو صاحبك الذي مثل نفسك قائلاً نذهب ونعبد آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك من آلهة الشعوب الذين حولك القريبين منك أو البعيدين عنك من أقصاء الأرض إلى أقصائها فلا ترض منه ولا تسمع له ولا تشفق عينك عليه ولا ترق له ولا تستره بل قتلاً تقتله» الخ فأي رجل يقدر على إطفاء نور وده ليكون عاملاً بهذا التعليم الوحشي الذي كان سبباً لشقاء عائلات لا تحصى ولقد أمرتنا بما هو أدهى وأمر. انظر إنجيل مرقص الإصحاح العاشر من عدد ٢٨ إلى ٢٩ وبعض ٣٠ وهو «ابتدأ بطرس يقول له ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك فأجاب يسوع وقال الحق أقول لكم ليس أحد يترك بيتاً أو أخوة أو أخوات أو أباً أو أماً أو امرأة أو أولاداً أو حقولاً لأجلي ولأجل الإنجيل إلا ويأخذ مائة ضعف» فهذه أوامر قد كانت سبباً لإنفكاك عقدة الحب بين الأهل وتشتيت شمل الأخوة والأخوات من بيوت آبائهم لأنهم راموا إنقاذ نفوسهم من أغلال هذا الكتاب.

والمقصود من كلمة آداب «هو كل ما يزيد سعادة وترقي نوع الإنسان فبأي تهذيب أم أي نفع في قول إنجيل متى الإصحاح السادس العدد ٢٥» لا

تهتموا لحياتكم» والإصحاح الخامس العدد ٣٩ «لا تقاوموا الشر» أي لا تمنعوا الشر وقول لوقا الإصحاح السادس العدد ٢٠ «طوباكم أيها المساكين» ثم قوله كذلك في غير موضع من الإنجيل «لا تشتغلوا من أجل الخبز الذي يفنى» وغير ذلك مما لو راعيناه في هذا العصر لكانت نواميس حفظ الصحة وحرية الضمير والفوز السياسي الذي نرتع فيه الآن ثاني المستحيلات وهذا الإصلاح من ثمر أعمال رجال ونساء أخيار نبذوا التوراة ظهرياً واتخذوا عوضها حقائق الأمور الطبيعية.

وفي رسالة كولوسي الإصحاح الثالث العدد الثاني «اهتموا بما فوق لا بما على الأرض» وفي رسالة يوحنا الأولى والإصحاح الثاني العدد ١٥ «لا تحبوا العالم ولا الأشياء التي في العالم» وفي إنجيل متى الإصحاح السادس العدد ١٩ «لا تكنزوا لكم كنوزاً على الأرض» فلم خلقنا على الأرض ليست هذه التعاليم هي التي تصير الإنسان خمولاً كسولاً عديم الإعتناء بالأشياء؟.

أما الاضطهاد بسبب عدم الإيمان بشيء من التعاليم النصرانية خصوصاً التصورية منها فمخالف لمبادىء العدالة والإنصاف ولذلك نقول: أأمرت التوراة باضطهاد من لا يؤمن بها ومن يرفض تعاليمها أم لم تأمر بذلك؟ فإن قيل نعم قد أمرت نقول أليس من المحتم إصلاح تعاليمها لأن الإيمان بصدق فروضها وتعاليمها هو اعتراف من الناقد بوجود حجج تثبت الإضطهاد والإكراه على الدين؟ وأما إذا كانت الحجج أو الدليل مفقوداً فعدم الإيمان موجود وليس لهذه الحالة انفكاك قط إلا عند المنافق المرائي.

وفي التوراة أمور جمة لا يقبلها العقل بل يقضي بردها ورفضها والإنجيل يعد من كان هذا حاله بالعذاب الشديد وإليك بيانه: جاء في إنجيل متى الإصحاح العاشر من العدد ١٤ إلى ١٥ «ومن لا يقبلكم ولا يسمع كلامكم فاخرجوا خارجاً من ذلك البيت أو من تلك المدينة وانفضوا أغبار أرجلكم، الحق أقول لكم ستكون لأرض سدوم وعمورة يوم الدين حالة أكثر احتمالاً مما لتلك المدينة» فحالة العذاب الموعود به من يشك بتعاليمها

ظاهرة لا يلزمها تفسير أما نفض غبار تراب المحل الذي لم يقبل أهله التلاميذ فلا يفهم ما لم نفحص عن عادات الشرقيين. قال الكتاب الذين كتبوا عن الشرق وعادات أهله في مثل هذا العمل إشارة للبغض الشديد. وجاء في إنجيل يوحنا الإصحاح الخامس عشر العدد ٦ «إن كان أحد لا يثبت في يطرح خارجاً كالغصن فيجف ويجمعونه ويطرحونه في النار فيحترق» وجاء فيّ رسالة تسالوينكي الثانية الإصحاح الأول العدد ٧ ـ ١٠» «وإياكم الذين تتضايقون راحة معنا عند استعلان الرب يسوع من السماء مع ملائكة قوته في نار لهيب معطيا نقمة للذين لا يعرفون الله والذين لا يطيعون إنجيل ربنا يسوع المسيح الذين سيعاقبون بهلاك أبدي من وجه الرب ومن مجد قوته متى جاء ليتمجد في قديسيه» وجاء في إنجيل مرقص الإصحاح السادس عشر العدد ١٦ «ومن لم يؤمن يدن» (أي يهلك) وقال بولس في رسالة غلاطيه الإصحاح الأول العدد ٩ «إن كان أحد يبشركم بغير ما قبلتم فليكن أنا ثيما» (أي ملعوناً) وقال المذكور أيضاً في رسالة تيموثاوس الأولى الإصحاح السادس العدد ٣ و ٤ «إن كان أحد يعلم تعليماً آخر ولا يوافق كلمات ربنا يسوع المسيح الصحيحة والتعليم الذي هو حسب التقوى فقد تصلف وهو لا يفهم شيئاً بل هو متعلل بمباحثات ومماحكات الكلام التي منها يحصل الحسد والخصام والإفتراء والظنون الرديئة» وقال أيضاً في الرسالة المذكورة الإصحاح الأول العدد ٢٠ «اللذان أسلمتهما للشيطان لكي يؤدبا حتى لا يجدفا» هذا كله نصيب من لا يؤمن بالتوراة مع ما هي عليه وهذا هو السبب في سفك الدماء كما هو مصرح بتاريخ الكنيسة وما قد قاساه المدعوون هراطقة عند النصارى خير شهيد.

ويدعي النصارى أن التوراة ضرورية لتهذيب وتعليم الأمم جميعاً ثم يعترفون بوجوب تعليم الإنسان ما عليه من الواجبات في الحياة الدنيا ويقولون إن أمامهم أمر مهم جداً وهو الإستعداد لحياة مستقبلة بعد القبر وأنه يوجد مدينة يعوذون بها متى وصلوها سالمين من أخطار سفر الحياة الدنيا ويدعون نهم مقتنعون بأن التوراة دليل يقودهم سالمين إلى ذلك المكان الأمين مدة

سيرهم في سفن الحياة المتقلبة بين أمواج الحوادث الدنيوية.

ويعتمدون على هذا الكتاب في النجاة زاعمين أن من تمسك بهديه لا يهلك كأنه لا ريب فيه مع أنا إذا تدبرناه بأن لنا أسباب جمة مهمة تجعلنا في ريب من قول النصارى ودليلهم الذي هو التوراة وعدم صلاحيتها لأن تكون دليلاً هادياً ليس لكونها يناقض بعضها بعضاً فقط أو لقلة ما فيها من المواد كلا إنها تحكي لنا تاريخ تكوين الدنيا ثم سقوط آدم ثم تاريخ شعب إسرائيل منذ ابتداء نشأتهم حتى صاروا أمة مستقلة ثم تعدد شرائعهم الدالة على ما يجلب العمل به بركات السموات والأرض وما يجلب العمل به الانتقام. وفيها بعض تلميحات عن تاريخ الأمم السالفة وانقراضهم بسبب ذنوب اقترفوها ويتبع ذلك تاريخ حياة أيوب ثم المزامير ثم المراثي والشقاء الذي أحدق بأنبياء التوراة ثم الأناجيل الأربعة المذكور فيها تاريخ حياة المسيح وهي متناقضة ثم الرسائل وهي كناية عن تاريخ الكنيسة وأحوالها في أول عمرها وختام ذلك كله الرؤيا الخرافية المنسوبة ليوحنا اللاهوتي فكل إنسان يكل دون اكتشاف مواد من كتاب كبير حجمه بهذا القدر لتكون له دستوراً يسير بموجبه والنتيجة أن كل مواده عديمة النفع.

ولدى تعظيم التوراة على أنها الدليل على الكمال يدخل معها العهد الجديد أيضاً وكلاهما مجموعان بجلد واحد ككتاب واحد بين أيدينا يدعوه النصارى (كلمة الله) وهنا لنا معهم سؤال مهم وهو إن كانت معرفة التوراة برمتها ضرورية لتوقف نيل السعادة الأبدية عليها كما قال يوحنا المعمدان فلم فقد منها كتب عديدة عليها مدار السعادة الأبدية؟ وإذا كانت شهادة التوراة على نفسها مقبولة لديهم يكون ما بين أيدينا جزءاً صغيراً من كتاب كان يدعى في الأيام الخالية (توراة) فإنا نراها نقلت في سفر الأعداد كلاماً من سفر اسمه «سفر حروب الرب» وجاء في سفري القضاء وصموئيل اسم كتاب يدعى «سفر ياسر» وجاء في سفر تثنية الاشتراع اسم كتاب يدعى «سفر أخبار ملوك يهوذا» وجاء كذلك اسم كتاب يدعى «سفر أخبار ملوك إسرائيل». وجاء كذلك

اسم كتاب يدعى «سفر ناثان النبي» وجاء كذلك اسم كتاب يدعى «سفر جاد الرائي» فكيف يعملون لنيل الكمال وليست هـذه الكتب موجـودة؟ واعجباً مع فقدان هذه الكتب العديدة نرى النصارى يتفاخرون بـأن يد العناية قد حفظت لهم كتبهم من الضياع بطريق معجز. وكذلك هذا القسم الباقي المدعو توراة مملوء بالأغلاط والتحريف بقدر جعـل كبار علمـائهم المتفاخرين بآدابها يعترفون أنه موجود بالتوراة أمور كثيرة لا يمكن اتباعها أو الدفاع عنها ومع ذلك لم تزل حتى الآن شرذمة قليلة تنادي بإلهامية هذا الكتاب وتقف موقف الدفاع عنه.

ومما مر يبدو لنا سؤال مهم جداً من تلقاء ذاته بغير تعرض له وهو: أيجب علينا أن نعتقد بأن العهد القديم «كلمة الله» أم لا؟فإن قيل نعم وجب علينا عملاً بما يفترضه دين النصارى القيام بجميع فروضه كالعهد الجديد تماماً وإن قيل لا وكان ذلك غير واجب فلمـاذا يعلم حتى بطرق الجـور والاضطهاد على أنه كلمة الله. وقد قالوا إن كتب العهـد القديم مفيـدة للتهذيب غير أنها دون كتب النصارى. وهنا اعتراض آخر فيه نظر فالعهد الجديد مؤسس على العهد القديم وكثيراً ما يستشهد بآياته إثبـاتاً لمدعاه على أنه غير مخالف للعهد القديم الذي كتبته أنامل القديسين لخيرنا وتعليمنا، والمسيح نفسه قد قال كما جاء بإنجيل متى الإصحاح الخامس من عدد ١٧ إلى ١٩ «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لانقض بل لأكمل فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناموس هكذا يدعى صغيراً في ملكوت السموات وأما من عمل وعلم فهذا يدعى عظيماً في ملكوت السموات فانظر كيف أن المسيح نفسه حضنا على العمل بموجب العهد القديم. وقال أيضاً كما جاء بإنجيل متى الإصحاح ٢٣ العدد ٢ و٣ «على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون فكل ما قالوا لكم أن تحفـظوه فاحفـظوه وافعلوه ولكن حسب أعمالهم لا تفعلوا لأنهم يقولون ولا يفعلون».

ومن جملة الحكايات الكثيرة عند النصارى هذه «مرة سأل أحد الرجال امرأة عجوزاً أمية عن الفرق الذي بين العهدين فأجابته إن العهد القديم هو الإنجيل مستوراً والعهد الجديد هو العهد القديم مكشوفاً» ولقد ذكر هذه القصة أكثر كتاب النصارى حجة على أن الكتابين كتاب واحد فهذه كلها دعاوٍ باطلة لأننا نرى أعظم الاختلاف بين الإنجيل والتوراة ولنضرب لذلك مثلاً: علم موسى بوجوب القصاص وأن ذلك من أهم الواجبات فجاء المسيح وحرم ذلك. أمر موسى بقتل الظالم أما المسيح فأمر بأن نباركه. قالت الكتب القديمة إن سعادة الإنسان منوطة بأعماله الصالحة وأن الأعمال الشريرة تجلب غضب الله وانتقامه وأما كتب العهد الجديد فتقول بالإيمان فقط فتدبر.

والدليل على عدم لياقة التوراة بأن تكون مرشداً قد قال به أناس يدعون (النصارى الأحرار) وهم ذوو علم فاقوا على كثيرين من أبناء ملتهم قد رفضوا الاعتقاد بأن جميع ما فيها حق لا ريب فيه ولا يرونها إلا كأحد الكتب التي يؤلفها الناس وعليه نقول إذا لم تكن التوراة معصومة من الغلط فهي إذا من عمل الناس وليس لها علينا أدنى سيطرة أكثر مما تدعونا إليه آدابها ككتب الناس فإذا كان هذا هو حالها أيليق بأولئك الكتاب الأحرار أن يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض خصوصاً بعد اعترافهم بمعايبها فإن ما يؤمنون به يكفر به غيرهم من طوائف النصارى وعلى هذا النمط يعامل هذا الكتاب بينهم حتى لا يبقى منه إلا القليل جداً مما اتفقوا عليه أنه موحى فعند أي قياس نقف؟ أنقبل دعوى الأبروتستانت أم دعوى الكنيسة الكاثوليكية أم نفحص ذلك من موقف المثلثين أم من موقف موحدي النصارى أم ماذا؟ فإذا كانت التوراة مرشداً أميناً يعتمد عليه يجب أن تكون جميع فروضها خالية من نقائص النقض.

ولقد قالت بأن الله عليم موجود في كل مكان ثم قالت في سفر التكوين الإصحاح ١١ العدد ٥ «فنزل الرب لينظر المدينة والبرج الذين كان بنو آدم يبنونهما» وقالت في السفر ذاته الإصحاح ١٨ من عدد ٢٠ إلى ٢١

«وقال الرب إن صراخ سِدوم وعمورة قد كثر وخطيتهم قد عظمت جداً أنزل وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخها الآتي إلي وإلا فاعلم» علمتنا بأن الله لا يغير وعده ثم وصفته لنا بأنه كثير الندم وتقلب الأفكار ففي سفر التكوين الإصحاح السادس العدد ٦ «فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه» وفي سفر صموئيل الأول الإصحاح الخامس عشر عدد ١٠ و ١١ «وكان كلام الرب إلى صموئيل قائلاً ندمت على أني قد جعلت شاول ملكاً لأنه رجع من ورائي ولم يقم كلامي» وفي سفر الأعداد والإصحاح الثاني والعشرين عدد ٢٠ و ٢١ «فأتى الله إلى بلعام ليلاً وقال له إن أتى الرجال ليدعوك فقم واذهب معهم إنما تعمل الأمر الذي أكلمك به فقط . . . فقام بلعام صباحاً وشد على أتانه وانطلق مع رؤساء مؤاب» ثم قال في العدد الثاني والعشرين أي عقيب ما تقدم «فحمى غضب الله لأنه منطلق» مع إنه لم ينطلق إلا بأمر من إلّه التوراة.

علمتنا بأن لا يراه أحد من البشر ثم جاء في سفر التكوين الإصحاح الثاني والثلاثين العدد ٣٠ «فدعا يعقوب اسم المكان فنيئيل قائلاً لأني نظرت الله وجهاً لوجه» وجاء في سفر الخروج الإصحاح ٢٤ العدد ٩ و ١٠ «ثم صعد موسى وهارون ونادبا وابيهوا وسبعون من شيوخ إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة» وجاء في السفر ذاته الإصحاح ٣٣ عدد ١١ و٢٣ «ويكلم الرجل موسى وجهاً لوجه كما يكلم الرجل صاحبه. . . ثم ارتفعت يدي فتنظر ورائي أما وجهي فلا يرى» وفي سفر التكوين الإصحاح الثامن عشر يذكر زيارة الرب لإبراهيم عند بلوطات ممرأ ويحكي كيف كان يتناول الخبز والزبد والحليب ولحم العجل معه.

تقول التوراة إن الله لطيف رحيم ثم تعلمنا خلافه كما في سفر أشعيا الإصحاح ٤٥ العدد ٧ «مصور النور وخالق الظلمة صانع السلام وخالق الشر أنا الرب صانع كل هذه» ثم سفر عاموس الإصحاح ٣ العدد ٦ «هل

تحدث بلية في مدينة والرب لم يصنعها» وسفر المراثي الإصحاح ٣ العدد ٣٨ «من فم العلي ألا تخرج الشرور والخير» وسفر حزقيال الإصحاح ٢٠ العدد ٢٥ «وأعطيتهم أيضاً فرائض غير صالحة وأحكاماً لا يحيون بها».

تقول إن الله لا يفضل أحداً على أحد من عباده ثم علمتنا خلاف ذلك انظر سفر التكوين الإصحاح ٤ من عدد ٤ إلى ٥ «وقدم هابيل أيضاً من أبكار غنمه ومن سمانها فنظر الرب إلى هابيل وقرباته ولكن إلى قابيل وقرباته لم ينظر». وسفر الخروج الإصحاح الثاني العدد ٢٥ «ونظر الله بني إسرائيل وعلم الله». ورسالة رومية الإصحاح ٩ العدد ١١ إلى ٢٣ «لأنه وهما لم يولدا بعد ولا فعلا خيراً أو شراً لكي يثبت قصد الله حسب الاختيار ليس من الأعمال بل من الذي يدعو قيل لها إن الكبير يستعبد للصغير كما هو مكتوب أحببت يعقوب وأبغضت عيسو» والتوراة برمتها كناية عن قصة شعب اختاره إلهها لغير أعمال صدرت منهم.

تقول التوراة إن الله غيور حقود انظر سفر الخروج الإصحاح ٢٠ العدد (٥) «لأني أنا الرب إلهك إله غيور افتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي» ثم رجعت وعلمتنا خلافه في سفر حزقيال الإصحاح الثامن عشر العدد ٢٠ «النفس التي تخطىء تموت الابن لا يحمل من إثم الأب والأب لا يحمل من إثم الإبن بر البار عليه يكون وشر الشرير عليه يكون».

وقال الإنجيل بألوهية المسيح انظر إنجيل يوحنا الإصحاح الأول العدد الأول «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله» ثم رجع وقال في الإنجيل المذكور نفسه الإصحاح ٨ العدد ٤٠ «ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلمتكم بالحق الذي سمعته من الله» ورسالة تيموثاوس الأولى الإصحاح الثاني العدد ٥ «لأنه يوجد إله واحد ووسيط واحد بين الله والناس الإنسان يسوع المسيح».

يقول الإنجيل، إن الله والمسيح واحد أنظر إنجيل يوحنا الإصحاح

العاشر العدد ٣٠ «أنا والآب واحد» ثم رجع وعلمنا في الإنجيل المذكور نفسه أنه شتان ما بين المسيح وربه انظر الإصحاح ١٤ العدد ٢٨ «لو كنتم تحبونني لكنتم تفرحون لأني قلت أمضي إلى الأب لأن أبي أعظم مني».

يقول الإنجيل إن المسيح يعلم كل شيء انظر إنجيل يوحنا الإصحاح السادس عشر العدد ٣٠ «الآن نعلم أنك عالم بكل شيء» رسالة كولوسي الإصحاح الثاني آخر العدد الثاني والعدد الثالث «والمسيح المدخر فيه جميع كنوز الحكمة والعلم» ثم رجع وعلمنا بأن المسيح جاهل. انظر إنجيل مرقس الإصحاح ١١ العدد ١٣ «فنظر شجرة تين من بعيد عليها ورق وجاء لعله يجد فيها شيئاً فلما جاء إليها لم يجد شيئاً إلا ورقاً لأنه لم يكن وقت التين» وكذلك انظر الإنجيل المذكور ذاته الإصحاح الثالث عشر العدد ٣٢: «قال وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الأب».

يقول الإنجيل إن شهادة المسيح لنفسه كافية صادقة كما في إنجيل يوحنا الإصحاح الثامن العدد ١٤ ففيه «أجاب يسوع وقال لهم وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق لأني أعلم من أين أتيت وإلى أين أذهب» ثم رجع وعلمنا ضد هذا في إنجيل يوحنا نفسه الإصحاح الخامس العدد ٣١ «إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي ليست حقاً».

يقول الإنجيل إن المسيح فادى الناس جميعاً كما في رسالة تيموثاوس الأولى الإصحاح الثاني العدد ٥ و٦ وهو: «يسوع المسيح الذي بذل نفسه فدية لأجل الجميع» ثم رجع وعلمنا خلافه كما في إنجيل متى في الإصحاح الخامس العدد ٢٤ «فأجاب (أي يسوع) وقال لهم: «لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» وإنجيل مرقس الإصحاح السابع العدد ٢٦ و٢٧ «وكانت المرأة أممية وفي جنسها فينيقية سورية فسألته أن يخرج الشيطان من ابنتها وأما يسوع فقال لها دعي البنين أولاً يشبعون لأنه ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب».

يقول إن أعظم دلائل النبوة عمل الآيات والعجائب انظر متى الإصحاح التاسع العدد ٦ «ولكن لكي تعلموا أن لابن الإنسان سلطاناً على الأرض أن يغفر الخطايا حينئذٍ قال للمفلوج احمل فراشك واذهب إلى بيتك» ويوحنا الإصحاح الخامس العدد ٣٦ «وأما أنا فلي شهادة أعظم من يوحنا لأن الأعمال التي أعطاني الأب قد أرسلني والعبرانيين» الإصحاح ٢ العدد ٤ «شاهد الله معهم بآيات وعجائب وقوات متنوعة ومواهب الروح القدس» وقد كان علمنا خلاف ذلك انظر سفر تثنية الاشتراع الإصحاح الثالث عشر من عدد ١ إلى ٥ «إذا قام في وسطك نبي أو حالم حلماً وأعطاك آية أو أعجوبة ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التي كلمك عنها قائلاً لتذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها نتعبدها فلا تسمع لكلام ذلك النبي أو الحالم ذلك الحلم لأن الرب إلهك قد يمتحنك لكي يعلم هل تحبون الرب إلهكم من قلوبكم.. وذلك النبي أو الحالم ذلك الحلم يقتل لأنه تكلم بالزيغ». وانجيل متى الإصحاح ٢٤ العدد ٢٤ «لأنه سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة ويعطون آيات عظيمة وعجائب حتى يضلون لو أمكن المختارين أيضاً» فهنا قال تحذيراً لنا من أن نصدق الأنبياء الكذبة والمسيح الدجال الذين يعملون قوات وعجائب».

يقول الإنجيل في مواضع كثيرة إن انتهاء العالم قد اقترب انظر إنجيل متى الإصحاح ٢٤ عدد ٣٤ «الحق أقول لكم لا يمضي هذا الجيل حتى يكون هذا كله» أي خراب الكون وقيام يوم الدين كما صرح به في أول الإصحاح. ورسالة كورنثيوس الأولى الإصحاح ١٥ العدد ٥١ و٥٢ «هو ذا سر أقوله لكم لا نرقد كلنا (أي لا نموت) ولكننا نتغير في لحظة في طرفة عين عند البوق الأخير فإنه سيبوق فيقام الأموات عديمي فساد ونحن نتغير» ورسالة تسالونيكي الأولى الإصحاح الرابع العدد ١٥ «فإننا نقول لكم هذا بكلمة الرب إننا نحن الأحياء الباقين إلى مجيء الرب لا نسبق الراقدين» ورسالة بطرس الأولى الإصحاح ٤ العدد ٧ «وإنما نهاية كل شيء قد اقتربت فتعقلوا واصحوا للصلوات» وإنجيل متى الإصحاح ١٠ العدد ٢٣ «ومتى طردوكم في هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى فإني الحق أقول لكم لا تكملون مدن إسرائيل

حتى يأتي ابن الإنسان» ثم رجع عن هذا كله وأخبرنا برسالة تسالونيكي. الثانية الإصحاح الثاني من عدد ٢ إلى ٣ «لا تتزعزعوا سريعاً عن ذهنكم ولا ترتاعوا لا بروح ولا بكلمة ولا برسالة كأنها منا أي أن يوم المسيح قد حضر» وإنجيل متى الإصحاح ٢٤ العدد ١٤ «ويكرز ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة شهادة لجميع الأمم ثم يأتي المنتهى» ومرقس الإصحاح ١٣ عدد ١٠ «وينبغي أن يكرز أولاً بالإنجيل في جميع الأمم».

يقول الإنجيل إن ملك المسيح سيكون للأبد لا زوال له أنظر لوقا الإصحاح الأول العدد ٣٣ «ويملك (أي المسيح) على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية والرسالة إلى العبرانيين الإصحاح الأول العدد ٣ «.. جلس في يمين العظمة في الأعالي» ثم رجع وعلمنا خلاف هذا أنظر رسالة كورنثوس الأولى الإصحاح ١٥ من العدد ٢٤ إلى ٢٨ (وبعد ذلك النهاية متى سلم الملك لله الأب... ومتى أخضع له الكل فحينئذٍ الابن نفسه أيضاً سيخضع للذي أخضع له الكل كي يكون الله الكل في الكل».

يعلمنا إن روح القدس (إله) كما في أعمال الرسل الإصحاح ٥ العدد ٣ و ٤ «فقال بطرس يا حنانيا لماذا ملأ الشيطان قلبك لتكذب على الروح القدس.. أنت لم تكذب على الناس بل على الله» «يسوع الذي من الناصرة كيف مسحه الله بالروح القدس والقوة» وإنجيل يوحنا الإصحاح ١٥ العدد ٢٦ «ومتى جاء المعزى الذي سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من عند الأب ينبثق». ثم قال خلافه.

يقول الإنجيل: إن جميع كتب التوراة والإنجيل وحي من لدن عزيز عليم وإنها نافعة لنا. انظر رسالة تيموثاوس الثانية إصحاح ٣ العدد ١٦ (كل الكتاب هو موحى به من الله نافع للتعليم والتوبيخ للتوقيم والتأديب الذي في البر) ثم علمنا خلافه كما في رسالة كورنثوس الأولى الإصحاح٧ العدد ٢٥ و٢٦ «وأما العذارى فليس عندي أمر من الرب فيهن ولكني أعطى رأياً كمن رحمه الرب أن يكون أميناً فأظن إن هذا حسن لسبب الضيق الحاضر إنه

حسن للإنسان أن يكون هكذا» وذكر رأيه. ورسالة كورنثوس الثانية الإصحاح ٦١ العدد ١٧ الذي أتكلم به لست أتكلم بحسب الرب بل كأنه في غباوة في جسارة الافتخار هذه) وفي الإصحاح ٧ العدد ٦ إلى ١٢ من الرسالة الأولى (لكن أقول هذا على سبيل الإذن لا على سبيل الأمر وأما الباقون فأقول لهم أنا الرب) فأين الوحي الذي يدعونه.

وما هذا الذي مر بك إلا شيء قليل من كثير من أوامر التوراة المتقلبة التي لها الأصل في اعتقاد النصارى كآلهتهم الثلاثة ووحي كتبهم المقدسة وانتهاء العالم وتركنا أموراً ذات بال لو كان بعضهم لبعض ظهيراً لما استطاعوا لها تأويلاً هذا عدا عما بذلوه من الجهد في تأليف روايته المرتبكة ولم يفلحوا.

وإنا نرى ذوي اللب من النصارى لا يقبلون التوراة على أن كل ما فيها وحي من عند الله لا ريب فيه والحق يقال إنهم لذوو أنفس أبية لا يذلون أنفسهم بإخضاعها لحديث خرافة لعبت به أيدي المتلاعبين دهراً طويلاً ولا يتبعون الكنيسة ذات التاريخ المعيب الذي هو كناية عن تعداد مظالم واضطهادات ونهب غير ذلك. ونرى البعض يتفاخرون بأن الله قد حفظ وحيه للناس بواسطة التوراة وإنه يجب على كل إنسان تلاوتها باحترام لأنها صلاة ويعترفون بعد هذا الكلام بأنه قد دخلها بواسطة النساخ أغلاط كثيرة ويرفضون منها أعداداً بل أسفاراً برمتها على أنها مزورة ويعدون قسماً آخر منها مشكوكاً بصحته ثم بعد هذا الطرح والتقسيم يقولون أن ما بقي كلام الله لم تمس مادة جوهره بسوء. فقولهم هذا أعظم حجة عليهم كما بينا سابقاً. قالوا إن بعض تلك الكتب موحاة ثم من بعد ذلك وضعوها تحت سيطرة الفكر والانتقاد ومن كان هذا اعتقاده لا بدّ أن يقول في نفسه «إن لدينا جملة كتب قد خالطها كثير من كلام الناس الباطل فكل ما وافقني أقول إنه إلهي وما لم يوافقني أرفضه». فتدبر هذه الحالة. ولقد بذل كثيرون جهدهم لتخفيف هذه الحالة ليتمكن الإنسان من مخالفة ضميره فلم يفلحوا.

ولدينا طريق واحد ينقذ من كل مخالفة وهو طريق سهل حسن النتيجة

غير أن التجارب قد علمتنا صعوبة السير عليه لأنه يقضي بتسليم هذه الكتب للفحص والانتقاد كما تنتقد كتب الناس فيؤخذ النافع ويطرح الضار.

كل يعلم كيف يدعي النصارى بأنـه تحفهم نعمة من لـدن الروح القدس فتثير وتهدي دارس التوراة في دائرة الإيمان بها مع أننا نجد كل واحد ممن درسها قد فهمها بخلاف غيره بحسب ما تلقاه من العلوم فلو لم يكن لتلك النهمة الوهمية تأثير في إدراكهم لنعم الحال فإنهم مع ادعاء هذه النهمة يخالف بعضهم بعضاً وجميعهم ذووا إخلاص بتعليم التوراة فما بال الروح القدس لا يوفق بينهم ويهديهم سواء السبيل. فالمسيحي الصادق الأمين من يضع التوراة تحت حكم الانتقاد الأدبي الذي لم يكتسبه من تعاليم هـذا الكتاب بل من العلوم الدنيوية التي قضى في دراستها دهراً طويلاً يصعد في غضونه على درجات التمدن والتقدم والاستنارة وغير ذلك من الحقائق التي كان سبب تأخيرها هذا الكتاب وما علمه للناس ولا يخفي أن التعليم الذي بعث على عصيان ومخالفة للتوراة لم يكن للذين من قبلنا لأنهم كانوا تحت سيطرة الروح القدس ونعمته الخاصة كما أننا .نحن الآن تحت نعمة وسيطرة الإنتقاد الصادق قد تمكنا من معرفة حقيقة التوراة التي سر روح قدسها أن يترك للمتمسكين بها في ظلمات لا يهتـدون ولا يعملون شيئاً ممـا يعمله الدارسون الآن.

إن تعليم التوراة ما على الرجل من الواجبات نحو أهل بيته لفظيع وما على القارىء اللبيب إلا أن يدرس سيرة نوح للتوراة وابراهيمها واسحاقها ويعقوبها وداودها وسليمانها وغيرهم من رجالها العظام ولا ريب أن من يعمل في عصرنا مثل أعمالهم يكون مستحقاً لأعظم التحقير وإذا أشار أحد بمعاملة نساء عصرنا كما تأمر التوراة يعْدُدْن ذلك إهانة وتحقيراً لهن لأنهن يصرن دون الأيامى والمسيح نفسه كان يعامل النساء بخلاف معاملة الرجـال وسلوكه وأخلاقه مع أمه وغيرها وحضه الرجل على ترك ما عليه من الواجبات نحو عياله مما يجعل البيوت منابع شرور ولقد زاد الحال سوءاً وقبحاً ما جاء به

بولس القديس من التعليم الذي صير النساء كمتاع في أيدي الرجال والرجال الدنيويون الكرام (يقصد الذين نبذوا التوراة ظهريا) خير من أعظم رجال التوراة بقدر ما للآداب العائلية الآن من المقام المحمود فإن الأدب الدنيوي يعلمنا بأن يكون الزواج ناشئاً عن المحبة الخالصة وهو زواج لا يؤدي إلا إلى تثبيت وثائق التوفيق وعدم الإنحياز ويعلم بأن الزوج والزوجة شريكان في أحوال معيشتهما.

يقولون إن آداب التوراة تعليم لنا من الله فقولهم هذا عين الغدر لوجوه منها (وربما قد كان مثل هذا الغرض الدنيوي الجميل بخصوص النساء مذكوراً فيها غير أننا ما علمناه لخلوها من مثله الآن) إنا نعلم أن ما ذكره علماء اللاهوت بهذا الخصوص قديماً وحديثاً غير مقبول عقلاً وكفى بالحقائق الوجودية دليلاً له وليس في التوراة فرض واحد منقوض بل فيها فروض وأوامر كثيره حداً تتضاد بعضها بعضاً تحرم ثم تبيح على أن القيام بذلك الأمر الذي حرم أولاً يرضي به التوراة ولا يخفى أن نتيجة هذا التناقض يؤدي إلى عدم إيجاد حد للإنسان لا يتعداه وإذا تدبرنا حوادث الأيام الخالية رأينا أن التوراة كانت السبب في إغراء آباء الكنيسة على اتخاذ الكذب خير واسطة لنفع الكنيسة ولقد آل ذلك إلى اتخاذ القتل والنهب على أنه خير قصاص لمن يسمونهم (هراطقة) وكانوا يرون الأعمال البربرية الفظيعة «صالحة» لأنها توافق أوامر التوراة.

ولقد كان الداعون إلى دين النصرانية واسطة لإطفاء نور العلم ومنهم من كان ذا خلق حسن واستقامة أما من جهة الدين فكان فظاً غليظاً جباراً وسبب ذلك اعتقاده أن مثل تلك الأعمال الوحشية تقربه إلى إله التوراة الذي أمر بها.

وقبول التوراة على أنها علم الآداب والكمال هو اعتراف بصدق أوامرها التي لا مفر لها ولا يستطيع أحد أن يصل بها ولقد قالت إن الإيمان وحده ينقذنا من العذاب الأليم أنظر رسالة رومية الإصحاح الثالث العدد ٢٧ و ٢٨

«فأين الافتخار؟ قد انتفى بأي ناموس؟ أبناموس الأعمال؟ كلا بل بناموس الإيمان إذا نحسب الإنسان يتبرر بالإيمان بدون أعمال الناموس» ثم رجعت وقالت خلاف ذلك. أنظر رسالة يعقوب الإصحاح ٢ العدد ٢٤ «ترون إذا أنه بالأعمال يتبرر الإنسان لا بالإيمان وحده» ثم نرى خلافهما معاً في إنجيل يوحنا الإصحاح الرابع عشر العدد ٦ «قال له يسوع أنا هو الطريق والحق والحيوة ليس أحد يأتي إلى الأب الأبي» قال أولاً بالإيمان ثم رجع وقال بل بالأعمال ثم رجع وقال خلافهن جميعاً أنظر إنجيل يوحنا الإصحاح السادس العدد ٤٤ «ولا يقدر أحد أن يقبل إلى أن لم يجتذبه الأب الذي أرسلني فتدبر».

جاء في رسالة يوحنا الأولى الإصحاح ٥ العدد ٧ «فإن الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة الأب والكلمة والروح القدس وهؤلاء الثلاثة هم واحد» ثم جاء في رسالة تيموتاوس الأولى الإصحاح ٢ العدد ٥ لأنه يوجد إلّه واحد ووسيط واحد بين الله والناس الإنسان يسوع المسيح «ويعلمنا الإنجيل أن المسيح جاء بالبشارة الخير للناس جميعاً» ثم علمنا أنه لم يأتِ إلا لأجل خراف بيت إسرائيل الضالة وإن المدعوين كثيرون أما المنتخبون فقليل ما هم. وعلمنا أن جميع الخطايا تغفر وهناك يقول أيضاً إن كل خطيئة ضد الروح القدس لا تغفر. وجاء في رسالة ثيموثاوس الأولى الإصحاح الثاني العدد ٣ «لأن هذا حسن ومقبول لدى مخلصنا الله الذي يريد أن جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون» ومن قبل قال بأن الله يرسل أرواحاً مضلة ليصدق الناس الكذب ويهلكوا، فالأولى بالتوراة وإلّهها أن يقول «إن إرادة الإلّه أن لا تعلموا الحق حيث أنكم خلقتم للعذاب».

قال في رسالة يوحنا الأولى الإصحاح الثالث العدد ١٥ «كل من يبغض أخاه فهو قاتل نفس». انتبه لهذا وفي إنجيل لوقا الإصحاح ١٤ العدد ٢٥ و ٢٦ «وقال لهم يسوع: إن كان أحد يأتي إلي ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وأخوته وأخواته حتى نفسه أيضاً فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً». فمن

رام أن يكون تلميذاً للمسيح فأهم واجباته كره أخيه وإذا فعل ذلك كان قاتلاً نفساً بموجب نص يوحنا المذكور أعلاه والقاتل ليس له حياة أبدية فإن ترم الحياة الأبدية فكن عاصياً لأوامر المسيح.

والموت شهادة في سبيل التعاليم لا يكون خير واسطة لإشهار مبدأ أو علم أو عقيدة فإن البقاء نفعاً للمبدأ أو التعليم المراد نشره أكثر من الموت لأجله ويدعي النصارى بأن موت البعض منهم قديماً قتلاً يدل على صدق التعليم وإثباتاً ـ لزعمهم يوردون ما جاء بإنجيل متى الإصحاح العاشر العدد ٢٨ «لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها» وهذا يدل على أن المسيح لا يقدر حياة الإنسان حق قدرها بجنب تعليمه أما هو نفسه فلم يرد التهلكة ودليلنا ما جاء بإنجيل يوحنا الإصحاح ٧ العدد ١ «وكان يسوع يتردد بعد هذا في الجليل لأنه لم يرد أن يتردد في اليهودية لأن اليهود كانوا يطلبون أن يقتلوه». فلم خاف ممن يقتلون الجسد؟ وكان تلاميذ المسيح يعملون عمله «أي يحضون الناس على التهلكة أما على أنفسهم فكانوا محافظين» وهنا موقف الحيرة أنتبع أقوال المسيح أم أفعاله؟.

وبعض النصارى يذمون الحرب ويعدونها مخالفة لأوامر التوراة وتأييداً لحجتهم يوردون ما جاء بإنجيل متى الإصحاح ٢٦ العدد ٥١ «فقال له يسوع رد سيفك إلى مكانه لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون» ومحبوا سفك الدماء يقولون لرجال السلام إنه من الواجب أن تكون بأيدينا سيوف مسلولة لأنه بقدر ما ينتشر دين النصرانية بقدر ما تتضاعف الحاجة إلى السيوف المسلولة ثم يقرؤون تأييداً لقولهم ما جاء بإنجيل متى الإصحاح ١٠ العدد ٣٤ «لا تظنوا أني قد جئت لألقي سلاماً على الأرض ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً» وبإنجيل لوقا الإصحاح ٢٢ العدد ٣٦ و٣٨: «فقال (يسوع) لهم لكن الآن من له كيس فليأخذه ومزود كذلك ومن ليس له فليبع ثوبه ويشتري سيفاً. . فقالوا يا رب هوذا هنا سيفان فقال لهم يكفي» فلو نجح المسيح بحضه على استعمال الحرب وسفك الدماء لكان لمحبي الحرب

أعظم حجة يحتجون بها. قال بولس الرسول أولاً إن الفضائل هي الأصل وبدونها كل شيء عدم ثم رجع عن ذلك وقال في رسالة غلاطية الإصحاح الأول العدد ٩ «وكما سبقنا فقلنا أقول الآن أيضاً إن كان أحد يبشركم بغير ما قبلتم فليكن أنا ثيما أي ملعوناً» فيا له من أدب. وقيل في التوراة أيضاً إن الحكمة هي الأصل فخذوها ثم قيل في التوراة نفسها «الحكمة الكثيرة كرب عظيم ومن يكثر الحكمة يكثر حزنه» فمن الجهل تعليم الإنسان أن الحكمة خير من الكنوز ثم يعلم ما مر وكذلك «إن حكمة العالم جهل» فكل من يطلب الحكمة والعلم يناديه بولس في رسالته كورنثوس الأولى الإصحاح ١ العدد ١٩ «لأنه مكتوب سأبيد حكمة الحكماء، وأرفض فهم الفهماء» مهلاً لا تهلك اختراعات هذا الجيل يا بولس.

فمن هذه التعاليم التي أوردناها من التوراة يظهر جلياً عدم صلاحيتها بأن تكون دستوراً لاقتباس الآداب والأخلاق ولربما يقول بعض متعصبي النصارى أن ليس فيها اختلاف وإن ما يدعيه أهل العلم من وجود المعايب فيها هو عبث حيث أن كل شيء عند الله هين وعليه فمملي التوراة هو الصادق الأمين وغيره كاذب ومنهم من يقول إن الأغلاط الناشئة من نقص علم المنتقد وإن كلام التوراة بسيط إذا دخلنا علينا من باب التقي بأن نقبلها إنجيلاً يعلمنا للحق ولا يخفي بأن نقص طبيعتنا هو الحائل دون إدراك الحق الموحى إلينا بنور روحي فهذه حجة المتخذين التوراة هادياً ومرشداً ولعمري إنها لحجج توجب عودنا أطفالاً لا عقول لنا حتى نقبل توراتهم المدعين عصمتها من الغلط والنقص.

لا ريب أن عقول المعتقدين بعصمة تعاليم التوراة مع ما فيها من المعايب الظاهرة للعيان مختلة ويعدون عندنا مذنبين لوضعهم ما فيها من النقائص تحت ستار الجهل والحمق بقولهم (إنها وحي إلهي) كلمة اتخذوها أحبولة لإخضاع الإنسان لأخس حالات الضعف البشري وإذا كان من واجبات الإنسان متابعة العقل والانتباه والحرية لتكون له في هذه الحياة الدنيا عيشة

طيبة وجب عليه ألا يكون أسيراً لتوحش الأقدمين ولا للتعاليم النصرانية الحديثة بل عليه أن يأخذ علمه عن العلوم الطبيعية فإن له فيها خير هادٍ ورشيد لا يضل بعده بخلاف التوراة التي لا تهدي إلى سواء السبيل. انتهى. كلام وتعليق الكاتب الغربي «تشارلس وطس» ونظراً لأن النص الذي كتبه بالإنجليزية منذ أكثر من مائة عام فقد آثرنا أن تأتي جملة أفكاره الأساسية بغير تصرف. والملاحظة الجوهرية التي تبدو من سياق ما عرض الفكر الغربي في نقده لتهافت الكتاب المقدس. نؤكد أن القضايا الأساسية التي عالجنا في الأسفار اليهودية مفتقدين من خلالها عقيدة التوحيد وما يتصل بها هي نفس القضايا التي نظر إليها «تشارلس» بمنظاره الأخلاقي النقدي.

الباب السادس

حول الأصول التاريخية للمسيحية.
قوى المقاومة اليهودية للمسيحيين.
موقف الأباطرة من المسيحيين.
عقيدة التثليث عند النصارى.
عقيدة التثليث - الصلب والفداء - الإدانة.

حول الأصول التاريخية للمسيحية

لا بدّ لمن يستهدفون دراسة الأناجيل والتعرف على ما فيها من عقائد باعتبارها الآن الأسفار المقدسة في المسيحيـة من أن يمعن النظر في هـذه الأناجيل ليتعرف على معالم وملامح الشخصية التاريخية للسيد المسيح (عيسى بن مريم) عليه السلام.

وهذه القضية الشديدة التعقيد، أدلى فيها الفكر الأوروبي بدلوه في بحوث علمية عديدة، وعند تناولها عرض بعضهم لموقف العقيدة الإسلامية منها باعتبار أنها من أكبر العقائد السائدة في العالم فضلاً عن سلامة مصادرها في الرأي والتوجيه والحكم على أنواع العقائد المختلفة.

ومن المعروف أن القرآن الكريم عند حديثه عن السيد المسيح يرد الحديث دائماً على أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وأنه نبي رسول لم تتقبل دعوته عند معظم الذين بعث إليهم غير أنه قد استجاب له حواريون أجلاء مثلوا بطولة العقيدة الدينية وجلدها ومقاومتها لكل ضروب الطغيان والعدوان.

وإذا كانت قوى الرفض اليهودي تكالبت عليه بالتآمر ومحاولة وضع حد للدعوة المسيحية بالقضاء على صاحبها لكنه باعتباره نبياً رسولاً كان موضع تكريم الله وعنايته ولم يتعرض لما أعد له من التخلص منه.

وقد أورد لوتردوب فيما ترجمه الأمير (شكيب أرسلان) في (حاضر العالم

الإسلامي) من الجزء الأول دراسة حول موقف الفكر الأوروبي من النظرة الإسلامية لهذه القضية، ونحن نريد أن نأتي عليها مزيداً للفائدة واستشهاداً بالبحث العلمي الجاد.

ذلك أنه يبدأ القول مقراً بأن القرآن يطهر أم السيد المسيح تطهيراً من دنس يقول: (إن لعيسى مكاناً مستثنى في القرآن الكريم)[1] ذلك بأنه «ولود على غير الأحوال البشرية المعتادة، وأنه رسول الله الوحيد الذي في القرآن يخاطب الحق ويجاوبه وأنه كلمة الله الحية وليس بمجرد واسطة للرسالة.

لم يخطىء فيما جاء فيه من الإشارة إلى عبادة مريم بل الذين خطأوا القرآن في ذلك مخطئون.

فقد وجدت نحل تعبد في القديم ولا تزال في أيامنا هذه يصلى لها بصلوات خاصة بها وكيف تكون العبادة غير هذا؟ والإله هو المعبود. هذا معناه بالعربية فقوله تعالى: ﴿ **أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين**﴾ معناه: أنت قلت للناس اتخذوني وأمي معبودين. ثم يزعم (درمنغهم) أن قول المسلمين بأن القرآن غير مخلوق هو كقول المسيحيين أن المسيح كلمة الله موجود من الأزل، قال وقد كان القديس يوحنا الدمشقي يقول: إذا قلتم أن الكلمة وروح الله هما غير مخلوقين فنحن معكم على وفاق. وإن قلتم أنهما مخلوقان أفتريدان أن نقول أن كان وقت من الأوقات كان الله فيه بدون كلمة وبدون روح؟ وهنا بدون أن ندخل في هذا البحث الطويل العريض الذي ربما لا ينتهي وبدون أن نذكر قول المسلمين ما خلا المعتزلة بعدم خلق القرآن وقول النصارى بكون الكلمة هي من الأزل إنما هي المسيح، نكتفي بأن نقول أن قوله تعالى إن عيسى عليه السلام هو من روح الله معناه أنه آية من آيات الله وأن الله أوجده رأساً بلا أب وأن قوله (كلمة الله) معناه أنه وحد

---

(١) حاضر العالم الإسلامي تأليف لوثر دوب ستوارد الأمريكي، ترجمة الأستاذ عجاج نويهض الجزء الأول الصادر عن دار الفكر، صفحات ٦٣ ـ ٧٢.

بكلمة التكوين (كن) وفي هذا فرق كبير عما يعتقده المسيحيون من أزليّة الكلمة ومن ثمة بأزلية المسيح وكيف تطبق أزلية المسيح على قوله تعالى: ﴿ **قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً** ﴾ وقوله تعالى: ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾ وقد حاول (درمنغهم) أن يوفق بين الديانتين في عقائد كثيرة إلى أن وصل إلى قضية الصلب فقال إنها أشدها إشكالاً، وذلك أن الإسلام لا يعرف سر الفداء. وربما يجد حاجة للكلام على الفداء لأنه موجود في الإنجيل والإنجيل مصدق بالقرآن.

وعلى كل حال لا ينظر الإسلام إلى المسيح كمخلص للبشر بدمه ولا يعرف قضية الحب الإلهي لخلقه إلى حد أن يبعث الله ابنه الوحيد لخلاصهم فإن الإسلام ينزه الألوهية تنزيهاً عظيماً ويجعل الله غير خلقه إلا أنه - أي درمنغم - بهذا وقع في التجريد التام وفاته ذلك المبدأ النصراني وهو (أن الله محبة). فالمسلمون لا يقدرون أن يعتقدوا أن الله الذي يحب المسيح يتركه يصلب كما أن اليهود لا يقدرون أن يفهموا المسيح إلا ملكاً أرضياً فاتحاً على أن القرآن ذكر أن من قتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً وهذا فيه ما يشير إلى قول بولس الرسول وهو (أنه بخطيئة واحد قد عم الذنب الجميع كذلك بكفارة واحد يتطهر الجميع وتحصل الطهارة التي هي مصدر الحياة.

نقول أن كل هذه المباحث إذا أخذ بها الإنسان لا تنتهي وكتابنا هذا كتاب تاريخ [الكلام لا يزال للثروب] لا مثار جدل وحسبنا أن نسرد أقوال الفرق المختلفة مع الملاحظات الضرورية فقط فلا نستطيع هنا أن نستخرج من قوله تعالى: ﴿ **أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً** ﴾ الدليل الذي حاول درمنغهم استخراجه بل معنى هذه الآية صريح وهو مبدأ العدل التام الشامل فقتل نفس بغير حق هو قتل لجميع العالم بغير حق. وهذا أمر بديهي لا جدال فيه لأن النفس هنا تمثل النوع الإنساني. وكذلك من أحيا نفساً فكأنما أحيا الناس

جميعاً لأنه يكون قرر الحياة لا للفرد بل للجميع. وهذا الإحياء هو بإجراء العدل التام الشامل وهو من باب (ولكم في القصاص حياة) وليست هذه المسألة في شيء مما قاله بولس الرسول الذي يقول بما يسميه المسيحيون بالخطيئة الأصلية أي معصية آدم الشامل ووزرها لجميع أبنائه، مما استلزم إرسال الله ابنه إلى الأرض وصلبه فداء لأبناء آدم، وتخليصاً لهم من تبعة معصية ارتكبها أبوهم. [تعالى الله] نعم هذا ركن العقيدة المسيحية، بعدما انتهت إليه لكنه لا يلتئم أصلاً مع عقيدة الإسلام التي لا يؤخذ فيها إنسان إلا بذنبه، ولا يسري وزره لا من والد إلى ولد ولا من ولد إلى والد ولا من أخ إلى أخ (ولا تزر وازرة وزر أخرى) فالعقيدتان متباينتان أشد التباين.

ثم يقول (درمنغهم) إن الإسلام ينفي موت المسيح مصلوباً مهيناً بل يقول أن الله قد رفعه إليه ولم يبق في أيدي اليهود إلا شبحاً أو شخصاً آخر شبه المسيح يقول: فهذه العقيدة الهادمة لأجمل قصة معروفة في العالم، عند النصارى بحسبها أن تكون النصرانية مبنية على وهم من الأوهام مستفادة من آية قرآنية هي هذه:

﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيما﴾.

يقول: (لوثروب) ناقلاً عن درمنغم قوله: فالمعنى الحقيقي الوحيد لهذه الآية التي تثبت قيام المسيح أكثر مما تنكر موته، وتعني برفعه إليه، وفاته هوأن الله ضلل كيد اليهود وأن عيسى لم يقع في أيديهم بل خرج منها فريداً منصوراً، وهذا هو عين ما تقوله النصرانية فإن اليهود بحسب قول النصارى، قد أرادوا قتل المسيح وهدم عمله، وبينما يظنون أنفسهم قضوا عليه إذا به قد عاد فعاش، وما كان عملهم إلا إنفاذا لمشيئة الله وما قصدوا إلا الشر فكان من عملهم هذا تجاه العالم. ثم يستطرد «لوثروب» في غير ما تمييز ناقلاً عن درمنغم هذا الافتراء فيقول:

قال «درمنغهم»: (فقول القرآن ﴿ولكن شبه لهم﴾ يذكرنا بأقوال العهد الجديد وبولس الرسول عن حمل الله المكفر عن سيئات البشر وعن آدمَ الجديد الذي جاء بدل القديم). هكذا يكون الإفك والكذب عند هذا المستشرق الظالم الأثم إنه يقول: (فإذا فكرنا في أن المصحف الحالي تاريخه من زمن عثمان والحجاج، وأن سائر المصاحف قد أبطلت، وأن المصحف نفسه لم يكن فيه شكل ولا نقط[1] فيقرأ منه كثير على المسيح وقيامته وصعوده إلى السماء بدون تصريح بعدم وقوع الموت والقيامة إلى الآن ومع تعليق ذلك باليوم الآخر هي كافية لحفر هذه الهوة العميقة بين ملتين كل شيء ما عدا هذه العقيدة جامع موحد بينهما؟) إن (درمنغهم) لا يراها كافية. بهذا السخف الفكري المخاتل والمغالط يسوق درمنغم هذا الكذب وهو أن كل شيء بين الملّتين الإسلام والمسيحية جامع موحد متناسياً الفرق بين ديانة وثنية تقول بالتثليث وبين التوحيد في الإسلام.

ثم قال: (بل أننا لو فرضنا وجوب أخذ هذه الآية على ظاهرها، فلا مانع من ذلك بحسب عقيدة الكنيسة نفسها، لأن آباء الكنيسة ما زالوا يقولون أنه ليس ابن الله هو الذي صلبه اليهود وأماتوه على الصليب، وإنما الطبيعة البشرية التي في المسيح. وهكذا لا يكون اليهود قتلوا كلمة الله الأبدية ولكن يكونون قتلوا الرجل الذي يشبهها واللحم والدم المتجسدين في بطن مريم.

ثم قال كاذباً وملتوياً ومتأولاً: (فلا يكون القرآن فيما قاله بشأن الصلب إلا مؤيداً لعقيدة الكنيسة الكبرى وهي أن في المسيح طبيعتين إلهية وبشرية، وأن القتل وقع على الطبيعة البشرية فقط، وأن المسيح سينزل عند قرب الساعة وغير ذلك، وما كان رد القرآن هذا إلا على أقوال الهراطقة مبتدعة النصارى الذين كانت

---

(١) : درمنغم بهذه المفتريات والأكاذيب يريد أن يدعي أن ما حدث للتوراة والإنجيل من تحريف وسوء فهم وتدبير قد حدث للقرآن الكريم. ولم يستوعب وعد الله بحفظ كتابه في قوله تعالى: ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾.

مذاهبهم منتشرة وأقوالهم شائعة حتى في جزيرة العرب، إلى (أن يقول) إ إن أحد آباء الكنيسة من أهل القرن الخامس قال: إن جزيرة العرب كانت مجمعاً للبدع المسيحية فكان فيها السابليون والدوسيتيون الذين كانوا ينكرون الطبيعة البشرية في المسيح ويقولون أن جسده لم يكن إلا شبحاً محضاً، والأريوسيون الذين كانوا ينكرون ألوهيته واليعاقبة الذين كانوا ينكرون وجود الطبيعتين فيه، والناظرة الذين كانوا يرون فيه شخصية، والمريميون والكوليريديون الذين كانوا يعبدون مريم العذراء وأضداد المريميين الذين كانوا ينكرون بكارتها الدائمة الخ. وكانت جميع هذه الفرق في نزاع دائم وكما يقول المثل الحبشي: (لم يتفق النصارى على شيء إلا على ولادة المسيح).

ولا نريد أن نفرغ من هذه المسألة بدون أن نعلق ببعض الأحكام التصحيحية على ما قاله (درمنغم) فيما قاله وما ذهب إليه من أن مراد القرآن بالآية الكريمة ﴿ **وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم** ﴾ إنما هو وقوع القتل على الجسد فقط، وأن الله بعد ذلك رفعه إليه، لأن هذا الرأي له صدى وجيهاً عند الغربيين لا سيما وأن آية أخرى تقول: ﴿ **إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا** ﴾ هي بزعمهم تعزز هذا الرأي وإن كان جمهور أهل الإسلام على أن القتل لم يقع لا على الروح ولا على الجسد وأن الذي قتل إنما هو رجل آخر وأن قوله تعالى: ﴿ **إني متوفيك** ﴾ هو من توفاه الله أي استوفى مدة أجله في الدنيا. ونبادر فنقول: رداً على فرية درمنغم في توجيه الآية الكريمة توجيهاً خاطئاً، إلى أن يقول: (إن جمهور أهل الإسلام على أن القتل لم يقع لا على الروح ولا على الجسد. والحقيقة أنه لا يوجد مسلم ومن يوجد إن شاء الله يقول بالصلب فأمّة الإسلام كلها لا جمهوراً منها لا تقول بالصلب على أي وجه بناء على خبر القرآن الكريم.

ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن من الغربيين من يرى أن الصلب وقع، ولكن الموت على الصليب لم يقع وأن المسيح قد أنزل عن الصليب وهو حي

ودفن في المغارة، على أنه مات وهو لم يكن مات، فلذلك عندما جن الليل خرج من المغارة وذهب، ثم بعد أيام جاء وتلاقى مع الحواريين. ولكن الذين يرون هذا الرأي يخالفون الإسلام والنصرانية معاً. أما الإسلام فلكون القرآن لم ينف القتل فقط بل نفى الصلب أيضاً، ولأن الإسلام يثبت أن الله رفع المسيح إليه ونجاه من اليهود، وأما النصرانية فلأن مدارها كلها على موت المسيح مصلوباً فداء عن البشر. فإن لم يكن مات مصلوباً انهدمت العقيدة المسيحية كلها على ضوء ما تقوله الأناجيل، وجواب من يرى هذا الرأي أن آية ﴿ **وما قتلوه وما صلبوه** ﴾ لا تنفي الصلب نفسه بل تنفي الموت على الصليب، وأن قوله تعالى: ﴿ **وما صلبوه** ﴾ اشبه بأن يكون توكيدا لقـوله تعالى: ﴿ **وما قتلوه** ﴾ لأن المقصود ليس نفي رفعه على الخشبة وإنما نفى موته عليها وأن الأظهر أن يكون رفع على الخشبة ساعات، ثم أنزل عنها وهو حي، وأخذ إلى المغارة ووضع فيها، وذلك على هيئة أنه مات وأنه دفن. والحقيقة عند من يرى هذا الرأي أنه لما أنزل عن الخشبة لم يكن قد مات وإنما شبه الموت لليهود وشبه لهم الدفن وأن المسيح بعد أن جن الليل خرج في جوف الليل ومضى إلى حيث توارى مدة من الزمن ثم عاد فظهر للتلاميذ وتعشى معهم العشاء السري.

والذين يرجحون هذا الرأي يخالفون العقيدة النصرانية ورواية الأناجيل لكنهم لا يرون رأيهم مخالفاً للإسلام. وذلك لأنهم يقولون أن قوله تعالى: ﴿ **وما قتلوه وما صلبوه** ﴾ معناه ما قتلوه مصلوبا. وليس بناف أن يكون رفع على الصليب مؤقتاً تشبيهاً على اليهود الذين كانوا يطلبون جزماً قتل المسيح وكذلك خروجه من المغارة ليلاً.

واختفاؤه عن العيان ليس مما ينفي رفعه إلى السماء بعد ذلك.

وأدلة هؤلاء تتمثل في الآتي:

أولاً: أن بيلاطس النبطي كان قد حاول انقاذ المسيح بكل جهده هو

وامرأته وأنه أخذتها عليه شفقة زائدة، ولكن لما اشتد صخب اليهود طالبين قتله اضطر أن يأمر بصلبه وهو مكره، فيجوز أن يكون أوصى قائد المائة بأن يعلق عيسى عليه السلام على الصليب إلى أن يكون الوقت قد أظلم فينزله ويجعله في المغارة على أنه ميت ويشير إليه بأن يفر من المغارة ليلاً ويذهب إلى حيث لا يعلم به اليهود. وهكذا يكون أنقذه من الموت ولكن مع إيهام اليهود أنه قتله.

ثانياً: أن الصلب وقع نهار الجمعة بحيث أنه في مساء ذلك النهار يدخل السبت ويقر اليهود في بيوتهم فيسهل على الذي تولى قضية الصلب أن يواري عيسى في المغارة ويسهل له النجاة بدون أن يشعر اليهود.

ثالثاً : أن من العادة في المصلوبين أن تكسر أرجلهم. تعجيلاً لموتهم إذا طال نزعهم وقد ثبت أن القائد الذي عهد إليه بصلب عيسى لم يكسر له رجليه مع أنه كسر أرجل المصلوبين الآخرين اللذين صلب عيسى عليه السلام بينهما فعدم تكسير رجلي عيسى عليه السلام دليل على نية استبقائه.

رابعاً : إن الصلب كان سبة كبيرة عند اليهود يفدونها بكل ممكن ولذلك جاء أناس من محبي عيسى وبذلوا كل جهدهم لدى ببلاطس لمنع صلبه مثل يوسف حار ميتحايم ومثل نيقوديموس ومن هؤلاء من رافقوه إلى مكان الصلب وهم الذين أنزلوا الجثة بحسب رواية الصلب فلو لم يكن لهم رجاء في إنقاذه لم يرافقوه إلى هناك.

خامساً: أنهم لما جاءوا إلى المغارة نهار الأحد وجدوا الحجر مدحرجاً ولم يجدوا جثة المسيح بل وجدوا ثيابه. فإن قيل إن تدحرج الحجر وخروج المسيح من القبر لا ينفيان كون المسيح قد مات لأن المسيح عليه الصلاة والسلام عند أصحاب هذا الرأي من الغربيين قد قام من الموت بعد أن صلب ومات ودفن وهذه هي العقيدة المسيحية وعندما قام في اليوم الثالث خرج من القبر ودحرج الحجر، فيرد على هذا أن الذي يقوم من الموت

بمعجزة يمكنه أن يخرج من القبر بدون فتح القبر ولا دحرجة الحجر ولا سيما إذا كان قد صعد إلى السماء والصعود هنا بالروح وبالجسد.

سادساً: إن وجود الثياب في القبر دليل على أنه قد نزع ثياب الدم التي كانت عليه عند الصلب، وأنه جيء إليه بثياب نظيفة وخرج بها عندما خرج. وإلا فما معنى وجود الثياب الملطخة بالدم في القبر بعد فقد الجثة فإن قيل ليصعد بها إلى السماء فيجاب بأن الصعود إلى السماء إنما هو بالروح فليس يحتاج إلى تبديل ثياب وما وجود الثياب إلا علامة على تبديلها وما تبديلها إلا علامة على أن المسيح خرج من القبر ليلاً بجسده وتوارى عن أعين اليهود، وذلك بصورة ليس فيها معجزات ولا خوارق عادات.

سابعاً: إن وضع المسيح عليه السلام في مغارة بدلاً من دفنه في ضريح تحت الأرض، وأهيل التراب عليه هو من جملة الأدلة على إرادة بيلاطس عدم قتله لأنهم لو كانوا دفنوه في لحد تحت الأرض لما أمكن بقاؤه في الحياة وأما دفنه في غار فليس إلا تخبئة إلى أن يكون أظلم الليل.

ثامناً: إن اجتماعه بالتلاميذ بعد الصلب دليل على أنه لم يكن قد مات وإن قيل أنه مات ثم عاش كما هي العقيدة المسيحية فنحن إنما نتكلم الآن عن رأي فئة لا تريد أن تتابع العقيدة بما يصحبها من المعجزات وإنما تنظر في الحادثة إلى المعقول والطبيعي بدون معجزات ولا خوارق عادات. فهذه الفئة ترى أن المسيح صلوات الله عليه قد اجتمع بالتلاميذ بعد حادثة الصلب وأنه أكل معهم وأن قوماً اشتبه فيه وطلب منه علامة على كونه هو المسيح الذي صلب، ولما كان يعلم أنه كانت في صدره طعنة حربة سأله عنها فأطلعه المسيح عليها ووضع توما فيها إصبعه حتى تحققها. وهذه الفئة ترى من هذا الاجتماع أن الموت على الصليب لم يقع وأن التشبيه الذي في القرآن في آية ﴿ **ولكن شبه لهم** ﴾ لم يكن بقتل شخص آخر يشبه المسيح وإنما هو تشبيه الصلب الذي جرى بالموت بحيث يسكت اليهود الذين حكم مجلسهم الروحاني على عيسى بالقتل صلبا وكانوا يأبون إلا إنفاذ هذا الحكم فخيل لهم

الرومانيون أنهم قتلوه والحقيقة أنهم لم يقتلوه بل رفعوه على الخشبة وعند الساعة الرابعة بعد الظهر أنزلوه عنها وأدخلوه المغارة حياً وكان اليهود دخلوا في السبت فلم يعلموا بشيء وبعد أن بدل المسيح في المغارة ثيابه خرج منها ليلاً وذهب متوارياً ويوم الأحد وجد الناس المغارة خالية وجسد المسيح عليه السلام مفقوداً، والحجر متدحرجاً، وليس هناك غير الثياب الملطخة بالدم، فذهب جماعة من اليهود إلى ببلاطس وشكوا إليه الإهمال الذي وقع في هذا الأمر وقالوا له إن الشائع هو كون النصارى جماعة عيسى قد أخذوا جسده ليلاً ومنهم من قال له: بل الشائع كون قصة موته على الصليب غير صحيحة وأنه أنزل عن الصليب حياً ووضع في القبر على صورة مدفون. ثم في جوف الليل فر من المغارة. . . ومن جملة الروايات أنه بعد أن ظهر للتلاميذ وأكل معهم فارقهم إلى حيث لم يرجع إلى فلسطين، وذلك خوفاً من أن تقبض عليه السلطة مرة ثانية وتصلبه وتقتله هذه المرة، فعلاً لا تشبيهاً، ومن فلسطين ذهب إلى الهند أبعد ما يمكنه أن يبعد وانتهت حياته في الهند ودفن في شمالي الهند حيث له الآن هناك قبراً يزار. وهذا القبر معروف من قديم الزمان وهذه الروايات هي مجرد حدس وتخمين تعززه قرائن وأدلة في نظر من لا يعتقد بالمعجزات أو من يظن أن هذه الحادثة جرت مجرى طبيعياً لا معجزة فيه. فأما الذين يعتقدون بالمعجزات فإنهم يحلون إشكالات هذه القصة كلها بالقدرة الإلٓهية. والنصارى يقولون أنها حادثة مقدرة مقررة منذ الأزل وأن النصرانية مبنية عليها.

وأما الذين كتبوا حياة يسوع مثل (رنان) وأمثاله ولم يكونوا يقولون بألوهيته ولا بمعجزاته ولا بتقرر الفداء من الأزل فقد ذهبوا إلى أن الصلب والموت على الصليب وقعا ولكن القيامة من القبر لم تقع ووجود شاب لابس ملابس بيضاء في القبر يقول أن المسيح قام من الموت هذا لم يقع وإنما زعم التلاميذ ذلك من شدة تخيلهم وهيامهم في حب المسيح إلى حد أنهم ظنوه نزل عليهم وأكل معهم وأن كل ما ورد من ذلك في الأناجيل لم يقع وإنما هو خيال في خيال حملهم عليه الحب. وبالاختصار النصارى يقولون أن المسيح

مات مصلوباً ودفن في المغارة وفي اليوم الثالث قام وصعد إلى السماء وأنه بعد قيامه تجلى للتلاميذ وتعشى معهم وأمرهم بنشر دينه وودعهم والمسلمون يقولون أنه لم يكن هو المصلوب وإنما صلب شخص آخر عوضاً عنه، وأن الله رفعه إليه وهناك رأي من الآراء الغريبة عند بعض النصارى هو أنه في قوله تعالى: ﴿ **وما قتلوه وما صلبوه** ﴾ لا يقصد نفي القتل والصلب عن الجسد وإنما يقصد إنهم إن كانوا قتلوا الجسد فلم يقدروا أن يقتلوا الروح وأن الله رفع تلك الروح إليه. ورأي آخر أنه رفع على الصليب إلى أن أقبل الظلام فأنزل إلى القبر حيا ولكن بصورة ميت. وبعد أن أدخل المغارة جيء إليه بثياب فلبسها وترك الثياب الملطخة بالدم. وكانت مريم أم عيسى ومريم المجدلية وبعض نساء وبعض رجال لم يفارقوا يسوع منذ صلب إلى أن خرج من المغارة فالأرجح أنهم هم الذين أتوه بالثياب ليبدلها ثم أن عيسى بعد ذلك بمدة قصيرة جاء واجتمع بتلاميذه وتعشى معهم ثم فارقهم وأبعد في الأرض خوفاً من الوقوع في يد الحكومة مرة ثانية وقيل إنه ذهب إلى الهند وتوفاه الله هناك. وهذا الرأي الأخير مخالف لرواية الإسلام والنصرانية معاً كما أن الرأي الذي قبله وهو الذي يحاول أن يفهم أن قول القرآن ﴿ وما قتلوه **وما صلبوه** ﴾ لا ينفي موت جسد المسيح على الصليب وإنما يعني روحه ويعني عمله في الأرض هذا الرأي الوحيد هو الذي حاول به بعض الغربيين التوفيق بين عقيدتي الإسلام والمسيحية. وهو الرأي الذي يحاوله درمنغم لأنه رأى فيه التوفيق بين الديانتين في أهم ما اختلفتا فيه غير أن هذا الرأي أيضاً مخالف تماماً سياق الآية الكريمةالتي تنفي عن نبي الله تعرضه للقتل أو الصلب فضلاً عن وقوعها عليه لا بالجسد ولا بالروح.

هذا وللشيخ: السيد رشيد رضا صاحب المنار رسالة جيدة في هذا الموضوع بالتفصيل ونحن نحيل عليها لمن رغب المزيد حول هذا الموضوع

قوى المقاومة اليهودية للمسيحيين

منذ المراحل الأولى المبكرة لدعوة السيد المسيح هـذه الدعـوة النقية الطاهرة وعناصر الرفض اليهودي لهذا الدين المسيحي قوية وشديدة باعتبار أن مقومات الحق والدعوة لعمل الخير في مسيحية السيد المسيح التي دعا إليها وارتبط بها أتباعه تتعارض والطبع اليهودي الملتوي والنهاز.

ومن هنا راحت القوى اليهودية المختلفة تتخذ من نفسها قوة الرفض الديني قبل أن تكون قوة المقاومة السياسية لكن الخطير في موقف القـوى اليهودية في مقاومتها للتعاليم المسيحية هو المرحلة التي تم فيها تجنيد القوى الرسمية والسياسية في عصر البلاد لمقاومة المسيحية.

يقـول المؤرخ (إدوارد جيبون) في كتـاب (اضمحلال الأمبـراطـوريـة الرومانية وسقوطها) ومن الجزء الأول في الطبعة العربية.

ويبدو أن السياسة الدينية القديمة اتخذت موقفاً أشد صلابة وأبعد عن التسامح لتقاوم تقدم المسيحية وبعد نحو ثمانين عاماً من نهاية المسيح عوقب تلاميذه الأبرياء بالإعدام، بناء على قوانين سنها أمبراطـور اتسمت إدارته العامة بالحكمة وكم امتلأت صفحات الدفاع التي وجهت مراراً إلى خلفاء تراجان بالشكاوى المحزنة المثيرة من أن المسيحيين الذين استجابوا لحريـة الضمير وتوسلوا إليها، حرموا وحدهم، دون سائر رعايا الأمبراطوربة من المزايا المشتركة لحكومتهم السعيدة الموفقة. وسجلت بعناية وفاة عدد غير قليل من

الشهداء البارزين. ومنذ الوقت الذي تسلمت فيه المسيحية مقاليد السلطة العليا لم يكن حكام الكنيسة أقل انشغالاً وتيقظاً إلى الكشف عن قسّوة مخالفيها الوثنين منهم بالاقتداء بهم في سلوكهم.

وأنه لينذر أن يكون أتباع الديانة المضطهدة، الذين يقض الخوف مضاجعهم ويهيجهم الاستياء، وربما يلهبهم الحماس - يندر أن يكونوا في مزاج عقلي سليم، يمكنهم من التنقيب الهادىء أو التقدير الصادق لبواعث أعدائهم تلك البواعث التي كثيراً ما تغيب عن النظرات المتجردة الغامضة حتى لأولئك الذين يقفون في مأمن وبمنأى عن نيران الاضطهاد، وقد ذكر لسلوك الأباطرة إزاء المسيحيين الأولين، على وجه التحديد، سبب يبدو أنه أكثر تمويهاً وأقرب احتمالا، لأنه مشتق من عبقرية الشرك المعترف بها. فقد كان الملحوظ بالفعل أن الوئام الديني في العالم كان يعزره في الأساس القبول والاحترام الصريحان اللذان كانت تظهرهما الأمم القديمة كل منها نحو تقاليد الأخرى وطقوسها. ومن ثم كان من المتوقع أن تتحد كلها، بلا حرج ولا غضب، ضد أية طائفة أو شعب ينزع نفسه عن جماعة الجنس البشري ويحتقر بالضرورة - بحكم ادعائه الملكية المطلقة للمعرفة الإلهية - أي لون من العبادة باعتباره ضلالاً ووثنية، اللهم إلا عبادته هو فحسب. وكانت المثابرة على رعاية حقوق التسامح متبادلة بين البشر. وكانت هذه الحقوق تضيع عند الامتناع عن دفع الجزية المعتادة. ولما كان اليهود وحدهم هم الذين امتنعوا بتاتاً عن دفع الجزية، فإن الباعث الذي حذا بحكام الرومان إلى المعاملة التي لقيها منهم اليهود قد يوضح إلى أي مدى تبرز الحقائق هذه التأملات وتؤدي إلى الكشف عن الأسباب الحقيقية لاضطهاد المسيحية.

وسوف نشير إلى احترام الملوك والحكام الرومان للهيكل في أورشليم وإلى أن تدمير الهيكل والمدينة اقترنا كما أعقبهما بكل الظروف التي تغضب الفاتحين ويتيح الاضطهاد الديني بأشد ذرائع العدالة الاجتماعية والأمن العام تمويهاً وخداعاً، فمنذ عهد نيرون حتى عهد أنطونينوس بيوس أظهر اليهود

ضجراً جديداً يحكم روما تجلى مراراً في أعنف المذابح والثورات. وأن العالم ليصعق لدى سماعه بأفظع أعمال القسوة الرهيبة التي أرتكبوها في مدن مصر وقبرص وبرقة، حيث عاشوا في صداقة خائنة مع المواطنين غير المرتابين وإننا لنميل إلى امتداح القصاص الشديد الرادع الذي أنزلته فرق الجيش بهذا العنصر من المتعصبين الذين يبدو أن خرافتهم (عقيدتهم) الشريرة الغريرة جعلت منهم أعداء الداء، لا للحكومة الرومانية وحدها، بل للجنس البشري بأسره، وكان حماس اليهود يستند إلى الرأي القائل بأن دفع الضريبة لسيد وثني أمر غير مشروع لديهم وإلى الوعد الموهوم الذي استقوه من الوحي القديم الذي لديهم بقرب ظهور المسيح الذي سيفتح العالم، ويحطم أغلالهم ويخلع أمبراطورية الأرض على أحياء السماء المقربين. وقد أعلن باركوكبياس الشهير نفسه مخلصهم الذي طال انتظارهم له وأهاب بذرية إبراهيم أن يحققوا أمل إسرائيل، وبهذا جمع جيشاً كبيراً تحدى به سلطان الأمبراطور هادريان لمدة عامين.

ورغم الإثارات المتكررة زال استياء الأمراء الرومان بعد انتصارهم ولم تدم مخاوفهم لأكثر من فترة الحرب والخطر. وبفضل التسامح العام الذي يتميز به مذهب الشرك [الكلام لإدوارد جبيون] وبفضل الطبع الرقيق المعتدل الذي تميز به انطونيتوس بوس أعيدت لليهود امتيازاتهم القديمة ورخص لهم ثانية في ختان أطفالهم مع قيد بسيط واحد وهو عدم إجراء هذه العملية المميزة للعبرانيين لأي مهتد أجنبي. وسمح للبقايا الكثيرة من هذا الشعب، رغم أنهم ظلوا بعيدين عن تخوم أورشليم بإنشاء المؤسسات الكبيرة أو الاحتفاظ بها في إيطاليا وفي الولايات وبالغوا في الحصول على حرية رومة، وبالتمتع بمزايا المدينة، على أن يكون في نفس الوقت حق الإعفاء من مناصب المجتمع الثقيلة العبء الكثيرة النفقة، وهيأ اعتدال الرومان أو احتقارهم لهذه الطائفة سنداً قانونياً لإنشاء نوع من الشرطة الملية (الكنيسة) وحول الحاخام الذي اتخذه مقره في طبرية سلطة تعيين القسس والحواريين التابعين له وأن يمارس القضاء المحلي، وأن يتلقى من إخوانه المبعوثين هنا وهناك إعانات سنوية. وكثيراً ما شيدت هياكل جديدة في المدن الرئيسية في

الإمبراطورية وأقيمت احتفالات مهيبة عامة في أيام السبت أو لمناسبة الصوم، أو الأعياد التي نزلت بها شريعة موسى، أو أوصت بها تقاليد الأحبار، وهدأت هذه المعاملة الكريمة من طبع اليهود الحاد بطريقة غير ملحوظة فلما أفاقوا من علم النبوءة والغزو نهجوا منهج الرعايا المسالمين المجدين، أما كراهيتهم التي لا تهدأ للجنس البشري، فإنها بدلاً من أن تتقد في أعمال العنف والدم استنفذت في أعمال أقل خطراً ولكنها أعمال تشبع رغباتهم. وانتهزوا كل فرصة للتفوق على الوثنيين في التجارة وصبوا اللعنات الخفية الغامضة على مملكة إيبورم (أي الدولة الرومانية) المتغطرسة.

وإذ تمتع اليهود الذين نبذوا في مقت واحتقار معبودات ملوكهم وأقرانهم من الرعايا بالحرية في ممارسة ديانتهم الانعزالية غير الاجتماعية على أية حال، فلا بد أنه كان يوجد سبب آخر عرض تلاميذ المسيح لأعمال القسوة التي أعفيت منها ذرية إبراهيم، والفرق بينهما بسيط جلي، ولكنه كان وفقاً لمقاييس الأقدمين أو مشاعرهم على أعظم جانب من الأهمية ذلك أن اليهود كانوا أمة ولكن المسيحيين فرقة أو شيعة وإذا كان طبيعياً أن تحترم كل جماعة النظم المقدسة لجيرانها فإنه كان لزاماً عليهم أن يبقوا على ملة آبائهم، ولقد فرض صوت الوحي وتعاليم الفلسفة وسلطان القانون بالاجماع، هذا الالتزام الوطني، وربما أثار اليهود بادعائهم العريض تفوقهم في الطهارة والقداسة حفيظة المشركين فاعتبروا اليهود جنساً كريهاً ممقوتاً غير نقي، وربما كان اليهود جديرين بهذا الاحتقار نتيجة ترفعهم عن الاتصال بالأمم الأخرى. وربما كانت قوانين اليهود مستهترة أو عابثة، ولكن طالما تلقاها على مر الأجيال مجتمع كبير، فقد كان لاتباع موسى في بني الإنسان أسوة وفيما أقروه عامة سند سيبرّر حقهم في ممارسة ما قد يكون إجراماً منهم أن يهملوه، ولكن هذا المبدأ الذي حمى كنيس اليهود لم يقدم للكنيسة في صدر المسيحية أية رعاية أو أمن. بل أن المسيحيين باعتناقهم رسالة الإنجيل جلبوا على أنفسهم الوزر المزعوم، وزر جريمة غير طبيعية لا تغتفر: إنهم حلوا روابط العرف والتعاليم المقدسة، وانتهكوا حرمة النظم الدينية في بلدهم

واحتقروا في جرأة ووقاحة كل ما آمن به آباؤهم على أنه حق أو يجلوه على أنه مقدس. كما أن هذه الردة (إذا جاز أن تستعمل هذه اللفظة) لم تكن جزئية أو محلية، لأن المرتد التقي الذي كان ينسحب من معابد مصر وسوريا كان يستنكف أن يلتمس ملجأ في معابد أثينا وقرطاجة. ونبذ كل مسيحي في ازدراء خرافات عشيرته ومدينته وولايته، ورفض جمهور المسيحيين عامة أي ارتباط بآلهة رومة أو الأمبراطورية بل بمعبودات الجنس البشري بأسره وعبثاً أكد المؤمن المغبون حقوق الضمير والرأي الخاص التي هي وقف على كل فرد. ومهما دعا موقفه إلى الإشفاق فإن حججه لم تنفذ إلى عقول الفلاسفة أو المؤمنين في دنيا الأوثان. بل أن اعتناق بعض الأفراد للشكوك بدلاً من الامتثال للون العبادة المقررة، لم يثر في عقولهم دهشة أقل منها فيما لو وقعت عيونهم فجأة على كراهية للعبادات والزي واللغة في وطنهم.

وسرعان ما تحولت دهشة الوثنيين إلى سخط واستياء، وتعرض أتقى الناس للإتهام الجائر ولكنه الخطير، أي الكفر والإلحاد، واجتمع الحقد والتعصب على تصوير المسيحيين على أنهم مجتمع من الكفار الذين استحقوا لهجومهم البالغ على الدستور الديني للأمبراطورية ـ أعنف سخط من الحكومة المدنية، فإنهم نأوا بأنفسهم (وكم طرب المسيحيون لهذا الاعتراف) عن كل لون من ألوان الخرافة رحب به أي فريق من أئمة الشرك في مختلف أقطار الأرض، كما أنه لم يتضح قط أي معبود وأية عبادة استبدلوها بمعبودات القدماء ومعابدهم. ولقد غابت الفكرة النقية السامية فكرة (الكائن الأعظم) عن الإدراك البليد لدى جمهور الوثنيين الذين حاروا في العثور على إله روحي أحد لا يتمثل في صورة مجسمة أو رمز مرئي، ولا يعبد بالأبهة المعهودة في سكب الخمر والأعياد والمذابح والقرابين. إن حكماء اليونان وروما الذين سموا بعقولهم إلى مرتبة التأمل في الوجود وفي صفات (الكائن الأول) قد أغراهم إدراكهم أو زهوهم بأن يحتفظوا لأنفسهم وللصفوة من تلاميذهم بامتياز هذا النسك الفلسفي. وكانوا أبعد ما يكونون عن إقرار أهواء بني الإنسان على أنها مقياس الحقيقة ولكنهم اعتبروها منبثقة عن النزعة

الأصلية في الطبيعة البشرية، وذهبوا إلى أن أي لون مألوف من العقيدة أو العبادة، رغم التنصل من مساعدة الحواس لا بد أنه بنسبة ما يتنحى عن الخرافة سيجد نفسه عاجزاً عن الحد من شطحات الخيال أو إشباح التعصب. إن النظرة الواهية المستهترة التي تفضل رجال العقل والعلم على الوحي المسيحي لم تجد إلا في توكيد رأيهم المتسرع وإقناعهم بأن المبدأ الذي كان يمكن أن يحترموه، مبدأ (وحدانية الله) قد شوهته حماسة الطوائف الجديدة، وأطاحت به التأملات الخيالية، وأنك لترى مؤلف الحوار المشهور الذي نسب إلى لوشيان، حين يتظاهر بمعالجة موضوع (التثليث) الغامض في أسلوب من التسفيه والتحقير - تراه يفضح جهله بضعف الإدراك الإنساني وبالطبيعة العويصة التي لا يمكن إدراك كنهها، طبيعة الكمال الإلهي.

ولقد بولغ إلى أقصى حدود المبالغة في الجرم الذي ارتكبه كل مسيحي في إيثاره عاطفته الخاصة على الديانة الوطنية وجاءت هذه المبالغة نتيجة لتعدد المجرمين واتحادهم. ومن المعروف جيداً وقد لوحظ بالفعل أن السياسة الرومانية كانت تنظر بأشد القلق والريبة إلى أية رابطة تقوم وسط رعايات، وكانت الامتيازات تمنح للهيئات الخاصة في أضيق الحدود، وفي تقتير شديد رغم أن الهيئات كانت ذات أهداف خيرة بعيدة عن الأذى والضرر. ولكن الجمعيات المسيحية التي انفصلت عن العبادة العامة الشائعة بدت ذات طبيعة أقل براءة، فقد كانت غير مشروعة من حيث المبدأ، وربما بانت خطيرة من حيث العواقب، ولم ير الأباطرة أنهم انتهكوا حرمة قوانين العدالة حين حرموا - حرصاً على سلامة المجتمع هذه الاجتماعات السرية والليلية أحياناً. لقد عكس تمرد المسيحيين التقي الورع على سلوكه أو ربما على خططهم ضوءاً بدا للناظرين منذراً بخطر أشد وإجرام أفدح. وفي بعض الأحيان حاول الأمراء، الرومان الذين أجازوا لأنفسهم أن يلقوا سلاحهم إذا ما رأوا الاستعداد للتسليم والانقياد، مقدرين أن شرفهم متعلق بنصيبهم أو بسرهم - حاولوا بالعقوبات الرادعة أن يخضعوا هذه الروح الاستقلالية التي اعترفت في جرأة بسلطان يسمو على سلطان الحكام وبدا أن اتساع مدى هذه المؤامرة

واستطالة مدتها. جعلها يوماً بعد يوم أحق بلومه وسخطه، ولقد رأينا بالفعل كيف أن غيرة المسيحيين الجادة الموفقة قد أدت إلى انتشار همج بشكل غير ملحوظ، في كل ولاية بل على الأغلب في كل مدينة في الأمبراطورية وبدا أن المهتدين الجدد أنكروا عشيرتهم وبلدهم حتى يندمجوا في عصبة موحدة لا تنفصم عراها، تشكل مجتمعاً خاصاً معيناً اتخذ في كل مكان طابعاً مغايراً لسائر البشر، وأدخل مظهرهم العبوس المتشدد، وعزوفهم عن الأعمال والمباهج المشتركة في الحياة وتنبؤاتهم الكثيرة بالبلايا المحدقة كل أولئك أدخل في روع الوثنيين توجس الخيفة من خطر ينجم عن هذه الطائفة الجديدة التي هي أشد ازعاجاً كما أنها أشد غموضاً. وكما قال بليني (مهما يكن من أمر المبدأ الذي يحكم سلوكهم، فإن عنادهم الذي لا يلين ولا ينثني بدا جديراً بالعقاب).

وأملى الخوف والضرورة في البداية تلك الاحتياجات التي لجأ إليها تلاميذ المسيح في إقامة شعائر دينهم ولكنهم استمروا عليها طواعية واختبارا وتوهم المسيحيون أنهم ـ باقتدائهم بالكتمان العجيب الذي كان يحوط (الأسرار الأليوسية): (احتفالات دينية كانت تقام في الربيع قديماً بمدينة اليوسيس في اليونان) ـ قد يضفون على نظمهم المقدسة مزيداً من الاحترام في أعين العالم الوثني. ولكن هذا التصرف ـ كما حدث غالباً في عمليات السياسة الحاذقة ـ خدع أمانيهم وآمالهم. فقد استنتج أنهم إنما حجبوا فقط عن الأنظار كل ما كان يجدر أن تحمر وجوههم خجلاً لإخفائه. فإن فطنتهم قد هيأت الفرصة للحقد أن يخترع وللسذاجة المرتابة أن تصدق تلك القصص الشنيعة التي تعنف المسيحيين بأنهم أشر البرية، وأنهم كانوا في خلواتهم المظلمة يأتون من المنكرات ما يزينه لهم أحط الخيال، ويلتمسون رضا إلههم المجهول عن طريق التضحية بكل فضيلة أخلاقية. وكان ثمة كثيرون ممن ادعوا الاعتراف بطقوس هذا المجتمع البغيض أو سرد أتباعها فقيل على وجه التأكيد أن (طفلاً حديث الولادة مغطى تماماً بالدقيق، كان يعرض ـ وكأنه رمز روحاني للدخول في الأخوية المسيحية لسكين المهتدي الجديد الذي يهوى به فيثخن

على غير هدى التضحية البريئة لخطاياه بكثير من الجروح الخفية القاتلة، حتى إذا ما انتهى من ارتكاب هذا العمل القاسي، شرب المجتمعون الدم ومزقوا الأوصال المرتعدة في شره ونهم. وتعاهدوا على كتمان السر إلى الأبد شاعرين شعوراً متبادلاً بالذنب كما قيل بنفس القدر من التأكيد، أن هذه التضحية غير الإنسانية كان يعقبها حفل لائق تلعب الخمر فيه برؤوسهم وتوقظ الشهوة البهيمية الجامحة بين ضلوعهم حتى إذا حانت اللحظة المقررة أطفئت الأنوار فجأة وخلعوا عذار الحياء وتناسوا الطبيعة واختلط الحابل بالنابل ولوثوا سواد الليل بارتكاب أشنع الفواحش الأخوة مع الأخوات والأبناء مع الأمهات.

ولكن قراءة الدفوع القديمة كانت كافية لإزالة حتى أتفه الشكوك من ذهن الخصم المنصف العادل. ومن ثم يعمد المسيحيون ـ في اطمئنان جريء إلى براءتهم ـ إلى الاستعانة من ظلم الشائعات بأنصاف الحكام. فيقررون أنهم يكونون جديرين بأشد العقاب إذا أقيم أي دليل على الجرائم التي ألصقتها بهم الوشايات. أنهم يتعجلون العقاب. ويتحدون البيئة وفي نفس الوقت يعترضون بشدة، وبنفس القدر من الصدق واللياقة. بأن الاتهام ليس أقل بعداً عن الاحتمال، منه تجرداً من الحجة والبرهان ويتساءلون عما إذا كان هناك من يصدق أن تعاليم الإنجيل النقية المقدسة التي غالباً ما تحد من التنعيم بأكثر المتع مشروعية، تصرف الذهن إلى اقتراف أبغض الآثام، وأن مجتمعاً كبيراً يعمد إلى تلطيخ شرفه في أعين أعضائه، وأن جمعاً كبيراً من الجنسين من مختلف الأعمار والأخلاق. لا يتأثر بالخوف من الموت أو الفضيحة فينتهك حرمة المبادىء التي نقشتها الطبيعة والتعليم في عقولهم مثل النقش في الحجر. وقد يبدو أنه ليس ثمة شيء يمكن أن يضعف من قوة أو من أثر مثل هذا التبرير الذي لا يستطاع نقضه، اللهم إلا السلوك الغرير لأولئك المدافعين الذين خانوا قضية الدين إرضاء لبغضهم المروع لأعداء الكنيسة المحليين، وقيل ـ تلميحاً طفيفاً تارة وتوكيداً جرئياً تارة أخرى ـ أن هذه الضحايا الدموية وهذه الأعياد الفاحشة التي نسبت زوراً وبهتاناً إلى المؤمنين الأرثوذكس ـ كان يحتفل بها المركيونيون والكريكراتيون وغيرهم من

شيع الغنوصبين (اللاأدريين) الذين كانوا لا يزالون يتأثرون بمشاعر المسيحيين وتحكمهم تعاليم المسيحية، رغم أنهم ربما انزلقوا إلى مهاوي الهرطقة كما ألصق بالكنيسة اتهامات من مثل هذا النوع جماعة المنشقين الذين انفصلوا عنها، وقد اعترف في جميع الأحوال بأن أشد السلوك فجوراً كـان يسود الأفواج الكبيرة التي تظاهرت باعتناق المسيحية وربما سهل على الحاكم الوثني الذي لم يؤت فسحة من القوة أو شيئاً من القدرة على تبين الخط الطفيف غير المحسوس الذي يفصل بين الإستقامة وبين الهرطقة ـ سهل عليه أن يتصور أن البغضاء المتبادلة بينهم هي التي أزاحت الستار عنوة عن جرائمهم المشتركة وكان من حسن حظ المسيحيين الأولين ـ من أجل طمأنينتهم أو على الأقل سمعتهم ـ أن تصرف الحكام اتسم أحياناً بمزيد من اللياقة والاعتدال أكثر مما يتأتى مع الغيرة الدينية، وقالوا ـ كنتيجة متجردة غير متحيزة لتحرياتهم القانونية ـ إن الطوائف التي تخلت عن العبادة القائمة بدت لهم مخلصة في عقائدها وأنه لا غبار على سلوكها مهما تعرضت لمؤاخذة القانون بخرافتها الصرفة الحمقاء.

موقف الأباطرة من المسيحيين

إن التاريخ الذي يأخذ على عاتقه تسجيل أحداث الماضي لتكون عبرة وتوجيها للأجيال القادمة لا يستحق شرف هذه المهمة، إذا تنازل فدافع عن قضية الطغيان أو برر منهج الاضطهاد. ومهما يكن من أمر فإنه يجب الاعتراف بأن سلوك الأباطرة الذين بدا أنهم أظهروا أقل العطف على الكنيسة الأولى ليس بأي حال من الأحوال في مثل القدر من الإجرام الذي يتسم به سلوك الملوك الحديثين الذين استخدموا وسائل العنف والإرهاب للآراء الدينية التي اعتنقها بعض رعاياهم. وربما اكتسب ملك مثل شارل الخامس أو لويس الرابع عشر، بوحي من تأملاتهم أو من مشاعرهم الخاصة. معرفة صادقة بحقوق الضمير أو بالتزامات العقيدة. أو ببراءة الخطأ. ولكن أمراء رومة القديمة وحكامها كانوا غرباء على هذه المبادىء التي ألهبت وعززت عناد المسيحيين الذي لا يلين في قضية الحقيقة، كما أنهم هم أنفسهم لم يستطيعوا أن يتبينوا في أعماق صدورهم أي باعث كان من الجائز أن يدفعهم إلى رفض الخضوع المشروع، بل الطبيعي للنظم المقدسة في بلادهم وكان نفس السبب الذي يساهم في تخفيف جريمة اضطهاداتهم لا بد وأنه اتجه إلى الحد منها. ولما كانوا يصدرون، لا عن غيرة المتعصبين العنيفة! بل عن سياسة المشرعين المعتدلة فلا بد أن العصيان كثيراً ما أرخى، وأن الروح الإنسانية الطيبة غالباً ما عطلت تنفيذ تلك القوانين التي سنوها ضد اتباع المسيح الأذلاء المغمورين. وطبيعي أن نخلص من النظرة العامة إلى أخلاقهم وبواعثهم إلى:

١ ـ أنه قد مضى زمن طويل قبل أن يتبينوا أن الطائفة الجديدة تستحق اهتمام الحكومة.

٢ ـ وأنهم في إدانة أي من رعاياهم الذين اتهموا بمثل هذه الجريمة الشاذة تصرفوا في حذر وعلى كره منهم.

٣ ـ وأنهم كانوا معتدلين في استخدام العقوبات.

٤ ـ وأن الكنيسة المنكوبة نعمت بفترات كثيرة من السلام والهدوء وعلى الرغم من الاستهتار العقيم المهمل الذي عالج به أغزر الكتاب الوثنيين مادة وكذا أدقهم في التفاصيل في شؤون المسيحيين فإنه سيظل في مكنتنا أن نثبت كل واحد من هذه الفروض المحتملة بشواهد من الحقائق الصادقة الصحيحة.

١ ـ وقد كان من أهمها أن تسدل على طفولة الكنيسة الأولى حجاباً غامضاً، أفلح ـ حتى اشتد عود العقيدة المسيحية وزاد عدد المسيحيين ـ في وقايتهم لا من شر دنيا الوثنية فحسب بل حتى مجرد معرفتها بهم فقد زود الإلغاء المتدرج المتأني للطقوس الموسمية أول الداخلين في شريعة الإنجيل بقناع أمن بريء، ولما كان معظمهم من عشيرة إبراهيم فإنهم تميزوا بتلك العلامة الخاصة وهي الختان وقاموا بعباداتهم في معبد أورشليم حتى دمر تدميراً نهائياً، وتقبلوا (الشريعة) والرسل على أن الجميع تنزيل أصيل من عند الله. أما الأمميون المتحولون الذين كانوا قد ارتبطوا بأمل إسرائيل نتيجة اختيار روحي، فقد كان يصعب تمييزهم وهم في زي اليهود ومظهرهم ولما كان اهتمام المشركين بأركان العقيدة أقل من اهتمامهم بالمظاهر الخارجية للعبادة فإن الطائفة الجديدة التي أخفت في عناية تامة، أو أعلنت إعلاناً خافتاً لا عن عظمتها وأطماعها المستقبلة سمح لها أن تظلل نفسها بظل التسامح العام الذي كان ممنوحاً لشعب قديم مشهور في الامبراطورية الرومانية وربما لم يمض وقت طويل قبل أن يدرك اليهود أنفسهم وقد تملكتهم غيرة أشد ضراوة وأثارهم إيمان أشد حقداً، ان أخوتهم النصارى ينفصلون تدريجاً عن عقيدة

الكنيس اليهودي، وربما طاب لهم أن يطفئوا نيران هذه الهرطقة الخطيرة بدماء اتباعها ولكن القضاء أحبط كيدهم ورغم أنهم عمـدوا في بعض الأحيان إلى التمرد المفاجىء فإنهم لم يعودوا يملكون زمام القضاء الجنائي كما لم يكن من السهل عليهم إخفاء كراهيتهم وأعلن حكام الولايات أنهم على استعداد للاستماع إلى أي اتهام من شأنه أن يضر بالسلامة العامة ولكنهم حالما كانوا يعرفون أن المسألة مسألة كلام لا حقائق ونزاع حول تفسير شرائع اليهود ونبوءاتهم كانوا يعتبرون أنه لا يليق بمكانة رومة وعظمتها أن يبحثوا بحثاً جديداً في الخلافات الغامضة التي تنشأ بين شعب متبربر يؤمن بالخرافات، وكأني بالجهل والاحتقار كانا يحميان براءة المسيحيين الأولين. وكثيراً ما ثبت أن القضاء الحاكم الوثني كان خير عاصم لهم من غضب الكنيس اليهودي.
ولو كنا نجنح حقاً إلى تبني تقاليد القدامى السذج الاغرار لسردنا الجولات النائية والمنجزات العجيبة التي قام بها الرسل أو الحواريون الاثنا عشر والميتة المختلفة التي لقيها كل منهم ولكن الاستقصاء الذي هو أكثر دقة قد يدفع بنا إلى الارتياب في أن واحداً من هؤلاء الأشخاص الذين كانوا شهوداً على معجزات المسيح قد أذن له فيما وراء حدود فلسطين أن يؤكد ببصمات من دمه صدق شهادته...(1) ومن الطبيعي أن نفترض، تبعاً للأجل العادي لحياة الإنسان أنهم قضوا نحبهم قبل أن ينفجر سخط اليهود في تلك الحرب الضروس التي لم يضع لها حداً إلا تدمير أورشليم فإننا طوال هذه الحقبة الطويلة التي انقضت بين موت المسيح وبين هذه الثورة المشهودة لن تستطيع أن نتبين أي آثار لتشدد الرومان أو عدم تسامحهم اللهم إلا في هذا الاضطهاد المفاجىء العابر ولكنه كذلك القاسي الذي أذاقه نيرون للمسيحيين في العاصمة بعد خمس وثلاثين سنة من سابقة، وقبل عامين من ثاني هذين

(١): اقتصرت التضحية في أيام توتوليان وكليمنز السكندري على القديس بطرس والقديس بولس والقديس يوحنا. وقد أسبغ هذا العمل على بقية الرسل الإغريق الذين هم أحدث عهداً، والذين اختاروا فطنة وحرصاً منهم بلداً نائياً عن حدود الإمبراطورية الرومانية ليكون مسرحاً لوعظهم وآلامهم.

الحدثين الجسيمين وإن شخصية المؤرخ الفيلسوف الذي ندين له بالتعرف على هذا العمل الشاذ لتكفي وحدها لتجعله أهلاً لدراستنا الواعية.

ففي السنة العاشرة من حكم نيرون أشعلت العاصمة بحريق اندلع في شدة لم يعرف لها في العصور الخوالي نظير أو مثال. ولم تنج من الدمار الشامل آثار اليونان وقوة الرومان والأنصاب التذكارية لحروب البلوبونيز والغال وأقدس المعابد وأفخم القصور. ومن الأحياء الأربعة عشر التي كانت تضمها رومة، سلم أربعة فقط ومحى منها ثلاثة محواً تاماً أما الأحياء السبعة الباقية التي تلظت في سعير النيران فقد كشفت عن منظر مفجع حزين للخراب والوحشة ولا يبدو أن يقظة الحكومة لم تغفل اتخاذ أية احتياطات لتخفف من أثر هذه الكارثة الرهيبة. ففتحت الحدائق الامبراطورية أبوابها للجموع المنكوبة وشيدت بعض المباني المؤقتة لإيوائهم ووزعت كميات كبيرة من القمح والمؤن بأسعار معتدلة. وبدا أن أكرم سياسة قد أملت القوانين التي حددت فتح الشوارع وإقامة المساكن الخاصة ـ وكما يحدث عادة في أيام الرخاء ـ وانتج حريق رومة في بضع سنين قلائل، مدينة جديدة، أدق نظاماً وأوفر جمالاً من سابقتها. ولكن كل الفطنة والروح الإنسانية اللتين تظاهر بهما نيرون لم تنقذه من شكوك الشعب فإن أية جريمة يمكن أن تلصق بقاتل زوجته وأمه كما يستحيل الظن بأن الأمير الذي أساء إلى شخصه وإلى مكانته يعجز عن ارتكاب أشنع الخطايا. واتهمت الإشاعات الامبراطور بإحراق عاصمته عمداً ولما كانت أبعد القصص عن التصديق هي التي تلتئم أكثر ما يكون الالتئام مع عبقرية الشعب في سورة غضبه. فقد ذكر في أسلوب جاد لا هذر فيه كما ساد الاعتقاد الجازم الراسخ بأن نيرون الطروب للكارثة التي أحدثها تسلى على قيثارته بأنشودة تدمير طروادة القديمة. وصمم الامبراطور على الصاق التهمة ببعض المجرمين الوهميين ليحول عن شخصه الشبهة التي عجزت قوة الاستبداد عن القضاء عليها. ويتابع (تاسيتس) حديثه فيقول: (وعلى هذا الأساس أنزل نيرون أشد ألوان العذاب بهؤلاء الرجال الذين كانوا ـ تحت اسم المسيحية ـ القبيح (في رأي نيرون) ـ قد وصموا فعلاً بأشنع العار، فقد

اشتقوا اسمهم ونشأتهم من المسيح الذي لقي حتفه في عهد تيبيريوس، على يد نائب الحاكم بيلاطس البنطي. وأخمدت هذه الخرافة المروعة لفترة قصيرة ولكنها ما لبثت أن انتشرت وذاعت لا في أرض الميعاد وحدها وهي الموطن الأول لهذه الطائفة الشريرة بل كذلك وصلت إلى رومة وهي الملاذ العام الذي يلتقي ويحمي كل ما هو ملوث مهما كان تلوثه وكل شيء فظيع مهما بلغت فظاعته، وكشفت اعترافات المقبوض عليهم عن شركاء كثيرين لهم وأدينوا جميعاً بتهمة كراهيتهم للجنس البشري أكثر منهم بتهمة إشعال النار في المدينة. وعذبوا حتى ماتوا، وزاد السباب والسخرية من مرارة التعذيب. ودق بعضهم بالمسامير على الصلبان وخيط آخرون في جلود الحيوانات المتوحشة وتركوا لهم الكلاب وسكب على بعضهم مواد محرقة واتقدت فيهم النار، واستخدموا كمشاعلها تضيء حلكة الليل. وخصصت حدائق نيرون للمشهد الحزين الذي صحبه سباق للخيل والذي شرف حضور الامبراطور الذي اختلط بالشعب في زي وهيئة قائد عجلة حربية واستحقت جريرة المسيحيين في الواقع أقسى عقاب يكون عبرة لغيرهم ولكن الملف العام تحول إلى إشفاق استناداً إلى أن التضحية بهؤلاء الأشقياء التعساء لم تكن من أجل المصلحة العامة قدر ما كانت لقسوة الطاغية الحقود. وقد يلحظ كل الذين يستعرضون ثورات الجنس البشري بنظرات فاحصة مدققة أن حدائق وملعب نيرون في الفاتيكان تلك التي لطخت بدم المسيحيين الأولين قد ازدادت شهرتها بانتصار الديانة المضطهدة وبسوء استغلالها، ففي نفس البقعة ومن ذاك العهد، أقيم معبد يفوق الروعة القديمة للكابيتول بكثير أقامه أحبار المسيحية الذي استمدوا دعوى ملكية العالم من صائد السمك المتواضع في (الجليل) فأعلوا عرش القياصرة وسنوا القوانين لغزاة رومة المتبررين، وبسطوا ولايتهم من ساحة البلطيق إلى شواطيء المحيط الهادىء.

وبعد، قد يتساءل المرء عن موقف المسيحية ديناً من أحلام صهيون علها تلتقي وإياها على صعيد في تفسير تضفيه على وعود حفلت بها التوراة لبني إسرائيل في أرض تمتد من النيل إلى الفرات.

وذلك أن المسيحية رسالة تكمل شريعة موسى وتحقق وعود الأنبياء في المسيح هادياً ومخلصاً تنكر له البعض من اليهود ودان بعضهم الآخر وسار على خطاه الكثير من الأمم، وتلقف تعاليمه العديد من شعوب الأرض.

لسنا من علماء الدين [الكلام لإدوارد جيبون] لنعطي الرأي الحازم في النظرة المسيحية إلى التوراة أو إلى (العهد العتيق) بوجه عام.

ولكن لنا بعد درس وتنقيب في أسس المسيحية وكتبها المقدسة أن نحاول جاهدين تحديد ما يجب علنا نسهم في تفسير توسعت منه الحلقة وكثر حوله الشطط.

ولا بد من الإشارة في معرض بحثنا الحالي إلى أن التوراة وهي جزء من العهد العتيق الذي بشر بالمسيح حفلت في أسفارها الخمسة[1]. «بالوعود والمواثيق» يتذرع بها الصهيونيون بعد حوالي أربعة آلاف عام إرساء لحق «شعب الله المختار» الموعود على أرض كنعان، فلسطين.

* * *

إن الإنجيليين الذين سطروا أقوال المسيح ورسالته، والرسل من بعده توافقوا على أن الله إله المغفرة والرحمة، لا يسند غزوا أو يدعم فتحاً، أو يستقطب الاهتمام لديه رخاء بني إسرائيل وأمنهم، إذ حقق عوضاً عن النصر على الأعداء النصر على الخطيئة والموت، وأمن بدلاً من الحليب والعسل ثمرات الفكر من محبة وسرور وسلام، لأن وعود الله جميعاً تحققت فيه[2].

والمسيحي، على حد تفسير أحد علماء الدين، في احترامه (للكتب المقدسة) لا يؤمن بإسرائيل واقعاً جغرافياً، عنصرياً سياسياً، بل يرى في بني إسرائيل ـ والتعبير للقديس بولس رأي الكنيسة المفكر ـ «جماعة المؤمنين بالله».

---

(١) التكوين (الخروج) العدد، الأحبار، تثنية الاشتراع.

(٢) رسالة القديس بولس الأولى إلى أهل كورنتس، الفصل الخامس عشر منها المقاطع ٥٥، ٥٦ ورسالته الثانية إليهم، فصلها الأول، المقطع ٢٠.

ولئن اعتمدت الكنيسة منذ بدء العهد العتيق كتاباً مقدساً عند المسيحيين فمرد العقيدة كامن وراء الرسالة المسيحية ديناً مكملاً لليهودية ما دامت الوصايا العشر مطاعة، والنبؤات المبشرة بمجيء المخلص قد تحققت بالمسيح.

ليس للمسيحية وقد تسببت لليهود بالمتاعب والاضطهاد، باسم المسيح وفي غفلة عن تعاليمه، أن تأخذ من التوراة نصها الحرفي لتحقق في ضوئه أحلام الصهيونية من غزو ونهب وفتح وإجلاء عن أرض، وأن تتناسى ما بشرت هي وتبشر به من سلام ومحبة وعدالة وعطاء.

لقد تنكر اليهود للأنبياء وأعرضوا عن المسيح محاربين رسالته ناقمين عليه بعد أن دلل على أن «مملكته ليست من هذا العالم» وإن على من يقتفي أثره أن يحمل صليبه ويجرد نفسه من متاع الدنيا.

ويخطىء من يخال أن العهد العتيق، ينظر، نظرة دنيوية إلى الوعود المقطوعة لإسرائيل. وهو يعرض في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد في المراحل التي تلت سبي إسرائيل، إلى الصفات التي يشاؤها الله حقاً في «شعبه» مشدداً على حبه تعالى، للفقراء والمساكين والأتقياء ولكل من تخلى عن ذاته ليتطلع إليه ويتفتح عليه يؤمن به.

«ويبدي العهد ميثاقاً يرتبط به الخالق نحو جميع بني الإنسان». وهكذا وبينما يستند الصهيونيون إرساء لحق مزعوم قائم أبداً على أرض فلسطين إلى «عهد» ثم في معنى معين، وإطار محدود من الزمن نرى أن «العهد» لاقى منذ أقدم العصور التنسير الصحيح على لسان أنبياء (العهد العتيق) وقد مهدوا لرسالة المسيح القائمة على المحبة والعطاء والروح.

إننا، نحن المؤمنين بالمسيح[1]، نجد في الرسالة حافزاً على الصهيونية

---

(١) كلام. (إدوارد جيبون) في كتابه (اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها) جـ ١ الطبعة العربية

وضدها. فهي تبغي سيطرة دنيوية يستقر عمادها في بيت المقدس وترفرف أعلامها على الأمم تحقيقاً (للعطاء) و(للوعد) اللذين يستند إليهما حكماء صهيون والمسيحية تعتبر أن وعود الله «للشعب المختار» تحققت بالمسيح.

ومن البداهة أن رسالة السيد تناقض السيطرة الدنيوية التي يبغيها الإسرائيليون وتبشر بالآخرة التي لا يؤمنون بها وقد حدد فيها السيد مملكته داعياً إلى التضحية بمتاع الدنيا نفسها، سعياً وراءها.

ومن البداهة أيضاً أن الصهيونية أول ما تنافي تعاليم الدين المسيحي وتناقضه وأن رسالة المسيح وقد سمت عن صغائر هذا الكون، وعلت فوق نزعات مادية داعية إلى دنيا أفضل، «لا وجع فيها ولا حزن» أغاظت إسرائيل فتفتحت فيها أبواب النقمة عليه داعية إلى صلبه.

وأنى لعاصمة الروح «السيدة في البلدان» على حد ما جاء في مرائي أرميا النبي الباكي، أن تمسي قاعدة فتوحات ومنطلقاً لمطامح يرمي إليها الصهيونيون بما يسيء إلى المسيحية ويتنافى ومجيء المسيح ورسالته وتعاليمه.

عقيدة التثليث عند النصارى

التثليث عقيدة طارئة على المسيحية ولقد كانت بذرته الأولى ظهور فكرة ألوهية المسيح عليه السلام، والفكرة كما ذكر إنجيل برنابا ظهرت زمن المسيح نفسه، حيث أشاعها جنود الرومان، فولادة المسيح من غير أب ساعدت على تصديق هذه الإشاعات. لكن الفكرة نمت وترعرت من بعده، وحمل لواءها بطريرك الإسكندرية المتأثر بفلسفة مدرسة الإسكندرية «الأفلاطونية الحديثة» التي قالت بفكرة الأقانيم الثلاثة وقامت حركات معارضة تنادي بالتوحيد وإنكار ألوهية المسيح عليه السلام لكن هذه الحركات ما كتب لها النصر في أفكارها، فسادت الأفكار المؤلهة للطبيعة البشرية.

ومما يجب التنبه أنه لم تسد هذه الأفكار لمنطقيتها أو لأن الناس قد تقبلوها، ولكنها سادت بسلطة الدولة، وبقوة الإمبراطور الذي أعجب لهذه الأفكار لاقترابها من أفكاره الوثنية، فتدخل شخصياً لحل النزاع بين الموحدين والمؤلّهين فعقد مجمع نيقية سنة ٣٢٥م وبهذا المجمع انتقلت فكرة ألوهية المسيح عليه السلام إلى مرحلة أخرى هي مرحلة الأقانيم الثلاثة، لكننا نستطيع القول أن التثليث لم يكتمل تماماً في مجمع نيقية لأن هذا المجمع ألَّه الأب والابن، أما روح القدس فقد أله في مجمع لاحق هو مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ م، وبمجموع قرارات هذين المجمعين اكتملت عقيدة التثليث عند النصارى كعقيدة تناقض التوحيد الذي دعا إليه عيسى بن مريم عليه السلام.

ورغم اختلاف النصارى في أسس عقيدتهم إلا أنهم متفقون على ما يسمونه بقانون الأمانة أو وثيقة الأمانة، التي صيغت أحرفها الأولى في مجمع نيقية ثم جاءتها إضافات في المجامع اللاحقة وتختلف صيغة هذه الوثيقة اختلافاً بسيطاً بين كنيسة وأخرى وسنثبت هنا النص الذي يعتبر عقيدة كنيسية انطاكية، التي يسمونها (كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى) ونصها:

«أؤمن بإله واحد أب ضابط الكل خالق السماء والأرض، كل ما يرى وما لا يرى. وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق مولود غير مخلوق، مساو للأب في الجوهر، الذي به كان كل شيء الذي من أجله نحن البشر ومن أجل خلاصنا، نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء، وتأنس وصلب عنا على عهد (بيلاطس) النبطي، وتألم وقبر وقام في اليوم الثالث على ما في الكتب، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الرب، وأيضاً يأتي بمجد ليدين الأحياء والأموات، الذي لا فناء لملوكه. وبالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الأب الذي هو مع الأب والابن مسجود له وممجد الناطق بالأنبياء. وبكنية واحدة جامعة مقدسة رسولية، واعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا، وأترجى قيامة الموتى والحياة في الدهر الآتي[١]:

والكنائس الثلاثة اليوم[٢] تؤمن بهذا القانون وتعتبره أساس عقيدتها وإن كان نص هذا القانون يختلف قليلاً في النص الكاثوليكي عن هذا النص لأن كنيسة انطاكية أرثوذكسية، ولا داعي لإثبات هذا الفرق وقد وضح مجمع أفسس سنة ٤٣١ مقدمة لهذه الأمانة وهي «نعظمك يا أم النور الحقيقي

---

(١) كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى/د. أسد رستم.

(٢) الكنائس الثلاثة هي:

أ - الكنيسة الكاثوليكية ومركزها روما.

ب - الكنيسة الأرثوذكسية القسطنطينية والإسكندرية وهي تمثل الارتباط الأقباط والحبشة وتركيا وروسيا والأرمن وكنيسة انطاكية.

ج - الكنيسة البروتستانتية الانجيلية.

ونمجدك أيتها العذراء المقدسة والدة الإله، لأنك ولدت لنا مخلص العالم، أتى وخلص نفوسنا، المجد لك يا سيدنا وملكنا المسيح، وفخر الرسل إكليل الشهداء، تهليل القديسين، ثبات الكنائس غفران الخطايا، نبشر بالثالوث المقدس، لاهوت واحد نسجد له ونمجده، يا رب ارحم يا رب ارحم يا رب بارك آمين»[1].

اختلاف النصارى وآراؤهم حول طبيعة المسيح عليه السلام

إن الحديث عن طبيعة السيد المسيح عند النصارى إنما هو الحديث عن أساس عقيدتهم التي دارت كلها حول شخصيته عليه السلام. ولقد دار حول هذه القضية جدل قديم وانعقدت بسببها عدة مجامع ودارت حولها معظم بحوثهم وخلافاتهم.

لقد عاش عيسى عليه السلام بين تلاميذه وحوارييه نبياً كغيره من الأنبياء عليهم السلام يأكل ويشرب معهم ويكابد في دعوته ويكابدون معه، وما عرف هؤلاء التلاميذ غير ذلك إذ أن الأمر في البداية لم يكن على النحو الذي نراه اليوم في عقيدة النصارى.

يقول الأستاذ (جيني بير) «وإذا ما توقفنا في نهاية العهد الحواري عند منحدر القرن الأول وجدنا أنه كان من السهل الميسور على الإنسان أن يعتنق المسيحية، كان يكفيه لذلك الشهادة بأن عيسى المصلوب[2] هو المسيح الذي وعد الله به أمته وبأنه مات من أجل خطاياها[3] وبأنه سوف يعود في الأجل القريب ليقضي بين الأحياء والأموات ولينشىء مملكة الله حيث يعيش الصالحون فإذا ما آمن الإنسان به أقيمت له مراسم التعميد»[4].

(١) تاريخ الأقباط ـ زكي شنوده ١٧٨/١.

(٢)، (٣) الإيمان بأن عيسى عليه السلام مصلوب وأنه مات من أجل خطاياهم هذا كلام خطأ من (جيني بير) إذ أن الحواريين كانوا يقولون إن الله رفع عيسى إليه ولم تكن فكرة الخطيئة قد تبلورت بعد.

(٤) المسيحية ـ شارل جيني بير ـ ١٤٨.

وسرعان ما تبدل الأمر بانقضاء هذا الجيل فانحرفت النصرانية عن مسارها الذي أوضحه المسيح عليه السلام وسار عليه الحواريـون وبدأت الإضافات في الإيمان تدخل إلى النصرانية، فيجد الذي يعتنق النصرانية نفسه أمام أفكار فلسفية معقدة يصعب عليه فهمها، وأخذت هذه العقيدة مقابل هذه التصورات والإضافات تجد معارضين لها يقولون ببشرية المسيح، ويسلبون عنه كل خصيصة إلهية، ومن هؤلاء (أريوس) وأتباعه.

وازداد الاختلاف بعد ذلك وتعددت الآراء حول طبيعة السيد المسيح ورغم قرارات المجامع المتعددة حول هذه القضية إلا أن النصارى لم تجتمع كلمتهم على قول واحد فيها وسأتحدث هنا عن الفرق القديمة والحديثة مبيناً رأيها في هذا الموضوع مستبعداً الفرق القديمة الموحدة لأن الحديث هنا عن الفرق التي أخرجت المسيح عن دائرة البشرية إلى دائرة الإلهية.

هذه الفرق نشأت مع بداية الخلاف حول طبيعة المسيح عليه السلام ذلك الخلاف الذي بقي مستمراً لأن مـوضوعـه بقي مبهماً لم يستقـر فيه النصارى على رأي، وكثرة الآراء والاختلافات عند النصارى معروفة ورحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال: «ولهذا قال بعضهم لو اجتمع عشر نصارى لتفرقوا عند أحد عشر قولاً» وقال آخر: لو سألت بعض النصارى وامرأته وابنه عن توحيدهم لـقال الرجل قولاً وامرأته قولاً وابنه قولاً ثالثاً[1].

وسنقتصر أيضاً على الفرق المشهورة وهي كما يقول ابن حزم ثلاث فرق:

١ ـ أعظمها:

فرقة الملكانية (ويسميها الشهرستاني الملكائية)[2]. (وهي مذهب جميع ملوك النصـارى وأصل ممـالكهم حيث كانـوا حاشـا الحبشـة والنـوبـة)[3]

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ـ ابن تيمية/٢/١٥٥. مطبعة المدني ـ المؤسسة السعودية بمصر سنة ١٣٨٣هـ.

(٢) الملل والنحل (أبو الفتح الشهرستاني ٢: ٦٢ مطبوع على هامش الفصل لابن حزم.

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل/ ابن حزم/١/٤٨ الطبعة الثانية سنة ١٣٩٥ هـ بيروت.

والكاثوليكية اليوم امتداداً لهذه الفرقة.

فالإضافات كما يقول الأستاذ (جيني بير) تنمو وتزداد في تصورات ثلاثة رئيسية لـ (السيد)، قابله للبحث والتنقيب[1].

١ ـ تصور بولس: وخطوطه الأساسية هي: كان عيسى إنساناً سماوياً أي إنسان سبقت عنا مرة حياته الروحية في الوجود وجوده الجسدي، ويبدأ حياته بالروح الإلٓهية نفسها فعيسى هو الروح، وجاء عيسى إلى الأرض لينشىء إنسانية جديدة هو آدمها، يحررها من أثقال الخطايا بقبوله أن يعيش عيشة الإنسان، ويموت ميتة الإثم المشينة، إنه صورة الله الخفية وهو أول الخلق... فشخصه إذن هو المكان الميتافيزيقي الذي يجتمع فيه الله والخليفة. [تعالى الله عما يقول الظالمون].

٢ ـ النظرة اليوحانية: التي تعرف المسيح بـ (اللوغوس) وهذا يبدو لأول وهلة قريباً من عبارة بولس بأن (السيد) هو الروح ولكنه أكثر عمقاً وميتافيزيقية حيث أن (اللوغوس) وهو فيض الله يمكن في نهاية البحث أن يكون تعبيراً عن الله والقول بأن السيد (اللوغوس) يكاد يكون مرادفاً للقول بأن السيد هو الله وهذا القول مقبول لدى اليونانيين القائلين بتدرج الآلهة.

٣ ـ التصور الظاهري: بأن السيد لم يكن إنساناً إلا ظاهرياً وهذه المدرسة تحاول بقولها هذا أن تخرج من التلازم المشين بين الكائن الإلٓهي وبين الجسد. ويعلق (جيني بير) على هذه التصورات بقوله: «إن هذه النظريات الثلاث في شخص عيسى تهدف إلى نتيجة واحدة وهي الخروج بالمسيح عن نطاق البشرية بتقريبه من الله»[2].

أما رأي هذه الفرقة في طبيعة المسيح فقد قالوا إن الكلمة اتحدت

---

(١) انظر: المسيحية ـ جيني بير ـ ١٥٠.

(٢) المسيحية ـ شارل جيي بير ـ ١٥٠.

بجسد المسيح وترعرعت بنا سوته، ويعنون بالكلمة أقنوم العلم، وبروح القدس أقنوم الحياة)[1].

«وقالوا: بأن الله تعالى عبارة عن ثلاثة أشياء: أب وابن وروح قدس، كلها لم تزل وأن عيسى عليه السلام إلّه تام وإنسان تام كله ليس أحدهما غير الآخر، وإن الإنسان منه هو الذي صلب وقتل وأن الإلّه منه لم ينله شيء من ذلك، وإن مريم ولدت الإلّه والإنسان وأنهما معاً شيء واحد ابن الله»[2].

ويفهم من هذا أن الملكانية تقول بأن المسيح عليه السلام طبيعتين لاهوتية وناسوتية، وهذا مذهب الكاثوليك الذين يعتقدون أن الآلهة ثلاثة متميزون ومنفصلون: الأب - الابن - والروح القدس.

وينقل الدكتور (أحمد حجازي السقا) قول الكاثوليك في شرح الفقرة الأولى من إنجيل يوحنا عند قوله: (والكلمة كان عند الله يـعني: أن (الكلمة) متميز عمن ولده، فالأب غير الابن، والابن غير الأب ومع ذلك فهما شيء واحد في الطبيعة والذات)[3].

وهذا هو الذي يفهم من قانون الإيمان الذي وضعوه فهو يفصل بين الأقانيم الثلاثة ويجعل كل اقنوم منها متميزاً عن الآخر.

٢ ـ النسطورية:

أصحاب (نسطور) الحكيم الذي ظهر زمن (المأمون المتوفى سنة ٢١٨ هـ) فقالوا: للمسيح أقنومان وطبيعتان، جوهر قديم وجوهر محدث، إلّه تام وإنسان تام، والصلب وقع من حيث الناسوت)[4].

---

(١) الملل والنحل ـ الشهرستاني ٢/٦٢.
(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل/ ابن حزم ٢/٤٩.
(٣) أقانيم النصارى/د أحمد حجازي السقا/٦٨.
(٤) الملل والنحل/ الشهرستاني ٢: ٦٤ ـ ٦٥.

«وقالوا: بأن مريم لم تلد الإله وإنما ولدت الإنسان وإن الله تعالى لم يلد الإنسان وإنما ولد الله»[1].

وهذه الفرقة انقرضت لأن المجامع حرمت نسطور وكان ذلك في مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١ م.

٣ ـ اليعقوبية:

وهم أصحاب يعقوب البراذعي. قالوا: بالأقانيم الثلاثة إلا أنهم قالوا: انقلبت الكلمة لحماً ودماً فصار الإله هو المسيح وهو الظاهر بجسده، بل هو هو، ولعلهم المعنيون في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم** ﴾[2].

«وزعم أكثر اليعقوبية أن المسيح جوهر واحد (أقنوم واحد) إلا أنه من جوهرين، وربما قالوا طبيعة واحدة من طبيعتين، فجوهر الإله القديم وجوهر الإنسان المحدث، تركبا كما تركبت النفس والبدن فصارا جوهراً واحداً أقنوماً واحداً، وهو إنسان كله وإله كله، فيقال: الإنسان صار إلهاً ولا ينعكس كالفحمة تطرح في النار فيقال صارت الفحمة ناراً ولا يقال صارت النار فحمة... وقالوا: إن مريم ولدت إلهاً والقتل وقع على الجوهر الذي هو من جوهرين[3] (جوهر الإله القديم وجوهر الإنسان الحادث).

ونسبة هذه الفرقة إلى (يعقوب البراذعي) لأنه من أنشط الدعاة إلى هذا المذهب لا لأنه مبتدعه فإن ذلك المذهب أسبق من يعقوب هذا، وأول من أعلنه بطريرك الإسكندرية في منتصف القرن الخامس الميلادي، أما يعقوب (فقد عاش على الأرجح في القرن السادس الميلادي)[4].

---

(١) الفصل في الملل الأهواء والنحل/ ابن حزم ٢: ٤٩.

(٢) المائدة/ ٧٢.

(٣) الملل والنحل/ الشهرستاني ٢: ٦٦ ـ ٦٧.

(٤) محاضرات في النصرانية ـ محمد أبو زهرة ١٧٥.

ولقد جاء مجمع خلقيدونيه سنة ٤٥١ م مخالفاً لآراء هذه الفرقة وكان ذلك سبب انفصال الكنيسة القبطية عن الكنيسة الرومانية.

والكنيسة الأرثوذكسية اليوم امتداد في رأيها لما ذهبت إليه هذه الفرقة، فقد لخص صاحب كتاب (تاريخ المسيحية في مصر) عقيدة الكنيسة القبطية ـ وهي جزء من الكنيسة الأرثوذكسية ـ ومما نقله الشيخ محمد أبو زهرة: (قال صاحب «تاريخ المسيحية في مصر» «كنيستنا المستقيمة الرأي التي تسلمت إيمانها (كيرلس) و(ديموسقورس) ومعها الكنائس الحبشية والأرمنية والسريانية الأرثوذكسية تعتقد بأن الله ذات واحدة مثلثة الأقانيم، أقنوم الآب، وأقنوم الإبن، وأقنوم الروح القدس، وإن الأقنوم الثاني أي أقنوم الابن مجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء فسير هذا الجسد معه واحداً وحدة ذاتية جوهرية منزهة عن الاختلاط والامتزاج والاستحالة بريئة من الانفصال، وبهذا الإلحاد صار الابن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين ومشيئة واحدة»[(١)].

ومع أن ما ذهبت إليه الكنيسة الكاثوليكية هو الذي يفهم من قانون الإيمان الذي يقرون به جميعاً إلا أن الكنيسة الأثوذوكسية تستدل على مذهبها بقول القديس بولس في رسالته الأولى إلى (تيموثاوس) «وبالإجماع العظيم هو سر التقوى، الله ظهر في الجسد تبرر في الروح تراءى للملائكة كرزبه بين الأمم أو من به في العالم رفع في المجد»[(٢)].

هذه خلاصة عقيدة النصارى اليوم في طبيعة المسيح عليه السلام، فهما رأيان ينتشران عند النصارى اليوم، وما تتزعمه الكنيسة الغربية الكاثوليكية ملخصه أن الآلهة ثلاثة متميزون ومنفصلون تسمى بالأقانيم الثلاثة هي: (الآب والإبن، والروح القدس) نص قانون الإيمان على الإيمان بها كل واحدة على حدة مع هذا التمييز كل أقنوم وآخر، وعلى ذلك يكون للمسيح طبيعتان

---

(١) المصدر السابق ١٥٦.

(٢) تيموثاوس الأولى ١٦/٣.

طبيعة الآب وهي طبيعته الإلهية، وطبيعة الإبن وهي طبيعته البشرية، ومع ذلك فهما شيء واحد في الطبيعة والذات.

والمذهب البروتستانتي موافق تماماً لمذهب الكاثوليك في هذا الأمر. ورأي آخر تتزعمه الكنيسة الأرثوذكسية يقر بهذه الأقانيم الثلاثة إلا أنه يقول في اتحادها في طبيعة واحدة، فالمسيح هو الله وهو ابن الله وهو روح القدس.

والقرآن الكريم أشار إلى هذين المذهبين فرد على ما ذهبت إليه الملكانية وسارت عليه الكاثوليكية والبروتستانتية بقوله تعالى: **﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد﴾**(١).

ورد على ما ذهبت إليه اليعقوبية والأرثوذكسية بقوله: **﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾**(٢).

أما قوله تعالى: **﴿وإذ قال الله يا عيسى أبن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾**(٣) وقوله تعالى: **﴿بديع السموات والأرض أنىٰ يكون له ولد ولم تكن له صاحبة﴾**(٤). فهما رد على الذين يقولون بألوهية مريم وهم (المريميون).

ويذكر القمص (زكريا إبراهيم) (أن هذه الفرقة ظهرت في القرن الخامس الميلادي وكان أصحاب هذه البدعة من الوثنيين الذين اعتنقوا المسيحية وكانوا في وثنيتهم يعبدون الزهرة ويقولون عنها ملكة السماء، وعندما اعتنقوا المسيحية حاولوا التقريب بين ما كانوا يعبدون وبين العقيدة المسيحية، فاعتبروا (مريم) ملكة السماء أو إلهة السماء بدلاً من الزهرة ولذلك أطلقوا على أنفسهم اسم (المريميين)(٥).

---

(١) المائدة/ ٧٣.

(٢) المائدة/ ٧٢.

(٣) المائدة/ ١١٦.

(٤) الأنعام/ ١٠١.

(٥) الله واحد في الثالوث القدوس- القمص زكريا إبراهيم ٤١ الطبعة الرابعة مركز العبية- السويس - مصر.

وهذه الفرقة يسميها ابن حزم (البريرانية)، ويبين أنهم يقولون أن عيسى وأمه إلٰهان من دون الله عز وجل ويقول: «بأن هذه الفرقة قد بادت»[1].

ومع أن النصارى يقولون بانقراض هذه الفرقة وأن الكنيسة لا تعترف بألوهية مريم وتؤمن بأن العذراء مريم إنسانة بشرية[2]، إلا أن تقديس النصارى لمريم جاء في إحدى مجامعهم وهو مجمع (أفسس الأول ٤٣١ م) الذي وضع مقدمة لقانون الإيمان تبدأ بقولهم «نعظمك يا أم النور الحقيقي ونمجدك أيتها العذراء المقدسة والدة الإلٰه» كما قدمنا ويؤكد ذلك الأب (عبد الأحد داود) صاحب كتاب (الإنجيل والصليب) وهو أشوري عراقي كان نصرانياً برتبة خوري، أعلن إسلامه، وكتب هذا الكتاب بالتركية ونقله إلى العربية مسلم عراقي لم يذكر اسمه فيقول: «كانت الكنيسة تأمرني بوسيلة شفعاء آخرين لا يحصون عدداً وكانت تفرض علي ابتغاء الوسيلة إلى ميكائيل وجبرائيل مع الملائكة الآخرين والحواريين والكنيسة تعتبر أن رئيستهم مريم، ولو ترون كتاب (دينوسه) أي بمعنى الإلٰهة، وقد محيت أسماء الله مثل (يهوه) و(قدير) من كتب المزامير التي يخاطب بها الله تعالى وأثبت بمكانها اسم مريم، وأذكر هنا إحدى آيات (الزبور) التي في حفظي لأجل المثال (احمدوا الله يا أولاد) فالكاثوليك لأجل إظهار عبوديتهم لمريم، طووا من الزبور هذا وأضافوا إليه بعض الآيات تعمداً بقصد تحويلها إلى عبادة مريم (احمدوا مريم يا أولاد) وهذه الكنيسة كلما صلى فيها مرة واحدة بالصلاة الربانية (أبانا...) يصلي فيها بالصلاة المريمية عشرين مرة...»[3].

هذا ما قاله نصراني أنعم الله عليه بالإسلام فتخلص من العبودية لغير الله تعالى، فالكاثوليك يقدسون مريم ويقدمونها في العبادة على الله تعالى، وإن ادعوا في كتبهم أن مريم إنسانة ولدت الإلٰه.

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل/ ابن حزم ١: ٤٨.

(٢) الله واحد في الثالوث القدوس- زكريا إبراهيم ٤٢.

(٣) الانجيل والصليب/ عبد الأحد داود ١٢٥ - ١٢٦ (القاهرة ١٣٥١ هـ).

حقيقة الأناجيل الأربعة:

إن النصارى أنفسهم لا يقولون بنزول هذه الأناجيل على عيسى - عليه السلام -، وإنما ينسبونها إلى بعض تلاميذه، وهي تشتمل على أخباره وقصصه وابتعاثه وانتهائه في هذه الحياة.

وحقيقة الأمر أنه لم يكتب شيء من هذه الأناجيل في زمان عيسى، ولكن بعد انتهاء أمره قام بعض التلاميذ وتلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم وكتبوا قصصاً كثيرة، وكل واحد يسمي ما كتبه «إنجيلا» حتى لقد قيل: أن الأناجيل بلغت نيفاً ومائة إنجيل.

ثم لما أفاق النصارى من الاضطهاد الذي نزل بهم ردحاً من الزمن نظروا في هذه الأناجيل، وسرعان ما قررت الكنيسة اختيار أربعة أناجيل فقط وهي التي لا تتعارض مع المبادىء العقدية التي تقلدتها الكنيسة واعتنقتها. غير أن الشيء المحير أن الكنيسة لم تنتبه إلى ما وجد فيها من تناقض واختلاف بين المضامين والمحتويات. وخصوصاً فيما يتعلق بالمسائل التاريخية. ويبدو أن الكنيسة قد تغاضت عن هذا التناقض - إن صح أنها قد تنبهت إليه ابتداء - لأن تلك الأناجيل في جملتها تتفق مع الكنيسة في منزعها الذي نزعته.

والأمر الذي لا خلاف حوله هو أن الأناجيل - كلها - منقطعة السند ولا توجد نسخة واحدة منها «بخط تلميذ من تلاميذ ذلك المؤلف ولا ما يضمن شبهة صحة فيها».

اختلاف الأناجيل وتناقضها:

ومن أول الدلائل على أن هذه الأناجيل لم تصدر عن مصدر واحد وكان هذا المصدر هو عيسى - عليه السلام - أو تلاميذه - وقوعها في التضارب والتناقض حول الموضوع الواحد. ومن الأمثلة التي نجدها في هذا العدد:

١ - اختلاف إنجيل متى عن إنجيل لوقا في نسب المسيح، فيوسف النجار

الذي تبنى المسيح هو «يوسف بن يعقوب» في إنجيل متى وهو «يوسف بن هالي» في انجيل لوقا.

٢ ـ في انجيل متى: أن آباء المسيح من داود إلى جلاد بابل كانوا سلاطين مشهورين وفي لوقا: أنهم لم يكونوا كذلك فيما عدا داود وناثان.

٣ ـ في انجيل يوحنا يقول المسيح: «إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي ليست حقاً» وفي نفس الانجيل يقول: «إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق».

٤ ـ المرأة التي استغاثت بعيسى ليشفي ابنتها من الجنون «كنعانية» حسب انجيل متى، وهي يونانية فينيقية حسب انجيل مرقس.

٥ ـ في انجيل لوقا، أن دم جميع الأنبياء منذ إنشاء العالم من دم هابيل إلى دم زكريا يطلب من اليهود. وفي سفر حزقيال «لا يؤخذ أحد بذنب أحد».

وقد أحصى العلامة الشيخ «رحمت الله الهندي» ـ ١٢٣٣ ـ ١٣٠٨ ـ من هذه الاختلافات.

أ ـ ١٢٤ اختلافاً في التوراة والأناجيل المتداولة الآن.
ب ـ ٣٧ غلطاً في التوراة.
جـ ـ ١١٠ غلطاً في الأناجيل.

وقال بعد هذا الإحصاء العلمي الدقيق «... لا مجال لأهل الكتاب أن يدعوا أن كل سفر من أسفار العهد العتيق والجديد كتب بالإلهام» (أي إلهام الرسل بهذه الكتب) وذلك لوجوه:

أولاً: أنه يوجد فيها الاختلافات المعنوية الكثيرة، وقد اضطرب محققوهم ومفسروهم في هذه الاختلافات فقالوا في بعضها: إن إحدى العبارتين صادقة، والأخرى كاذبة، إما بسبب التحريف القصدي أو بسبب سهو الكاتب، ووجهوا بعضها بتوجيهات ركيكة لا يقبلها الذهن السليم، وقد عرفت في القسم الأول[1] من الفصل الثالث أزيد من مائة اختلاف.

---

(١) من كتاب المؤلف رحمت الله (إظهار الحق).

ثانياً: أنه يوجد فيها أغلاط كثيرة، وقد عرفت في القسم الثاني من الفصل الثالث أيضاً أكثر من مائة غلط. والكلام الإلهامي بعيد بمراحل عن وقوع الغلط والاختلاف المعنوي.

ثالثاً: أنه وقع فيها التحريفات القصدية في مواضع غير محصورة لا يستطيع المسيحيون إنكارها، وظاهر أن المواضع المحرفة ليست بإلهامية عندهم يقيناً.

والقول باختلاف الأناجيل أو عدم أصالتها ليس وقفاً على الباحثين المسلمين، بل هو قول ردده الكتاب الغربيون المنصفون - ومنهم نصارى - أكثر من مرة، ويكفي أن ننقل لك ما جاء في دائرة المعارف البريطانية عن هذه الأناجيل، ودائرة المعارف هذه - كما هو معلوم للجميع - مصدر موثوق به في الثقافة الغربية في شتى نواحيها.

تقول دائرة المعارف البريطانية: «إن فلسفة الإغريق والقانون الروماني جعلا الانجيل لا يمثل حقيقته، كما أثرا في تدوينه، والباحث المنصف في تاريخ الكنيسة لا يستطيع.. ولو لحظة واحدة أن ينكر آراء مزيفة، وأغراضاً غير كريمة، واعتقادات خاطئة كانت أسباباً مسيطرة - أحياناً - دفعت إلى هذا التبديل الذي حدث في الأناجيل».

ولكن هل هناك انجيل غير هذه الأناجيل يعتبر بمثابة (الأصل أو الأم) ويعترف به المسيحيون؟.

الجواب: أن في الأناجيل الأربعة عبارات أو إشارات إلى إنجيل (أو بشارة) يأتي ذكرها مضافاً مرة إلى «المسيح» بوصف «ابن الله» ومرة مضافاً إلى... الله، وثالثة مضافاً إلى «ملكوت الله» جاء في انجيل متى.

«وكان يسوع يطوف كل الجليل يكلم في مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت....».

وفي انجيل مرقس: «جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله، ويقول... توبوا وآمنوا بالإنجيل».

وجاء في رسالة بولس: (فإن الله الذي أعبده بروحي في إنجيل ابنه شاهد لي كيف بلا انقطاع أذكركم).

وإذن فهناك إنجيل تذكره الأناجيل الأربعة، وأمر بديهي أنه غير هذه الأناجيل، لأن هذه الأناجيل ما كانت موجودة وقت أن قال المسيح هذه العبارات التي ورد فيها ذكر هذا الإنجيل، ولأن هذه الأناجيل لا تذكر إلا مضافة إلى أصحابها فيقال انجيل متى... انجيل لوقا... وهكذا، أما هذا الانجيل فقد أضيف صراحة في رسالة بولس إلى عيسى... ابن الله... في زعمهم. والتدقيق في المقارنة بين هذه النصوص الإنجيلية التي سردناها... ينتهي إلى حقيقة لا ريب فيها تثبتها هذه الأناجيل الأربعة نفسها، هذه الحقيقة هي: وجود إنجيل أصيل نزل على عيسى - عليه السلام - وكان يكرز به وأن هذا الإنجيل غير هذه الأناجيل التي بأيدينا الآن.

أين هذا الإنجيل؟ وهل هو الانجيل الذي نزل على عيسى؟ وهل فقد؟ أو أخفته الكنيسة عن عمد؟ - أسئلة تظل حيرى هكذا ما ظلت الكنيسة متكتمة - عن علم أو عن جهل - على أمر الأناجيل القديمة وخصوصاً أمر إنجيل برنابا.

انجيل برنابا:

هو انجيل يشبه الأناجيل الأربعة من حيث القصص والتواريخ الخاصة بالمسيح - عليه السلام - منذ ولادته وحتى نهايته - ولم تعرف اللغة العربية هذا الانجيل إلا في مطلع هذا القرن الميلادي (العشرين) حيث ترجمه الدكتور خليل سعادة ونشره السيد محمد رشيد رضا مع مقدمة علمية إضافية.

من هو برنابا؟

إذا اعتمدنا على انجيله فهو أحد الحواريين الإثني عشر (١٤: ٩ - ١٧)

أما إذا استندنا إلى أعمال الرسل فهو واحد من الرسل السبعين (أعمال الرسل: ١٣ : ١ - ٥) ومهما يكن من أمر الخلاف فيه فإن الذي لا شك فيه أنه واحد من قديسي المسيحيين ومن رجال الصف الأول بين أتباع عيسى عليه السلام وتلاميذه، بالرغم من رفض الكنيسة المعاصرة لهذا الرأي.

تاريخ نسخة انجيل برنابا:

ويتفق المؤرخون على أن هذا الإنجيل كان أحد المخطوطات التي تحتويها مكتبة «باب» روما «سكتس الخامس» وكانت هذه النسخة مكتوبة باللغة الإيطالية... ثم ضاعت هذه النسخة من المكتبة في القرن الـ ١٦ ويقال أن راهباً اسمه (فراموينو) اختلس هذه النسخة وسرقها، وعن طريقه... وصلت النسخة إلى مكتبة أحد مستشاري ملك «بروسيا».. ثم انتقلت إلى مكتبة البلاط الملكي في فينا سنة ١٧٣٨م ولا تزال موجودة حتى الآن.

هذا وتوجد نسخة أخرى لنفس هذا الإنجيل مكتوبة باللغة الاسبانية، وقد ترجمت إلى اللغة الانجليزية - «ورجح المحققون أن النسخة الإيطالية هي الأصل للنسخة الأسبانية، وذلك أنها قد قدمت بمقدمة تذكر أن الذي كشف النقاب عن النسخة الإيطالية التي كانت أصلاً للنسخة الأسبانية راهب لاتيني اسمه: «فرامرينو..».

وإذن فأقدم نسخة معروفة لهذا الإنجيل هي النسخة الإيطالية، وقد وجدت في جو مسيحي خالص، فلا شبهة من أن تكون قد دخلت على هذا الجو المسيحي من مصادر غريبة.

موقف الكنيسة من هذا الانجيل:

حرمت الكنيسة هذا الإنجيل ورمت كاتبه بالزندقة والكفر. وقد رجح الدكتور مترجم هذا الإنجيل إلى اللغة العربية أن المؤلف الحقيقي لهذا الانجيل يهودي أندلسي تعمق في دراسة اليهودية ثم تركها وتنصر وتعمق في النصرانية ثم تركها واعتنق الإسلام وتعمق فيه وكتب للمسلمين هذا الانجيل.

وهذا الترجيح أبعد ما يكون عن التفكير المنطقي الهادىء المتزن. فمن المستبعد جداً ـ كما يقرر الباحثون ـ أن يتصور العقل شخصاً يتعمق في اليهودية والمسيحية والإسلام لدرجة سبر الأغوار ومعرفة الدقائق والتفاصيل في عمر واحد، وإذا كان المترجم قد وصف برنابا بأنه على درجة عالية من الفهم والفلسفة والتعمق في الأديان الثلاثة فكم يلزم من القرون ومن الإمكانات ليصل هذا الرجل إلى هذه المكانة؟.

والغريب أن الدكتور «سعادة» يقول في مقدمة الترجمة ما نصه: يذكر التاريخ أمراً أصدره البابا «جلاسيوس» الأول الذي جلس على الأريكة البابوية سنة ٤٩٢م يعدد فيه أسماء الكتب المنهي عن مطالعتها، وفي عدادها كتاب يسمى «إنجيل برنابا» ثم يعقب الدكتور المترجم على هذا النص الخطير الهام فيقول:

«ويذهب بعض العلماء المدققين إلى أن أمر البابا «جلاسيوس» المنوه عنه إنما هو... برمته تزوير.

وإذن فالتاريخ ـ باعتراف المترجم ـ يقرر أن انجيل «برنابا» هذا كان ضمن الأناجيل التي حرمت قراءتها عام ٤٩٢م. ومعنى ذلك أن هذا الانجيل كان موجوداً ومتداولاً قبل بعثة سيدنا «محمد» ﷺ بأكثر من ٢٠٠ سنة فإذا انتقلنا في تسلسل الأفكار خطوة إلى الأمام وقلنا إن في هذا الإنجيل بشارة بنبيّ الإسلام ـ فإننا سننتهي حتماً إلى نتيجتين خطيرتين على المسيحية المعاصرة:

النتيجة الأولى:

التحقق من أن هذا الإنجيل مسيحي خالص، وليس للمسلمين فيه ناقة ولا جمل، لأنه وجد قبل الإسلام بـ ٢٠٠ سنة بشهادة التاريخ.

النتيجة الثانية:

التأكد من صدق هذا الانجيل وصحته، لأن نبوئه التي كانت مجرد وعد

في ضمير الغيب قد تحققت وأصبحت واقعاً لا يتمارى فيه الناس.

لكن يصر المترجم على تكذيب شهادة التاريخ بأقوال علمائه المدققين ويبدو أن المترجم قد ارتكب أخف الضررين حين وجد الاحتمالات العقلية أمامه تتدخل في معادلة صعبة: فإما أن يكذب التاريخ ويزيفه، إما أن يكذب المسيحية المعاصرة ويزيفها.

ويتساءل بعض الباحثين بحق: لماذا وضع هذا الرجل المسلم هذا الإنجيل كما يزعم المترجم؟. والجواب عند الدكتور سعادة أنه وضعه ليحتج به المسلمون على المسيحيين في المناظرات التي كانت تدور بينهم. ولكن ما رأي الدكتور المترجم في أن أحداً من المسلمين لم يحتج بهذا الإنجيل قط، ولم يرد ذكره في تلك المناظرات الحامية وكيف ينحدر انجيل كاذب كهذا إلى مكتبة البابا، ثم إلى البرنس (أيوجين) ثم إلى مكتبة البلاط الملكي بفينا؟ وكل وصل أوساطاً مسيحية لا يمكن أن تسمح لكتاب كاذب يهاجم عقائد المسيحية بأن يتسرب إلى مكتباتهم. وأن ينال الغاية التي وصفها الدكتور المترجم من تجليد وتذهيب؟ ولو حاول كاتب مسلم أن يضع انجيلاً لكان أولى به ينسبه إلى عيسى. على أن التعمق في الإسلام الذي وصفه الدكتور سعادة يحتم على هذا المتعمق ألا يؤلف كتاباً ثم ينسبه إلى سواه..

وحقيقة الأمر أن الكنيسة قد حرمت هذا الانجيل لمخالفته الصريحة للأناجيل الأخرى المتداولة.. وتتلخص مواطن الافتراق والاختلاف بين أناجيل النصارى وهذا الانجيل فيما يلي:

أ - إن هذا الإنجيل لا يعتبر المسيح ابناً لله تعالى، ولا يعتبره إلٓهاً وإليك هذه العبارات التي يفتتح بها برنابا انجيله وهو يقرر نبوة المسيح وخطيئة بولس وكفره في زعمه ألوهية عيسى بن مريم.. يقول برنابا «أيها الأعزاء! إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا في هذه الأيام بنبيه يسوع المسيح برحمة عظيمة للتعليم والآيات التي اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى، مبشرين بتعليم شديد الكفر، داعين

المسيح ابن الله... الذين ضل في عدادهم أيضاً «بولس» الذي لا أتكلم عنه إلا مع الأسى، وهو السبب الذي لأجله أسطر ذلك الحق الذي رأيته وسمعته أثناء معاشرتي ليسوع لكي تخلصوا ولا يضلكم الشيطان...».

ب ـ ينكر هذا الإنجيل صلب المسيح، ويثبت أن الأمر قد شبه لليهود حين ألقى الله شبهه على يهوذا الأسخريوطي.

جـ ـ يصرح هذا الانجيل بأن الذبيح هو إسماعيل وليس إسحاق، كما تعتقد اليهود والنصارى. وقد ورد في انجيل برنابا أن الله تعالى قال لإبراهيم عليه السلام: «**خذ ابنك بكرك واصعد الجبل لتقدمه ذبيحة**».

د ـ يؤكد هذا الإنجيل أن المسيح المنتظر أو المسيا المنتظر ـ ليس هو عيسى، بل هو سيدنا.. محمد.. ﷺ وقد ذكره باللفظ الصريح وقال: إنه رسول الله، وإن آدم طرد من الجنة رأى سطوراً كتبت فوق بابها بأحرف من نور: «لا إله إلا الله محمد رسول الله» يقول الشيخ أبو زهرة:

«هذا هو انجيل برنابا وما خالف فيه بقية الأناجيل من مسائل جوهرية، وفي الحق أنه خالف المسيحية القائمة في خصائصها التي استأثرت بها، فإن تلك المسيحية امتازت بالتثليث ـ ونبوة المسيح وألوهيته، وكان هذا شعارها الذي به تعرف، وعلامتها التي بها تميز. وقد خالف كل هذا.

عقيدة: التثليث ـ الصلب والفداء ـ الإدانة

تقوم العقيدة المسيحية بناء على أصل الدستور الذي أقره مجمع نيقية (٣٢٥م) على أسس ثلاثة:

الأساس الأول: التثليث.

الأساس الثاني: الصلب وفداء.

الأساس الثالث: إدانة المسيح للناس.

أما عن التثليث فيقول النصارى:

إن طبيعة الله (تعالى الله عما يقولون) عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية.

الله الآب　　الله الابن　　الله الروح القدس

فأما الله الأب فهو الخالق بواسطة الابن.

وأما الله الابن فهو الذي يفدي البشر.

وأما الله الروح القدس فهو التطهير.

الخالق ثلاث آلهة:

ونصوصهم صريحة في أن الأقانيم الثلاثة هي ذات الخالق، وأن الله ثلاثة آلهة، وأن هذه الآلهة متساوية في الكمال الإلهي وإن كانت مختلفة من حيث الاسم والعمل.

كيف بدأت فكرة التثليث؟

إن عصور الاضطهاد التي مرت على المسيحية في تاريخها المبكر جعلت

هذه الديانة تعيش مرحلة تذبذب في العقائد. وهو أمر لا مفر منه لديانة فقدت القائد الروحي والأساسي الأصيل الذي يضمن لها خط الرجعة حين تجرف بها الأحداث.

ولقد أصبحت المسيحية بعد أن افتقدت عيسى ـ عليه السلام ـ وكتابه السماوي وتلاميذه المخلصين في مهب الريح تذهب بها الأفكار والفلسفات من أقصى النقيض إلى أقصى النقيض الآخر.

وكان يجوز التغيير والتبديل في العقيدة المسيحية دخول بولس.. (أو: شاؤول) في هذه العقيدة بعد أن كان من ألد أعدائها وخصوصاً ـ أنه كان من اليهود المغرمين بتعذيب النصارى وتشريدهم وفجأة وبدون مقدمات ـ يعتنق النصرانية زاعماً أن المسيح ظهر له في الأفق وطلب منه الدخول في المسيحية والتبشير بها وهكذا تحول بولس من عدو لدود إلى رسول من رسل المسيحية مسؤول عنها مسؤولية مطلقة وكان بولس هذا ـ كما يروي المؤرخون ـ ذكياً غزير المعرفة بالفلسفات الإغريقية والهندية والديانات الوثنية، ويبدو أنه اعتنق المسيحية وفي رأسه فكرة معينة، إذ ما لبثت المسيحية بعد تحول بولس إليها أن تحولت من دين توحيد إلى دين تعدد وإشراك وظهر التثليث كأساس عقدي للمسيحية.

التثليث والتوحيد:

وتثليث النصارى هذا قد سبب لهم مشكلة عقلية أو إشكالاً عقلياً ظلوا يدورون حوله ـ بلا حل ـ حتى يومنا هذا.. ويتلخص هذا الإشكال في أن أسفار التوراة (العهد القديم) التي يؤمنون بها قد تكون ناطقة بالتوحيد وأن الأناجيل التي أقرها لهم مجمع نيقية طافحة بعقيدة التثليث ووجد النصارى أنفسهم في حيرة بين توراة قد توحي عندهم بالتوحيد وأناجيل تقول بالتثليث صراحة، ولقد كان هذا الوضع المتناقض أكبر دليل لو فطنوا! إلى أن إحدى الفكرتين صادقة والأخرى كاذبة لا محالة، لكن هكذا حاولوا التوفيق بين نقيضين لا يمكن للعقل أن يتصورهما مجتمعين بأية صورة من الصور وتحت

أي ظرف من الظروف. وقد انتهوا إلى أن الله تعالى واحد في ثلاثة أو ثلاثة في واحد، والنصارى ينزعجون من أن تنتهي عقيدتهم إلى الوثنية أو الإشتراك، ولذلك هم يحرصون دائماً على وصف إلههم بالتوحيد الحقيقي برغم هذا التثليث الذي لا يسأمون من كثرة اللغط والجدل حول مفهومه.

نقد فكرة التثليث:

والنصار في تثليثهم هذا يعتمدون على نصوص نقلية من مثل:

«هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت» متى ١٣ : ١٧.

«أنا والآب واحد» يوحنا ١٠ : ٣١.

«عمدوا باسم الآب والابن وروح القدس» متى ٢٨ : ١٩.

وهي نقول لا تغني عن الحق شيئاً، فقد علمنا من أمر الأناجيل وغموضها وغموض كتابها ومترجميها، وتناقض كل ذلك، ما يستبعدها تماماً من أن تكون مصدراً لنص إلهي أخطر مشكلة عقدية. وإذن فلا جدوى من النقاش حول هذه الاستدلالات النقلية.

ويهمنا هنا أن نقول أن بعض الكتاب الغربيين قرروا «أن صورة المسيح بكل معالمها وملامحها أعدت قبل أن يكتب سطر واحد من الأناجيل وأن هذه الصورة هي من إنتاج الفلسفة العقلية التي كانت ذات سيطرة وكانت آراؤها شائعة وتكاد تكون عامة أو عالمية» ومعنى ذلك أن الاستشهاد من الأناجيل على التثليث يفقد قيمته منذ البداية.

ويرى النصارى ـ ويعترفون ـ بأن أمر التثليث من الأمور التي ينبغي أن تعالج بمنطق الإيمان والوجدان لا بمنطق التدقيق العقلي. وهذا هروب من النصارى منذ بداية الطريق.. فلا يأس أن نعتمد على الإيمان القلبي في قضية ما من القضايا الغيبية ولكن بشرط ألا يحكم العقل فيها حكماً بدهياً أولياً باستحالتها وتناقضها.. وإذا كان النصارى يقولون بأن التثليث من القضايا التي يصعب تصورها على العقل فإننا نقول أنه من القضايا التي

يستحيل تصورها لدى العقل ولا يمكنه إلا أن ينقيها ويقتلعها بجـذورها ويلقيها في دائرة اللامعقول، ومهما تعلل أصحاب التثليث بضرورة الإلهام العيسوي أو اليسوعي فإن التثليث برغم كل هذه الإلهامات سيبقى غصة في حلوق العقلاء مهما اختلفت بهم اتجاهاتهم العقدية.

أي إلهام هذا الذي يقلب بداهة العقول رأساً على عقب! إن من المتفق عليه عند العقلاء أن العقل قد لا يتصور كنه بشيء ما، لكن يحكم بوجوبه أو بإمكانه، وقد يتصور أموراً يحكم عليها بالاستحالة والامتناع لأنه يلزم من فرض وجودها محال. هذه الأمور تسمى المستحيلات أو الممتنعات وقد يكون حكم العقل باستحالة إمكان هذه الأشياء نظرياً أي معللاً، وقد يكون بديهياً أي لا يستطيع العقل تعليل حكمه في هذه القضايا، لأنه لا يسعه إلا هذا الحكم فقط، وهذه القضايا التي من هذا القبيل تسمى القضايا الفطرية أو البديهيات أو بداهة العقول أو أوائل الأذهان... إلخ هذه التسميات.. من هذه القضايا مسألة عروض الوحدة الحقيقية والكثرة للموجودات. إن العقل يصنف هذه القضية تحت قضية عامة كـلية هي: استحالة اجتماع الضدين على ذات واحدة في وقت واحد ومكان واحد: مثل اجتماع السواد والبياض ومثل اجتماع النقيض أيضاً كالحركة والسكون... إلخ.. والوحدة والكثرة من هذا القبيل لأن العقل يقضي بأن الموجود إما أن يكون واحداً حقيقياً وإما أن يكون كثيراً ـ أما أن يكون واحداً حقيقياً وكثيراً فهذا القول يعادل تماماً القول بأن الجسم ساكن ومتحرك في نفس الآن.

وما ينبغي أن تنتبه إليه هنا أن الواحد الحقيقي هو الذي لا ينقسم بوجه من الوجوه وهو في مقابل الواحد الاعتباري الذي هو كثرة في واحد، فأنا مثلاً واحد اعتباري لأنني واحد بالعدد لكنني متكثر ومنقسم وذو أجزاء عديدة، فوحدتي اعتبارية محضة لأنني في الحقيقة أتجزأ وأنقسم وهذا ينطوي على تعدد، وهو بدوره يقدح قدحاً مباشراً في معنى الوحدة الحقيقية التي لا تنقسم بوجه:

ولو أن النصارى قالوا: إن إلههم واحد اعتباري وهو ثلاثة لما كان هناك نزاع في هذا المفهوم. ويتوجه عليهم ما يتوجه به على المشركين من الاستدلالات الأخرى لكنهم يصرون على القول بالوحدة الحقيقية مع التثليث، وإصرارهم هذا نابع من أنهم يدركون تماماً أن القول بالوحدة الاعتبارية يعني مفهوم الشرك والوثنية وهم ينفرون من هذا المفهوم أشد النفور، ويتمسكون بالتوحيد الحقيقي مع التثليث وهذا جمع للنقضيين، وهو مرفوض عند الناس جميعاً بأي المقاييس وتحت أي ظرف من الظروف.

والنصارى يشعرون ـ في عقولهم ـ بهذا الحرج المنطقي الشديد ويحيلون المشكلة برمتها إلى الإيمان والوجدان، وبرغم الإيمان والوجدان والعاطفة والشعور ظلت القضية ـ بدون حل.

صلب المسيح:

وهو الأصل الثاني في القضية المسيحية، وخلاصة نظريتهم في هذا الموضوع أنهم يقولون: إن صفة المحبة من صفات الله تعالى، لأن الأناجيل تصرح بأن الله محبة ومقتضى صفة المحبة هذه أن يدبر الله طريق الخلاص للعالم الذي ابتعد عنه بسبب وقوع آدم في الخطيئة وطرده من الجنة وهبوطه إلى الأرض، والعالم منذ ذلك الحين ـ في زعم النصارى ـ مبتعد عن الله لأنه ورث خطيئة الأب وتحمل وزرها. وإن كانت صفة المحبة تقتضي قرب العالم من الله فإن صفة العدل على العكس ـ تقتضي استمراره في البعد والطرد. وإذن فها هنا تضاربت مزاعم النصارى بين مقتضى صنعة المحبة ومقتضى صفة العدل فيما يتعلق بهذا العالم الطريد الشريد.

ولأجل إزالة هذا التضارب المزعوم أرسل الله (تعالى عما يقول الظالمون) ابنه الوحيد ليقوم بدور الوساطة بين المحبة والعدل وذلك بأن يظهر في هذا العالم بشكل إنسان ويعيش ويأكل ويشرب مثل الناس تماماً ثم يصلب ظلماً وعدواناً ليكفر عن خطيئة البشر، وكأنه كبش فداء للخطيئة الأزلية التي ورثها بنو آدم، ويخلص العالم كله من الخطايا لأنه تحمل العذاب أو العقاب الذي

كان ينبغي أن ينزل بكل فرد من أفراد بني آدم. جاء في انجيل لوقا.

«ان ابن الإنسان قد جاء لكي يخلص ما قد هلك، فبمحبته ورحمته قد وضع طريقاً للخلاص، لهذا المسيح هو الذي يكفر عن خطايا العالم، وهو الوسيط الذي وفق بين محبة الله تعالى وبين عدله ورحمته إذ أن مقتضى العدل أن الناس كانوا يستمرون في الابتعاد عن الله بسبب ما اقترف أبوهم، ولكن باقتران العدل بالرحمة وبتوسيط الابن الوحيد وقبوله للتكفير عن خطايا الخلق قرب الناس من الرب بعد الإبتعاد، وقد كان التكفير الذي قام به المسيح هو الصلب، لهذا صلب، ورضي الله عن صلبه، وهو ابنه، ودفن بعد الصلب، ولكنه قام بعد ثلاثة أيام من قبره.

وإن العاقل ليتساءل - مع من تساءل من عشرات ومئات الباحثين:

١ - إذا كانت صفة العدل من صفات الله تعالى - كما يقولون هم أيضاً فهل من العدل في شيء أن يعاقب البريء بذنوب المجرمين؟!.

٢ - وهل من العدل أن يكتب الطرد واللعن على بني آدم آمادا طوالاً بسبب خطيئة ارتكبها أبوهم؟! وإذا كانت التوراة تنص على أنه (لا يقتل الآباء عن الأولاد، ولا الأولاد عن الآباء، كل إنسان بخطيئته يقتل) فكيف يقول النصارى بأن الأبناء والأحفاد يؤخذون بجريرة الآباء؟!.

٣ - وإذا كان موضوع الصلب - في حقيقته - عملاً مسرحياً محضاً فلماذا حملوا أجيال اليهود مسؤولية قتل المسيح وإثمه وذنبه؟؟؟.

٤ - وإذا كان الله قد رضي عن الرسل والأنبياء وأتباعهم قبل المسيح وهم من البشر ومن أبناء آدم، فلماذا يرثوا الخطيئة؟ وإذا قيل بأن الله قد عفا عنهم فلماذا لم يطرد هذا العفو ليشمل بقية خلق الله فيما يتعلق بهذه الخطيئة؟!.

٥ - ثم ألا يعتبر خروج آدم وحواء من الجنة عقاباً مكافئاً لخطيئتهما ومن ثم

يصبح طرد البشر من الرحمة أقرب إلى مفهوم الظلم منه إلى مفهوم العدل؟!.

٦ ـ وأخيراً هل تعطلت صفة الرحمة والعدل منذ آدم إلى أن تم حل الإشكال بصلب المسيح؟؟.

يقول الأستاذ عبد الأحد داود (كاتب مسيحي أسلم).. «إن من العجيب أن يعتقد المسيحيون أن هذا السر اللاهوتي وهو: خطيئة آدم، وغضب الله على الجنس البشري بسببها، ظل مكتوماً عن كل الأنبياء والسابقين، ولم تكتشفه إلا الكنيسة بعد حادثة الصلب». ويقول هذا الكاتب: إن مما حمله على ترك المسيحية هو هذه المسألة وظهور بطلانها.

إدانة المسيح للناس ومحاسبتهم:

ويرى النصارى أن المسيح يمكث في قبره ـ بعد الصلب ـ ثلاثة أيام ثم يقوم من قبره ويمكث أربعين يوماً يرتفع بعدها مباشرة إلى السماء ويجلس بجوار أبيه ـ كما زعموا ـ ثم يأتي يوم القيامة فيحاسب كل إنسان على ما قدمت يداه، وعقيدة النصارى في هذا الموضوع أن الله لا يحاسب الناس بل قد تخلى ـ سبحانه ـ للمسيح ليقوم بهذا الأمر لأنه ابن الإنسان وهو قريب من الناس. جاء في الإصحاح الخامس من انجيل يوحنا: (... وأعطاه سلطانا أن يدين أيضاً، لأنه ابن الإنسان، لا تعجبوا من هذا، فإنه تأتي ساعة يسمع جميع الذين في القبور صوته، فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة...».

فإن العقيدة المسيحية التي في الأناجيل اليوم تنتهي إلى أنه وباختصار الذي سيحاسب الناس يوم القيامة على ما قدمت أيديهم هو المسيح (ابن الإنسان) وليس الله تعالى الذي هو الآب في زعمهم.

الباب السابع

مقدمة بين يدي الأناجيل
الأناجيل الأربعة ودعوى الإلهام
الاختلاف في رحلة المسيح وأمه

مقدمة بين يدي الأناجيل

يهتم الرأي العام المسيحي المعاصر إذا ما أمسك القلم كاتب من غير أتباع العهد الجديد وراح يتناوله بالدراسة والنقد، كذلك تنزعج الدوائر المعنية بهذا الأمر وتشمر عن ساعد الجد لتتابع تأثير مثل هذه الدراسة إذا ما كانت جادة وإذا كان التاريخ الإسلامي قد شهد تجارب المناظرات والمحاورات المسيحية الإسلامية والتي لم يحدث في واحدة منها أن أخفق العقل الإسلامي أمام تعارض نصوص الأناجيل، فإن تناول المفكرين الغربيين، والنقاد المحدثين لبعض أحكام الإسلام بالنقد يجعل الموضوع لا يزال قابلاً للدرس، وهي ليست دعوة للتعصب أو العدوان، ولكنه البحث العلمي الهادي الذي لا يلجأ إلى التهافت من الأقوال والآراء ويجعلها حجة الحجج وبرهان البراهين واقتداء بأصحاب النظرة العلمية النافذة من بعض علماء الغرب الذين أزعجتهم تناقضات النصوص ومفتريات مفسريها فراحوا يضعونها أمام ميزان النقد الحديث من أمثال: سبينوزا في «اللاهوت والسياسة» «وجيمس فريزر» في «الفلكولور في العهد القديم» و«موريس بوكاي» في «الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة». وغيرهم فإننا هنا ننهج نفس النهج ونحن هنا لا نريدها دعوى بغير دليل ولا صخبا يبلبل الأفكار ويحيرها بغير جدوى لكننا قناعة وإيماناً بدعوة القرآن وخبره بأن أهل الكتاب قد حرفوا الكلم عن مواضعه وألبسوا الحق بالباطل فإننا نعرض لتحقيق تاريخ الأناجيل المعتمدة ولن نذهب إلى غير المعتمدة وهي كثيرة للتعرف على مدى صحة أنسابها إلى أصحابها

ونبدأ الحديث بما قرر عالم مسلم معاصر هو الأستاذ الدكتور محمد أبو الغيط السيد الفرت في بحثه الهادىء حول نسبة الأناجيل المعتمدة عند النصارى إلى أصحابها فقد ذهب حفظه الله يقول:

يذهب كتاب النصارى إلى أن الانجيل يطلق ويراد به بشارة المسيح الخلاصية، لأنها الحقيقة المقترحة، كما يطلق ويراد به كل سفر يتضمن أعمال المسيح وتعاليمه أو ترجمة حياته كما في بشائر «أناجيل» كل من «متى» و«مرقس» و«لوقا» و«يوحنا». وهذه الأناجيل الأربعة هي المعتمدة عند النصارى دون سواها، كما يعتبرون الأناجيل الأربعة أسفاراً تاريخية.

وإذا ضم إليها ـ سفر أعمال الرسل ورسائل بولس الأربعة عشر ورسالة يعقوب ثم رسالتان لبطرس الرسول ورسائل يوحنا الثلاث وأخيراً سفر يسمونه بالسفر النبوي هو رؤيا يوحنا اللاهوتي ـ إذا ضمت هذه الرسائل إلى الأناجيل المذكورة يطلقون على الجميع اسم «العهد الجديد» وذلك في مقابلة ما يطلق عليه اليهود اسم «العهد القديم» ويعنون به أسفار التوراة الخمسة وسائر كتب أنبياء بني إسرائيل.

ورسائل بولس هي: الرسالة إلى أهل رومية، والرسالة الأولى إلى كورنثوس، والثانية إليه أيضاً، والرسالة إلى غلاطية، والرسالة إلى افسس، والرسالة إلى فيليبي، والرسالة إلى كولوس، ورسالتان إلى تسالونيكي ورسالتان إلى ثيموثاوس، والرسالة إلى تيطس، والرسالة إلى فيلمون، والرسالة إلى العبرانيين.

فجملتها أربع عشرة رسالة وهي من عمل قديسهم بولس خاصة وقد جمعها النصارى مع الأناجيل والأسفار الأخرى سالفة الذكر وسموها بـ «العهد الجديد».

لكن الأسفار الإحدى والعشرين الأخيرة التي تلي الأناجيل الأربعة يعتبرونها أسفاراً تعليمية. أما سفر «أعمال الرسل» فهو سفر تاريخي كالأناجيل.

ويزعم النصارى أن إنجيل المسيح الحقيقي لم يوح إليه من السماء ـ كما يعتقد المسلمون ـ وإنما هو رسالة أعدها من عند نفسه وابتدعها من شخصه، وهم فيما ذهبوا إليه من هذا المعتقد ليخدموا عقيدتهم في ألوهية المسيح!!

والمطلع على كتب النصارى على ما فيها لا يرى لهذه المزاعم من سند يجعلها معتقداً يصمد للنقد والدرس، ذلك أنه من أبسط نظرة علمية يتبدد ذلك الزعم ويصبح سراباً لا عقيدة.

ذلك أن المسيح نفسه قال إن الإنجيل أوحي إليه من عند الله كما يعتقد المسلمون وخاطبه به جبريل الأمين، فقال المسيح «أنا أتكلم بما رأيت عند أبي» يوحنا ٨: ٣٨ «ولست أفعل شيئاً من نفسي بل أتكلم بهذا كما علمني أبي..» يوحنا ٨: ٢٨. «والكلام الذي تسمعونه ليس لي بل للأب الذي أرسلني...» يوحنا ١٤: ٢٤.

ثم جاء في رسالة بولس الثانية إلى ثيموثاوس ٣: ١٦ «كل الكلام هو موحى به من عند الله». على أن المسيح قد أشار إلى أنه أخذ الانجيل من الله تعالى وليس هو رسالة أعدها من عند نفسه. وقد وردت تلك الإشارة في صلاته حين قال: «الكلام الذي أعطيتني قد أعطيتهم» يوحنا ١٧: ٧.

ومما يجدر ذكره أن القرآن الكريم قد قرر أن الإنجيل موحى به من عند الله رب العالمين. يقول الله سبحانه في كتابه العزيز على لسان البشير جبريل وهو يبشر مريم بحملها بعيسى عليه السلام وهو يبين لها فضل الله عليه ومهمته في الوجود.

﴿ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾ (٤٨) ﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل﴾[١].

كما يقول الحق سبحانه: **﴿إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي**

---

(١) آل عمران ٤٨ ـ ٤٩.

عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل﴾[1].

ويقول في سورة مريم آية ٣٠ حين تحدث بوجود قومها ليبرئها من طعنهم في عفافها فخاطبهم وهو بعد في المهد صبي: ﴿قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾.

هذا هو بعض ما جاء في الذكر الحكيم معلناً بصراحة حقيقة أمر الإنجيل الذي أطمر في طيات الزمان بفعل ما أثير حوله من غبار الأفكار الكثيف حتى حجب رؤية الإنجيل على حقيقته الإلهية ولولا القرآن الذي أماط اللثام عن هذه الحقيقة وأزاح الحجب عنها ما عرفت البشرية عنها شيئاً ولا أدركت لها شأواً.

وأما (متّى) ونسبة الإنجيل إليه: فيكاد النصارى يجمعون على أن «متّى» أحد الحواريين الإثني عشر، ومن المعلوم عندهم أن «متى» كان عشاراً، أي من جباة الضرائب للحاكم الروماني في ذلك الوقت «كلوديوس» قيصر، كما كان معروفاً أن العشاريين مبغضون من الرعية لما كانوا يقومون به من الظلم والتعسف ضد الشعب من أجل الجباية، وكان البغض متأصلاً في نفوس اليهود خاصة لأن العشار يخدم الدولة الرومانية التي يرقبون الخلاص والتحرر من سلطانها، وقد كان متى يهودياً ثم هداه الله للإيمان بدين المسيح وترك وظيفة العشارين لينقطع لمتابعة المسيح سيده من غير أن يفارقه.

وقد أجمع المسيحيون أيضاً بأنه ألف إنجيلاً بيّن فيه حياة المسيح مما كان قد شاهده ورآه، وقد كتبه باللغة العبرية في أرض يهودية للمؤمنين من اليهود كما قال جيروم. ولم يؤلف انجيل باللسان العبري سواء كما قال بيياس فيما نقله عنه «ول ديورانت» إذ قال: وأعاد (متى) كتابة ـ الكلمات ـ بالعبرية (ويبدو أن هذا الإنجيل مجموعة أرامية ـ عبرية ـ من أقوال المسيح)[2].

---

(١) المائدة: ١١٠.

(٢) قصة الحضارة جـ ٣ م ٣ ص ٢٠٧.

وقد ذكر صاحب (الفارق) آراء المؤرخين القدامى من المسيحيين بما يؤكد كتابته باللغة العبرية حتى وصل في استنباطه إلى حد الإجماع[1].

وكان تأليف هذا الإنجيل ما بين عامي ٦٠ - ٧٠ ميلادية كما يرى صاحب الكنز الجليل[2]. ويبدو أنه الراجح.

ولكن الأصل العبراني قد فقد وظهر بعده ترجمة له باللغة اليونانية، ولم يؤكد أن الترجمة اليونانية متطابقة مع الأصل العبري حيث قد فقد الأصل قبل ظهور الترجمة ولم يطلع أحد على الأصل العبري مقارناً بالترجمة اليونانية، كما لم يعلم أيضاً من قام بهذه الترجمة حتى قال (جيروم) وهو من علماء النصارى المتقدمين في حق ترجمة انجيل (متى) لا يوجد إسناد هذه الترجمة وحتى الآن لم يعلم باليقين اسم المترجم[3].

وعلى ذلك فإن الاعتقاد بصحة كلام مترجم مجهول الحال من الخطورة على العقيدة. فقد يكون ذلك المترجم من أعداء المسيحية ويكون قد دس فيه من العقائد ما هو خلاف دين المسيح عليه السلام.

وقد ذهب ابن بطريق - وهو مؤرخ مسيحي - إلى أن مترجمه هو صاحب إنجيل يوحنا، وقد كان هناك من الأعداء كثرة من الطوائف المختلفة من وثنيين ويهود، أو من أتباع الديانات المنحرفة الأخرى. يقول «ول ديورانت»:

«وتقول الرواية المأخوذ بها أن إنجيل «متى» أقدم الأناجيل كلها. ويعتقد ايرنيوس أنه كتب في الأصل باللغة العبرية - أي الأرامية - ولكنه لم يصل إلينا إلا باللغة اليونانية... وإن كان النقاد يميلون إلى القول بأنه من تأليف أحد أتباع (متى) وليس من أقوال العشار نفسه. وحتى أكثر العلماء

(١) انظر كتاب الفارق ص ١٩، ٢٠ لعبد الرحمن باجه جي زاده.
(٢) الكنز الجليل في تفسير الانجيل جـ١ ص ٣ للدكتور وليم آوي الأميركاني.
(٣) انظر كتاب الفارق ص ٢١.

يرجعون به إلى تلك الفترة البعيدة المحصورة بين عامي ٧٥ ـ ٩٠ ميلادية[١] وإذا كان الغرض الذي يبتغيه (متى) هو هداية اليهود فإنه يعتمد أكثر من غيره من المبشرين ـ الإنجيليين ـ على المعجزات التي تعزى إلى المسيح، ويحرص حرصاً يدعو إلى الريبة على أن كثيراً من نبؤات العهد القديم قد تحققت على يدي المسيح»[٢].

وليس من المستغرب أن يقوم بالدس والوضع لهذا الإنجيل أحد اليهود بعد خراب أورشليم فيذكر (نورثن) عند تفسيره للفقرة الثانية والخمسين من الإصحاح السابع والعشرين من هذا الإنجيل وهو قوله: «الأرض تزلزلت، وتشققت الصخور، وتفتحت القبور وكثير من أجساد القديسين الراقدين قاموا وخرجوا من قبورهم بعد قيامته ودخلوا إلى المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين ـ والآية تحكي أن المسيح قام من الموت بعد الصلب كما يزعمون»..

ثم قال نورثن: إن هذه الفقرة مناقضة لقول (بولس) بأن عيسى أول القائمين وباكورة الراقدين... ثم قال معقباً: هذه الرواية كاذبة والغالب أن أمثال هذه الحكايات كانت رائجة في اليهود بعد ما صارت أورشليم خراباً، فلعل أحداً كتب في حاشية النسخة العبرانية لإنجيل (متى) هذه الجملة وأدخلها الكتاب في المتن وهذا المتن وقع في يد المترجم فترجمها على حسبه»[٣].

فهذا مسيحي أنصف القول من نفسه، فإن عداوة اليهود للمسيحيين لا تخفى، على أن طائفة الفريسيين من اليهود كانت تعتقد أن التقليد والمأثور من تفسيرات الآباء وتعليقاتهم على الناموس... كل ذلك من الناموس، فإن ذلك هو طبيعة التلمود إذ هو قول من (التوراة) و(المشناة) التي هي تعليقات حاخامات اليهود وتفسيراتهم.

(١) إن الاختلاف في سني كتابة هذا الانجيل بين الكتاب المسيحيين يدعو إلى الشك في نسبة الانجيل إلى (متى).

(٢) راجع قصة الحضارة جـ٣ م ٣ ص ٢٠٧، ٢٠٨.

(٣) انظر كتاب الفارق ص ٢١.

فإذا ترجح أن المترجم من اليهود فقد تكشفت الحقيقة وإذا كان لنا أن نعقب على قصة قيامة القديسين بأجسادهم من القبور الواردة في الفقرة سالفة الذكر فإننا نقول أن تلك حادثة من الغرابة بمكان وينبغي للتاريخ ألا يغفلها. ولكننا لم نر أحداً من المؤرخين قد ذكرها لا من مؤرخي اليهود ولا المسيحيين ولا المسلمين ولا حتى المؤرخين الوثنيين.

هذا، وقد وصف (نورثن) مترجم (متى) بأنه لا يميز بين الخبيث والطيب لأن مترجم إنجيل (متى) كان حاطب ليل، لا يميز بين الرطب واليابس، فما في المتن من الصحيح والغلط قد ترجمه.

وقال جامعوا تفسير «هنري واسكات»: إن الفرقة الأبيونية التي كانت تنكر ألوهية المسيح حرفت هذه النسخة وضاعت بعد فتنة أورشليم، وقال البعض أن الناصريين أو اليهود الذين دخلوا في الملة المسيحية حرفوا الانجيل العبراني، وأخرجت الفرقة الأبيونية فقرات كثيرة منه»[1].

ولكن احتمال أن الفرقة الأبيونية هي القائمة بالتحريف مع انكارها لاهوت المسيح قول يستوقف النظر، فإن المنكر للاهوت المسيح يخرج كتاباً يتفق مع أرقى تعاليم المسيحية الأساسية من غير تبديل.

وقال جامعوا هذا التفسير أيضاً: إن هذا الانجيل ما كان متواتراً في القرن الأول وأن التحريف كان شائعاً في هذا القرن أيضاً في المسيحيين.

فإذا كان الأصل قد حرف بمقتضى هذه الشهادة فكيف بالترجمة التي لم يعلم مترجمها على وجه التحقيق بالسند الكامل..؟

مرقس ونسبة الإنجيل إليه:

تقول المصادر المسيحية بأن (مرقس) الإنجيلي كان يهودياً من بيت (لاوي) ولكنه ولد في إقليم الخمس مدن، ثم تتلمذ على يد (بطرس)

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢.

الرسول، ومات مقتولاً كما في سفر الأعمال وكان ذلك في الإسكندرية عام ٦٨ ميلادية، وكان قتله على يد الوثنيين في عهد (نيرون) والسبب في تأليفه للإنجيل وكتابته له هو طلب أهل (رومية) لذلك فيما بين أعوام ٦٠ ـ ٧٠ ميلادية على ما يقول (وليم آدي الأميركاني)(١).

وقد كتب (مرقس) الإنجيل نقلاً عن أستاذه (بطرس) ومعلوم أن (بطرس) يقول بإنسانية المسيح وعدم لاهوته بالمعنى الذي أرادوه كما هو وارد عنه ذلك في سفر الأعمال(٢).

يقول «ول ديورانت» نقلاً عن بيياس: أن (مرقس) ألف انجيله من ذكريات نقلها إليه (بطرس)... ثم قال.. ويتفق الناقدون الثقات بوجه عام على أسبقية انجيل (مرقس) في الزمن على سائر الأناجيل، وفي تحديد تاريخه بين عامي ٦٥ ـ ٧٠ ميلادية... ويبدو أن انجيل (مرقص) كان منتشراً أثناء حياة الرعيل الأول من أتباعهم ومريديهم(٣).

ويقول ابن بطريق: إنه في عصر (نيرون كتب (بطرس) رئيس الحواريين انجيل (مرقس) عن (مرقس) بالرومية في مدينة رومة ونسبه إلى مرقس(٤).

ويقول صاحب مرشد الطالبين: قد زعم أن انجيل (مرقس) كتب بتدبير (بطرس) سنة ٦١ ميلادية لنفع الأمم الذي كان تنصرهم بخدمته..»(٥).

ونحن نميل إلى أسبقية إنجيل (مرقس) في الزمن على الأناجيل الأربعة، [الكلام لا يزال للدكتور محمد أبو الغيط] ولعل ما يدعو إلى ذلك ما كان من أمر بطرس، فإنه كان لا يعرف إلا اللغة الآرامية (العبرية) فلما ذهب إلى

(١) الكنز الجليل في تفسير الانجيل جـ١ ص ٤.
(٢) راجع الاصحاح الثاني.
(٣) قصة الحضارة جـ٣ م٣ ص ٢٠٧، ٢٠٨.
(٤) تاريخ ابن بطريق جـ١ ص ٤٤.
(٥) مرشد الطالبين ص ١٧٠.

روما ليبشرهم بدين المسيح وإنجيله وهم لا يعرفون إلا اليونانية استدعى معه يوحنا الملقب (مرقس) ليقوم بترجمة ما يلقيه على أهل روما من تبشير بالدين . ومرقس هذا يهودي قبرصي وكان يجيد اليونانية كتابة وقراءة ولما مات بطرس من اضطهادات (نيرون) اجتمع شيوخ المسيحية في روما للنظر فيمن يرونه حافظاً لأقوال المسيح وحياته ومعجزاته بعدما أفنت الإضطهادات رؤوس الكنيسة فكان المختار لذلك هو (مرقس) رفيق (بطرس) في رحلته إلى روما فكلفوه بكتابة ما يمكن تذكره من أقوال المسيح وتعاليمه مما أملاه عليه أستاذه وصديقه (بطرس) رئيس الحواريين فكتب بناءً على ذلك إنجيله وتوالت كتابة الأناجيل من بعده.

ولعل مما يرجح هذا الاتجاه ما ترجح لدى (بيباس) وجود نسخة أولى قديمة العهد (لمرقس) كانت مصدراً لكتابة هذا الإنجيل بطلب شيوخ الكنيسة، لأن النسخة الأولى وضعت غير مرتبة .بل وضعت وفقاً لاحتياجات الحال والمقال والدواعي لأهل روما يوم كان وسيطاً للتبليغ عن لسان بطرس.

ومعلوم لدى المحققين من المسيحيين وغيرهم أن إنجيل (متى) يشتمل على ستمائة آية من الستمائة والإحدى والستين فقرة التي يشتمل عليها نص (مرقس) المعتمد وهذا مما يرجح اقتباسها من (مرقس) ولعله من النسخة الأولى له.

هذا، وقد نقل صاحب «الفارق» عند الكلام على (مرقس) عن بعض المحققين من النصارى ما يؤكد الشك في عدم إلهامية هذا الإنجيل فضلاً عما تضمنه من دخائل لغير (مرقس)، فليرجع إليه. وكانت كتابة هذا الإنجيل باللغة اليونانية كما هو المشهور.

ويتبين لنا من كل ذلك أن (مرقس) كان أبعد ما يكون عن الإلهام في وضع هذا الإنجيل إذا اعتبرنا أن واضعه الحقيقي هو (بطرس) كما هو قول المدققين من المسيحيين.

لوقا ونسبة الإنجيل إليه:

وتختلف آراء معظم الباحثين حول جنسية (لوقا) وأغلبهم أنه ليس يهودياً ويتفقون على أنه من أهل انطاكية وأنه تلميذ (لبولس) الذي كان عدواً للنصارى ثم أصبح رسولاً لهم كما ورد في بعض رسائل الأخير.

ولوقا لم ير المسيح أصلاً وكان طبيباً وقيل مصوراً، وقد كتب لوقا انجيله باللغة اليونانية فيما بين عامي ٦٠ - ٧٠ ميلادية على أشهر الأقوال، وإن كان بعضهم يعزوه إلى العقد الأخير من القرن الأول.

ومعلوم أنه كتب كرسالة إلى صديق له يدعى (ثاوفيلس) الذي قيل أنه مصري، كما كتب إليه أيضاً السفر المسمى بأعمال الرسل ضمن أسفار العهد الجديد.

والثابت عن المحققين من المسيحيين أن (لوقا) كتب إنجيله بعد ما حرر مرقس إنجيله وذلك بعد موت بطرس وبولس كما أكدوا عدم إلهامية هذا الإنجيل.

وكون إنجيل (لوقا) غير إلهامي يتبين بأدنى نظر لمن يطالع افتتاحيته، يقول لوقا مفتتحاً.

«وإذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إليها الذين كانوا في البدء معاينين وخدماً للكلمة رأيت أنا إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب أليك أيها العزيز ثاوفيليس لتعرف صحة الكلام الذي علمت به...».

وهكذا يفتتح لوقا انجيله معلناً أنه رسالة إلى صديقه المذكور يتحرى فيها أصح ما نمى إلى علمه عن المسيح كلمة الله وروح منه وذلك من جملة ما يقال عنه أنذاك من أقوال تتردد بين الصحة وغيرها.

يقول «ول ديورانت»: «والانجيل حسب نص القديس لوقا وهو النص الذي يعزى عادة إلى العقد الأخير من القرن الأول، يعلن أنه يرغب في

تنسيق الروايات السابقة عن المسيح والتوفيق بينها، وأنه يهدف إلى هداية الكفرة لا اليهود، وأكبر الظن أن لوقا نفسه كان من غير اليهود، وأنه كان صديقاً لبولس ومؤلف سفر أعمال الرسل، وهو يقتبس كثيراً من كتابات (مرقس)... فإننا نجد ثلاثمائة وخمسين فقرة في إنجيل لوقا تكاد تكون هي بنصها من إنجيل مرقس(١)...

يوحنا ونسبة الإنجيل إليه:

إن الكثرة الغالبة من أهل الفرق والطوائف المسيحية تذهب إلى أن يوحنا صاحب الإنجيل هو أحد الحواريين الإثني عشر.

وقد جاء في كتاب: (خلاصة تاريخ المسيحية في مصر) أن يوحنا البشير ولد في بيت صيدا من أعمال الجليل وهو ابن زيدي الصياد وسالومي وأخو يعقوب الكبير، وقد كان السيد المسيح يحبه حتى إنه استودعه أمه مريم وهو فوق الصليب، وفي أيام الاضطهادات الأولى نفاه القيصر (دومتيان) إلى جزيرة (بطمس) (من جزر بحر إيجه) وهناك تلقى مناظر الرؤيا ثم عاد إلى (افسس) ولبث بها يبشر حتى توفي شيخاً(٢)...

وقد كان (يوحنا) كأبيه صياداً، وبينما كان يقوم بعمل الصيد هو وأخوه يعقوب على بحر الجليل إذ رأى من المسيح ما جعله وأخاه يتركان شباكهما وأباهما ويتبعانه.

وقد ألف إنجيله باللغة اليونانية، وليس كتابه ترجمة ليسوع المسيح كما نهج الثلاثة الأولون، وإنما هو عرض للمسيح من وجهة النظر اللاهوتية باعتباره كلمة الله وخالق العالم ومنقذ البشرية.

كما أن إنجيله يناقض الأناجيل الأخرى في التفاصيل والصورة العامة التي يرسمها للمسيح، ومع ذلك فإن بعض المسيحيين يشك في كون يوحنا الإنجيلي من التلاميذ، وقد نقل صاحب «الفارق» عن أحد الرهبان اليسوعيين

---

(١) انظر قصة الحضارة جـ٣ م ٣ ص ٢٠٩.

(٢) خلاصة تاريخ المسيحية في مصر الحلقة الثانية ص ٦٥٣.

أنه صنف إنجيله في آخر حياته والسبب في ذلك هو أنه كان هناك طوائف تنكر لاهوت المسيح ويعلمون في المسيحية أن المسيح ليس إلا إنساناً وأنه لم يكن قبل أمه، مخالفين بذلك طوائف أخرى تدعي أنه في الوجود قبل أمه باعتباره إلهاً.

فلذلك اجتمع عموم أساقفة آسيا وغيرهم عند يوحنا هذا في سنة ٩٦م والتمسوا منه أن يكتب عن المسيح وينادي بالإنجيل مما لم يكتبه الإنجيليون الآخرون، وأن يكتب بنوع خاص عن لاهوت المسيح، فلم يسعه أن ينكر إجابتهم إلى طلبهم.

ونقل عن صاحب كتاب مرشد الطالبين ما يؤكد ذلك فقال: إنه لا يوجد اتفاق بين العلماء بضبط السنة التي كتب فيها (يوحنا) إنجيله، فإن بعضهم يزعم أنه كتبه في سنة ٦٥م قبل خراب أورشليم، وآخرين ممن يوجد فيهم بعض الأقدمين يرون كتابته في سنة ٩٨م وكان ذلك بعد رجوعه من النفي. فالمقصد بكتابته إبقاء بعض مسامرات المسيح الضرورية ذات التروي مما لم يذكره باقي الإنجيليين، وإفناء بعض هرطقات[١] مفسدة أشهرها معلمون كذبوه في شأن ناسوت المسيح وموته وخاصة ترسيخ النصارى الأوائل في الإعتقاد بلاهوت المسيح ربهم وناسوته وفاديهم ومخلصهم وقد قيل أن يوحنا لم يؤلف إنجيله إلا بعد صلاة عامة قلبية مع البيعة لأجل أن يوحيه الروح القدس بذلك. .»[٢].

ومن الملحوظ فيما أخذ عن الراهب أن فكرة لاهوت المسيح ما فاحت رائحتها إلا في نهاية القرن الأول مما يدل على أن هذه الفكرة لم تكن معروفة في الدين عند المسيحيين قبل ذلك، ولذلك لم يطرق بابها الإنجيليون الثلاثة السابقون عليه، إذ لو كانت معلومة لهم ومقررة في الدين ولم يثبتوها لكان ذلك ضلالاً وانكاراً لبعض الإلهام وخاصة في هذه العقيدة التي هي أساس

(١) هرطقات جمع هرطقة ومعناها في العرف المسيحي يساوي معنى (زندقة).
(٢) انظر كتاب الفارق ص ٣٤١.

الدين، وانكار الإلهام يسقط العدالة ويضيع الأمانة كما أن الزيادة عليه شأنها كذلك، وحيث كانت كتابة إنجيل يوحنا بالالتماس من الأساقفة فهو بإلهام الأساقفة لا بإلهام روح القدس البتة.

على أن كثيرين من المحققين النصارى أنكروا كون هذا الإنجيل من وضع الحواري، ونسبوا تأليفه إلى طالب من طلبة المدرسة الإسكندرانية قيل إن اسمه (بروكلوس)، ألفه في أول القرن الثاني وربما أسند تأليفه إلى يوحنا التلميذ ليعتقد الناس صحته ويتناولوه ضمن الكتب المسيحية المقدسة، ولعل مستند ذلك ما جاء في دائرة المعارف الكبرى - البريطانية - تحت لفظ «أناجيل». . أما إنجيل يوحنا فإنه لا مرية ولا شك كتاب مزور أراد صاحبه مضادة حواريين لبعضهما، وهما القديسان (يوحنا) و(متى) ولقد ادعى هذا الكاتب المزور في متن الكتاب أنه هو الحواري الذي يحبه المسيح فأخذت الكنيسة هذه الجملة على علاتها وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحواري ووضعت اسمه على الكتاب نصاً مع أن صاحبه غير يوحنا يقيناً، ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه مثل بعض كتب التوراة التي لا رابطة بينها وبين من نسبت إليه، وإنا لنشفق على الذين يبذلون منتهى جهدهم ليربطوا ولو بأوهى رابطة ذلك الرجل الفلسفي الذي ألف هذا الكتاب في الجيل الثاني بالحواري يوحنا الصياد الجليلي، فإن أعمالهم تضيع عليهم سدى لخبطهم على غير هدى. . . »[1].

وعلى ذلك فجمهور الناقدين يعزون تأليف هذا الإنجيل إلى عناصر أخرى بعيدة عن يوحنا الحواري.

يقول «ول ديورانت» في شيء من التحفظ: «إن ما يصطبغ به إنجيل يوحنا من نزعة قريبة من نزعة القائلين بأن الخلاص لا يكون بالإيمان[2] بل بالمعرفة وما فيه من تأكيد للآراء الميتافيزيقية قد جعل الكثيرين من الباحثين

(١) انظر كتاب الفارق ص ٣٤٢.

(٢) أي الإيمان بأن المسيح ابن الله ورفض كل ما عدا ذلك من عقائد اليهودية الموسوية.

في الدين المسيحي يشكون في صدق القول بأن واضعه هو الرسول يوحنا. . . وتنزع الدراسات الحديثة إلى تحديد تاريخ الإنجيل الرابع ليوحنا بأواخر القرن الأول. . »[1].

على أن هناك نبأ خطيراً تسوقه لجنة التوفيق القبطي في كتابها «خلاصة تاريخ المسيحية في مصر» إذ تقول: (قيل بأن يوحنا البشير قد اختلط في آخر حياته حتى أصبح لا يعرف شيئاً عن دعوة المسيح حتى مله الناس وكرهوا قوله، وكان في آخر أيامه قد ضعف حتى عجز عن الوعظ فلم يجد ما يقوله لسامعيه إلا «ليحب بعضكم بعضاً» ولما أظهر بعض المؤمنين مللهم من تكرار هذه العبارة قال لهم: إن هذه هي وصية الرب العظمى إذا أتممناها فقد أتممنا كل الوصايا. . .).

وعبارة هذا الكتاب تعطينا على الأقل دليلاً على عدم ضبط التأليف لهذا الإنجيل على فرض أن واضعه يوحنا الحواري حيث قد وضعه في هذه النهاية المختلطة من عمره. ومعلوم أنه كان في نهاية القرن الأول قد بلغ من العمر أرذله، فقد عمر طويلاً حتى قال الناس أنه مخلد وذلك نظراً لطول عمره.

وأياً ما كان مما حيك حول هذا الإنجيل من آراء وتحليلات في نسبته إلى صاحبه، فإنا نميل إلى أن واضعه هو يوحنا الحواري بعدما تعمق في آخر حياته في الفلسفة الهيلينية[2] وتشبعه بالنزعة الميتافيزيقية التي تعلمها من البلاد والمدن الأيونية[3] والتي هي مشحونة بتيار الفلسفة اليونانية والتصوف اليوناني مع ترجيح نسيان يوحنا بعض ذكرياته عن المسيح لطول العهد به كما هو الثابت المؤكد.

هذا، ويكاد يجمع الباحثون على أن ليوحنا فضلاً على الإنجيل الرابع

---

(١) قصة الحضارة جـ٣ م ٣ ص ٢٠٩، ٢١٠.

(٢) أي اليونانية.

(٣) من مقاطعات اليونان.

رسائل ثلاثاً هي ضمن أسفار العهد الجديد، أما سفر الرؤيا فيتأرجح قول الباحثين فيه بين نسبته إلى يوحنا آخر يدعي اللاهوتي وبين يوحنا الإنجيلي الحواري.

وأياً ما كان فإن التردد يرجح الشك في نسبة سفر الرؤيا إليه.

الأناجيل الأربعة ودعوى الإلهام

تحت هذا العنوان الهادىء يتابع الدكتور محمد أبو الغيط السيد الفرت حديثه فيكشف أبعاداً علمية وعقدية تحيط بنصوص العهد الجديد إحاطة تقطع الشك باليقين وتقيم الدليل على نسبة الوضع في كتب الأناجيل الأربعة وانقطاع سندها وتهافت متنها، انقطاعاً وتهافتاً لم تعد معهما دعوى الإلهام تجد مجالاً حتى للنقد العلمي. يقول الدكتور محمد أبو الغيط من البحث الذي نأتي على بعض ما قرره:

أما بالنسبة لصلة الأناجيل بالإلهام وثباتها عليه فلم يكن له حظ من الحقيقة، ويتبين ذلك بأدنى نظر في الأناجيل.

وأسوق للقارىء بعضاً من اختلافاتها كنماذج للإستشهاد بها في ذلك المضمار.

الاختلاف في نسب المسيح:

إذا قمنا بعمل مقارنة بين صدر الإصحاح الأول من (متى) ونهاية الإصحاح الثالث في انجيل (لوقا) وجدنا بين الملهمين اختلافاً في مسألة نسب المسيح اختلافاً يدعو إلى اعتقاد التفريط في الإلهام من كل منهما، وهذا بعض ما بينهما من مفارقات:

١ ـ يتتبع (متى) في كتابته سلسلة النسب إلى سليمان بن داود عليهما السلام، بينما يتتبع (لوقا) سلسلة (ناثان) ابن داود.

مع ملاحظة أن (متى) أخذ سلسلة الملوك المشهورين من ولد سليمان إلى جلاء بابل، أما (لوقا) فيسير بنسبه إلى آباء عاديين ليسوا ملوكاً ولا مشهورين حتى يصل به إلى (ناثان) بن داود، وليس فيهم نبي ولا ملك غير (داود) و(ناثان) ويلزم عليه ألا يبقى المسيح مسيحاً كما قال (كالوين) «إن من أخرج سليمان عن نسب المسيح فقد أخرجه عن كونه مسيحاً».

٣ - يختلف الاثنان في بعض الأسماء في سلسلة النسب. وإذن فقد أخطأت إحدى الروايتين في ذلك ولا شك.

٤ - إن حلقات النسب في (متى) فيما بين (داود) و(يوسف) النجار تنقص كثيراً عنها في (لوقا) ففي حين أن (متى) يذكر أربع عشرة حلقة بين (داود) وسبي بابل أو ثلاث عشرة إذا لم يؤخذ داود معهم مع أنها ثمانية عشر جيلاً في الإصحاح الثالث من سفر أخبار الأيام الأولى ويذكر (لوقا) عشرين حلقة. ثم يذكر (متى) أربع عشرة حلقة من سبي بابل إلى يوسف أو ثلاثة عشرة ويذكر (لوقا) إحدى وعشرين حلقة.

وبالضرورة لا بد من زلة القدم، فإما أن يكون الخطأ من (متى) أو هو في (لوقا) أو يشملهما معاً على قاعدة «إذا تعارض الحكمان ولم يمكن الجمع بينهما تساقطا».

فهذه اختلافات تبين خلو الرجلين من الإلهام البتة ولم يستطع إنكار ذلك أهل البحث العلمي من المحققين المسيحيين.

نعم قد يزول العجب من تناقض (متى) و(لوقا) في ذلك إذا أدركنا أن مترجم الإنجيل (متى) مجهول الحال فلم يعلم بعد مدى الثقة به، وكذلك (لوقا) ليس من الحواريين بالتأكيد ولم يثبت كونه ذا إلهام.

هذا ولم تستطع التمحلات أن تصحح هذا الخطأ الشائن في الإنجيلين.

الاختلاف في رحلة المسيح وأمه في أيامه الأولى:

بالمقابلة بين الاصحاح الثاني من (متى) والثاني من (لوقا) في مسألة رحلة مريم وابنها ويوسف إلى مصر ومجيء المجوس لتفطيم يسوع، يتبين بينهما اختلاف جوهري لا يمكن الجمع بين متناقضاته ولو بالتأويل.

ففي (متى) أن المسيح ولد في بيت لحم لمناسبة التعداد المفروض آنذاك ثم أقامت الأسرة المقدسة في بيت لحم إلى أن جاء المجوس من المشرق وسجدوا له معظمين وممجدين، ولما لم يعد المجوس لإخبار «هيرودس» ملك اليهودية ـ إحدى مقاطعات الدولة الرومانية الأربعة ـ عنه كما وعدوه أمر بقتل كل طفل دون الثانية من عمره ـ لكي ينال القتل ذلك الوليد الذي ظهرت بشائره ويخافه الرومان ـ وفي هذه الآونة ذهبت الأسرة إلى مصر وأقاموا بها حتى مات (هيرودس) وبعدها رجعوا إلى الناصرة.

أما (لوقا)، فيقول: أنه ولد في بيت لحم كما قال (متى ولكن عندما تم نفاس مريم رجعت العائلة إلى أورشليم وقدموا الذبيحة حسب الشريعة زوجي يمام أو فرخي حمام، وبعد ذلك التقديم ذهبوا إلى الناصرة وأقاموا بها، وكانوا دائماً يذهبون إلى أورشليم كل سنة في أيام العيد. وفي السنة الثانية عشرة من عمره أقام في أورشليم ثلاثة أيام في الهيكل ولم تعلم مريم يوسف النجار عنه شيئاً إلا بعد مسيرة يوم وهم راجعون إلى الناصرة ظانين أنه مع الرفقة وحين رجعا وجداه جالساً في الهيكل يسمع كهنته ويسألهم.

ويتبين من تلك المقابلة بين القولين أن المجوس لم يحضروا إلى المسيح في بيت لحم للتعظيم على (لوقا) بل لم تذهب الأسرة المعظمة إلى مصر إطلاقاً ولم يقيموا بها.

على أن حادثة قتل الأطفال دون الثانية من العمر لم يذكرها أحد من المؤرخين غير المقيدين بمعلومات الإنجيل مثل (يوسفوس).

ويتبين من (متى) أيضاً أن (هيرودس) وأهل اليهودية كانوا يرتقبون

إلى ارتفاع الوثوق بالشرائع، وأيضاً فلا يكون فرق بين خبر النبي والعامي. اللهم إلا في العرف المسيحي الذي يجيز الخطأ على الأنبياء وليسوا معصومين عندهم.

وأياً ما كان فلا بد، إما أن يتحقق التناقض أو تجويز الكذب على الأنبياء وكلا الأمرين يسقط دعوى الإلهام للبشريين، كما تسقط دعوى الإلهام نفسها. يقول (متى) في الفقرة الثالثة والعشرين من الإصحاح الثاني بـأن المسيح بعد التعميد سكن مدينة الناصرة لكي يتم ما قيل من أنه يدعي (ناصرياً) مع أنه لم يرد في كتاب من كتب الأنبياء أنه يدعي ناصرياً؟.

هذا قليل من كثير مما في الأناجيل من تحريف وتناقض واختلاف فيما بينهما وقول بغير الحق وما أوردته من الشواهد إن هو إلا نماذج تشير إلى دعوى التحريف والتبديل فيها وتؤكد عدم وصفها بالإلهام ومن أراد المزيد من ذلك فعليه بالكتب التي توسعت في هذا الباب مثل كتاب (إظهار الحق) للشيخ رحمت الله الهندي، وكتاب (الفارق بين المخلوق والخالق) للشيخ عبد الرحمن باجه جي زاده وأمثالها ففيهما إشباع لمستزيد.

على أنني أستطيع القول بأن قضية عدم إلهام أصحاب الأناجيل مفروغ منها، فهذا عالمهم (ول ديورانت) يقول: «إن ثمة تناقضاً كثيراً بين بعض الأناجيل والبعض الآخر»[1] وادعاء الإلهام يستدعي الدور الباطل، إذ صحة الإلهام متوقفة على إثبات أحقيتها وإثبات أحقيتها متوقف على إثبات الإلهام وصحته، وهو دور باطل.

كما يؤكد عالمهم المذكور بأن الأربعة الأناجيل كانت قد خلطت هي الأخرى بعقائد الأحقاب السابقة وشوهت تماماً قبل وقت ظهورها فيقول: «وترجع أقدم النسخ التي لدينا من الأناجيل الأربعة إلى القرن الثالث أما النسخ الأصلية فيبدو أنها قد كتبت بين عامي ٦٠ ـ ١٢٠م ثم تعرضت بعد

---

(١) قصة الحضارة جـ٣ م ٣ ص ٢١٠.

كتابتها على مدى قرنين من الزمان لأخطاء في النقل ولعلها تعرضت أيضاً لتحريف مقصود يراد به التوفيق بينها وبين الطائفة التي ينتمي إليها الناسخ أو أغراضها والكتاب الذين عاشوا قبل نهاية القرن الأول الميلادي لا ينقلون قط شيئاً عن العهد الجديد بل كل ما ينقلونه مأخوذ من العهد القديم ولسنا نجد إشارة لإنجيل مسيحي قبل عام ١٥٠»[١].

ويقرر (سلسس) أحد العلماء الوثنيين في القرن الثاني، بأن التحريف أصاب الأناجيل منذ وجودها المبكر فيقول:

«بدل النصارى أناجيلهم ثلاث أو أربع مرات، بل أكثر من هذا كأن مضامينها بدلت»[٢]. أما ترتيب العهد الجديد الذي هو الأناجيل الأربعة مضافاً إليها الرسائل فيكاد يكون مجهول الزمن.. يقول (وليم آدي الأميركاني): لا نستطيع القول بوقت كتابة كل من أسفار العهد الجديد وترتيبها وفق زمن الكتابة. ثم يميل إلى ترجيح أسبقية رسائل (بولس) في الكتابة على الأناجيل ويرى أيضاً أنه شرع في جمع أسفار العهد الجديد كتاباً واحداً في القرن الأول وضم فيه أكثرها وكانت تقرأ في المحافل في القرن الثاني ثم كان الإجماع على قانونيته في القرن الرابع كما هو عند المسيحيين اليوم[٣].

وهكذا نراه يتفق مع جمهور الكاتبين بأن قانونية الأناجيل حدثت في القرن الرابع ثم عاد مؤكداً قطع الصلة بين هذه الأناجيل وبين أصولها التي تلاشت تماماً وأن النسخ الحالية كتبت في قرون طويلة وصلت حتى القرن الحادي عشر وهاك قوله:

«جميع نسخ الانجيل الأولى التي نقلت عنها النسخ التي عندنا تلاشت لأنها كتبت على مواد قابلة للفناء» وعدد النسخ الباقية إلى الآن المشتملة على

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠٧

(٢) كتاب عقيدة الصلب والفداء ص ٤١ للسيد رشيد رضا.

(٣) الكنز الجليل في تفسير الانجيل جـ١ ص ٤، ٥

مجيء المسيح، ولذلك اضطربوا من مولده وأزمعوا أن يؤذوه أو يقتلوه.

أما (لوقا) فيقول إنهم حين رجعوا من بيت لحم إلى أورشليم ليقدم للرب ويقدم الذبيحة لقيه هناك (سمعان) الذي كان ممتلئاً من الروح القدس وصالحاً، وكان قد أخبر من جهة الرب أنه لا يموت حتى يرى مسيح الرب فلما رآه أخذه بين ذراعيه وبارك وسبح مجد الله (يوحنا)، النبية سبحت الرب في الساعة التي رأت فيها المسيح وهتفت به في جميع المنتظرين... الفداء في أورشليم فلو كان المسيح مبغوضاً من (هيرودس) وأهل مملكته لكان أخذه وقتله سهلاً، وفي هذه الحال كان على سمعان وحنة ألا يخبرا عنه، لأن الروح يحذرهما من الأخبار عنه لما هو معنوم من حقد الوالي عليه وبغضه.

فهذا اختلاف بين الإصحاحين في المعنى لا يمكن الجمع بينهما في شأن ارتحال مريم وابنها بعد مولده، ولذلك اعترف به المحققون منهم مثل (نورثن) كما قال صاحب إظهار الحق[1].

اختلاف حول معرفة المعمدان لقريبه المسيح ولقائه به:

إذا قرأنا ما جاء في الإصحاح الثالث من (متى) نجد أن المسيح حينما جاء يتعمد[2] من يوحنا (يحيى بن زكريا) ومنعه يوحنا قائلاً: أنا محتاج أن أتعمد منك وأنت تأتي إليّ؟ ولكن المسيح أصرّ على أن يتعمد منه وحين تعمد وصعد من الماء نزل عليه الروح القدس مثل (حمامة).

وفي الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا أن يسوع حين أقبل على يوحنا (يحيى) ليتعمد منه لم يكن ليعرفه وما عرفه إلا بنزول الروح القدس عليه مثل (حمامة) من السماء فاستقر عليه.

وفي صدر الإصحاح الحادي عشر من إنجيل (متى) أن يوحنا (يحيى) لما

---

(١) انظر إظهار الحق جـ ١ ص ٥٦.

(٢) التعميد في العرف المسيحي هو الانغماس في ماء معين بعد النطق بكلمة الإيمان المسيحي وبعدها يصبح المعمد مسيحياً.

سمع في السجن بأعمال المسيح أرسل إليه اثنين من تلاسيذه وقال له أنت هو الآتي أم تنتظر آخر. ومثل ذلك قال (لوقا) في الاصحاح السابع من غير بيان أن يوحنا كان في السجن أو طليقاً.

فانظر أيها المنصف ترى أن يوحنا (يحيى) كان يعرف المسيح في قول (متى) الأول، ومن قبل نزول الروح القدس عليه. وفي إنجيل يوحنا أنه لم يكن ليعرفه إلا بعد نزول الروح القدس عليه مثل حمامة. وفي القول الثاني (لمتى) لم يعرف يوحنا المسيح حتى بعد نزول الروح القدس عليه مثل حمامة حتى أرسل إليه تلميذيه وهو في السجن ليتأكدا من حقيقته.

ويقول (لوقا) مثل القول الثاني (لمتى) من غير أن يبين كونه في السجن أم خارجه.

فهل يصح هذا التجاهل من يوحنا لقريبه مع ما بينهما من صلة القرابة وقوة الرابطة[1]، على أن المعلوم لدى الديانة المسيحية أن وظيفة المعمدان إن هي إلا التمهيد لمجيء المسيح والتنبؤ به كما هو مذكور في صدر إنجيل (مرقس) وإذا حصل عدم المعرفة من يوحنا للمسيح وهو الذي عمده، وبشائر النبوة بادية عليه فإن (سمعان) و(حنه) اللذين عرفاه وهو في المهد في الهيكل أصدق منه نبوءة.

هذا، وبمناسبة الحديث عن يوحنا المعمدان أذكر تناقضاً خاصاً به وذلك حين أخبر عنه (متى) بقوله (هذا هو إيليا) ١١ : ١٤. وجاء في إنجيل يوحنا أن اليهود سألوا من يوحنا المعمدان هل أنت إيليا؟ فأجابهم (أنا لست إيليا) ١ : ٢١. وهو تناقض. وقد يقال بأن يوحنا كذب حتى لا يعرفوه، لكن في هذا تجويز الكذب على الأنبياء، وإسقاط العصمة منهم محال لأن ذلك يؤدي

---

(١) يقول المسيحيون أن مريم أم المسيح بنت خالة اليصابات أم يوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا) عليهما السلام، وجاء في تفسير الالوس جـ٣ ص ١٤٧ أن ابن جرير أخرج من طريق ابن حريج عن ابن عباس قال: «وكان يحيى وعيسى ابني خالة وكان يحيى أكبر من عيسى بستة أشهر كما قال الضحاك وغيره».

الإنجيل كله أجزاء منه نحو (١٦٠٠) كتاب بعضها في القرن الرابع والخامس والبعض الآخر في القرن السابع والثامن حتى القرن الحادي عشر[١].

وعند الحديث عن تقسيمها يقول الدكتور (وليم): - «وأما تقسيمه أي العهد الجديد - إلى إصحاحات فكان في القرن الثالث عشر والذي أتى به الكردينال (هيوغره) ثم فصل الإصحاحات آيات في سنة ١٥٥١م رجل اسمه (ستيفس) فهذا التقسيم ليس من الوحي» وبالجملة فإن إنجيل المسيح قد ألقاه على تلاميذه شفاها كما قرر الدكتور (وليم) وجميع المسيحيين. وبدىء أول ما بدىء في تأليف إنجيل بعد المسيح بما لا يقل عن أربعين سنة بعدما نال النسيان من العقول كل منال فولدت الأناجيل أول ما ولدت مخلوطة بالعديد من الأفكار القريبة أو البعيدة عن المسيحية حسب أهواء كاتبيها. قال ديورانت:

«ويبدو أن ما تنقله الأناجيل من أحاديث وخطب قد تعرضت لما تعرضت له ذاكرة الأميين من ضعف وعيوب ولما يرتكبه النساخ من أخطاء أو تصحيح.

ومن كل ما تقدم يتأكد الدليل على عدم صحة ما يقال بالوحي أو الإرشاد من الله في كتابة أسفار العهد الجديد لأنه لا يمكن أن يوحي روح الله كلاماً يناقض بعضه بعضاً ولأنه «ليس الله إنساناً فيكذب ولا ابن آدم فيندم» عدد ٢٣ : ١٩ من أسفار التوراة.

وجاء أيضاً: «لا أنقض عهدي ولا أغير ما خرج من شفتي» مزمور ٨٩ : ٣٤ من التوراة.

وليت شعري ما هو مكان المحرفين والمدلسين في الإنجيل بعدما تقرر أن من غير أو بدل كتاب الله يستحق غضبه ومقته كما جاء ذلك في التوراة «لا تزيدوا على الكلام الذي أنا أوصيكم به ولا تنقصوا منه لكي تحفظوا

---

(١) المرجع السابق جـ١ ص ٥.

وصايا الرب إلهكم الذي أنا أوصيكم به. . .» تثنية ٤ : ٢ من التوراة.

وما دام قد ثبت أن الأناجيل ليست إلهامية وذلك بالأدلة القاطعة فلا أرى ضرورة للتعرض لأسباب بطلان إلهامية الرسائل لأني ألتزم بقول القس إبراهيم لوقا القائل بأن الرسائل[1] ان هي إلا شرح وبيان لما في الأناجيل وإذا ثبت بطلان إلهامية الأصل المشروع ثبت قطعاً بطلان إلهامية الفرع كذلك، فلذلك أعرضت عنها صفحاً ومع ذلك فإن بطلان كونها وحياً أظهر من أن يكشف عنه.

(١) الرسائل هي ما يعدل نصف العهد الجديد تقريباً فهو مؤلف من الأناجيل الأربعة وهذه الرسائل.

مفهوم الشعب اليهودي في ضوء الحقائق الدينية والعلمية

أتباع الديانة اليهودية الذين ينتشرون في الأرض على امتداد دول العالم وشعوبه المعقول والمتصور أن شأن الكثرة الكثيرة من عدد المنتمين لهذه الديانة شأن العديد من الشعوب التي تعيش أو تشترك مع غيرها في عقيدة دينية واحدة.

غير أن الغلاة المتطرفين من اليهود في ظل الحركة الصهيونية وارتباطها بالاستعمار العالمي كانوا بدعا بين الأمم وكانوا عدوانيين وعنصريين فاستحدثوا تصوراً عصرياً يربط أتباع الديانة اليهودية في كل العالم بوباط سياسي يتعدى كل دلالة الدين اليهودي ورسالته، ويبتعد به عن مقوماته، فأطلقوا على يهود العالم كله شعار «الشعب اليهودي» واعتبروا الشعب اليهودي هذا برغم التناقض الحاد بين ظروف جماعاته على امتداد كل المشاكل التي يعيشها العالم المعاصر «كياناً سياسياً واحداً» فلما كانت الدولة الإسرائيلية التي أقامها الاستعمار بالقهر والعدوان ارتبطت سياستها التوسعية بمفهوم ادعاءاتها العدوانية وهي أنها تمثل «الشعب اليهودي» على أرضه.

وأصبح مفهوم الشعب اليهودي، محور الارتكاز الأساسي الذي تقوم عليه الحركة الصهيونية والمصالح الاستعمارية ومحوراً أيضاً للمزاعم التي تقول أن ثمة علاقة قوية بل وعضوية تربط بين الدولة فيما تمثله وبين يهود العالم أجمع والذين هم أصلاً من غير رعايا الدولة، ويعيشون بالمواطنة في ظل أنظمة تختلف بالطبع عما تمثله إسرائيل، ومن هنا فإنه يصبح من المفيد النظر في

المقومات والأسس والأساليب التي وضعتها الحركة الصهيونية، صانعة إسرائيل ومحولة وجودها في هذه القضية بالذات قضية ادعاء إسرائيل وتمسكها بدلالة مفهوم الشعب اليهودي وتمثيلها لهذا الشعب، يستند ادعاء إسرائيل القائل بأن جميع يهود العالم ينتمون إلى كيان سياسي وقانوني واحد، هذا الكيان المسمى «بالشعب اليهودي» على عدد من المقومات بعضها قانوني كالاستناد إلى وعد واتفاقيات تضمنت بين نصوصها عبارة الشعب اليهودي كوعد بلفور وصك الانتداب، رغم أنهما من الناحية الشرعية لا يمثلان موقفاً قانونياً وبعض هذه المقومات قيم يهودية دينية تستند إليها لتجعل من اليهودية ديناً وقومية، وبعضها عنصري كالقول بأن اليهود يشكلون عنصراً جنسياً متميزاً، والبعض الآخر تاريخي كالقول مثلاً بأن تاريخ اليهود الفريد يكفي وحده لخلق الرباط القومي الشامل «للشعب اليهودي» إلى غير ذلك من المقومات(١).

وقبل إنشاء إسرائيل بخمس سنوات وقف بن جوريون أمام حشد بفلسطين ليعلن «أن يهود العالم يكونون شعباً واحداً في العالم، شعباً لا وطن ولا خلاص له إلا بالعودة إلى أرض الميعاد (أي فلسطين)(٢). وبعد أن تم إنشاء إسرائيل عام ١٩٤٨ اعتقد الكثيرون أن العمل السياسي للحركة الصهيونية قد انتهى بإعلان قيام الدولة وتوقعوا أن تتوقف هذه الدولة بمجرد أن أصبحت كياناً قانونياً دولياً، عن الادعاء بوجود أي علاقة سياسية أو قانونية بين يهود العالم وإسرائيل، إذ أن هؤلاء اليهود يعتبرون في نظر القانون الدولي رعايا ومواطنين في دول أخرى ويحملون جنسياتهم.

إلا أنه منذ اللحظة الأولى التي تلت إقامة إسرائيل جاء إعلان قيامها صدمة للكثيرين، فقد تضمن هذا الإعلان العديد من الإشارات التي تعني أن يهودالعالم يشكلون شعباً متميزاً له قوميته الخاصة به. وأن رسالتها الأولى

---

(١) مصطفى عبد العزيز «إسرائيل ويهود العالم» صادر عن مركز الأبحاث ـ التابع لمنظمة التحرير، سلسلة كتب فلسطينية ـ عام ١٩٦٩ م. صفحات ١٦ ـ ١٨.

(٢) Barret Livinoff Ben - Gurion of israel Weidenfied and Nilolson London, 1954, P. 75.

تنحصر في العمل على ضم جميع أبناء هذه القومية فقد جاء بمقدمة هذا الإعلان «انعقد المؤتمر الصهيوني الأول في سنة ٥٦٥٧ عبرية «١٨٩٧ ميلادية» بدعوة من ثيودور هرتزل الأب الروحي للدولة اليهودية، وأعلن المؤتمر حق الشعب اليهودي في تحقيق بعثه القومي في بلاده الخاصة به.

ثم يستطرد الإعلان في الفقرة الثانية منه فينسب لوعد بلفور وصك انتداب وعصبة الأمم تأكيدهم لوجود «الشعب اليهودي» وحقه في إقامة دولة، فقد جاء في هذه الفقرة: «... واعترف وعد بلفور الصادر في ١٩١٧/١١/٢ بهذا الحق وأكدعليه من جديد صك الانتداب المقرر في عصبة الأمم وهي التي منحت بصورة خاصة، موافقتها العالمية على الصلة التاريخية بين الشعب اليهودي وأرض إسرائيل واعترافها بحق الشعب اليهودي في إعادة بناء وطنه القومي».

ويذكر الإعلان في فقرة أخرى «دولة إسرائيل سوف تفتح أبوابها أمام الهجرة اليهودية لتجميع شمل المنفيين»، وكلمة المنفيين هنا تعني يهود العالم ممن يقيمون خارج فلسطين. ويختتم الإعلان بتوجيه نداء إلى الشعب اليهودي «في جميع أنحاء العالم» للالتفاف حول يهود أرض إسرائيل، ومؤازرتهم في مهمات الهجرة والبناء والوقوف بجانبهم في الكفاح العظيم لتحقيق الحلم القديم - «خلاص إسرائيل»[(١)].

ثم توالى بعد ذلك استخدام إسرائيل لاصطلاح «الشعب اليهودي» في تشريعاتها وقوانينها ووثائقها الرسمية، فعلى سبيل المثال تضمن أول قانون أصدرته إسرائيل عام ١٩٥٠ وهو قانون العودة.

إن دولة إسرائيل تعتبر نفسها من خلق وإبداع الشعب اليهودي، ووفقاً لهذه النظرة فإن إسرائيل - كما عبر بن جوريون - لا تعتبر نفسها دولة لمواطنيها

(١) راجع النص الإنجليزي لإعلان الاستقلال في مؤلف:
Josep Bam (ED.) Fundamental Laws of the State of Israel New York Twanye Publishers, 1961, P. 10.

فقط، بل هي دولة كل اليهود في جميع أنحاء العالم وبوسعهم جميعاً أن يصبحوا مواطنين فيها، فعندما صدر قانون العودة والذي يسمح لأي يهودي في العالم بالهجرة لإسرائيل واعتباره مواطناً عائداً من المنفى إلى وطنه فلسطين، علق بن جوريون ـ وكان وقتها رئيساً للوزراء ـ على هذا القانون بقوله «إن قانون العودة هو قانون البقاء التاريخي لليهود واستمرار للصلة القائمة بين اليهود وإسرائيل وخارجها، وإن هذا القانون يضع المبدأ الأساسي الذي تم بفضله إحياء دولة إسرائيل، كما سيعود إليه الفضل في بقائها ونموها وتحقيق رسالتها في الخلاص القومي».

وهناك وحدة في الرأي فيما ينادي به الزعماء الإسرائيليون والصهيونيون بشأن ما يسمونه «بالشعب اليهودي» إذ ترى ناحوم جولدمان ـ وقت أن كان رئيساً للمنظمة الصهيونية العالمية ـ يعلن «أن يهود العالم شعب واحد بمركزين حيويين، إسرائيل وبلاد المنفى وأحدهما يجب أن يزود الآخر بالأمن واستمرار الوجود».

كما وقف أبا إبان في اجتماع المجلس الصهيوني العام الذي عقد في القدس المحتلة في ١٩٦٦/١/١١ ليوضح وجهة نظر الحكومة الإسرائيلية في علاقة إسرائيل بيهود العالم فحددها على الوجه التالي «إننا نرى أنفسنا كمحور وكقلعة لشعب عالمي، وليس فقط كدولة صغرى محدودة بحدودها الجغرافية»، وهذه الأقوال تبرز اتفاق وجهتي النظر الإسرائيلية والصهيونية حول نوعية وطبيعة العلاقة بين يهود العالم وإسرائيل، فهي ترى أن جميع اليهود أياً كان موطنهم يشكلون أمة واحدة، وأن دولة إسرائيل هي الممثل الشرعي لذلك القطاع من الأمة المقيمة في صهيون، وأن المنظمة الصهيونية العالمية هي الممثل المخولى السلطات لباقي هذه الأمة المقيم خارج إسرائيل[١].

وقد أوضح أحد الكتاب الصهيونيين المقصود من عبارة «الشعب

(١) Moses Lasky Between Trath and Repose, The World Zionst orgnizatipn, Acj, San Francisco, California, 1960, P. 44.

اليهودي» فقال إنه اصطلاح جامع Collective Term مكون من اسم وهو «الشعب» People وصفة هي «اليهودي» Jewish» وإن مدلول كلمة «الشعب» طبقاً للقاموس الإنجليزي The shorter oxford English Dictionary مساوية لكلمة «أمة» Nation أو عنصر أو قبيلة ولذا فإن عبارة «الشعب اليهودي» تصف كياناً سياسياً أو طائفياً، ويضيف هذا الكاتب أن تضمين صك الانتداب على فلسطين لهذا الاصطلاح جعله يعني من وجهة نظر القانون الدولي «كياناً عرفياً سياسياً معترفاً به عالمياً»(١).

وإذا ما حللنا أقوال بعض الزعماء الإسرائيليين فيما يتعلق بالشعب اليهودي، نجد أن نظرتهم تقوم على أساس اعتبار اليهودية ديناً وقومية فبن جوريون يرى «أن العقيدة اليهودية لا تتمثل في الإيمان بالتوحيد ووجود إله واحد فحسب، ولكن يلازمها دوافع قومية وإقليمية هي التي أدت إلى ارتباط اليهود ارتباطاً روحياً عميقاً بأرضهم القديمة حتى أثناء إقامتهم في المنفى»(٢)، وانبثاقاً من هذه النظرة نجد أن إسرائيل تعتبر الجماعات اليهودية خارجها توابع للدولة اليهودية «أي إسرائيل»، كما تنظر إلى أفراد هذه الجماعات وكأنهم «إسرائيليين في المنفى»، فهي لا تتصور عدم إمكانية وجود أمريكيين أو إنجليز أو فرنسيين أو ألمان يهود، بل يهود فقط يعيشون في الولايات المتحدة أو المملكة المتحدة، أو فرنسا أو ألمانيا ويتخذون هذه الدول كمنفى لا كأوطان، ولكن ما هي خصائص المفهوم الإسرائيلي والصهيوني «للشعب اليهودي»؟.

إن المفهوم القائل بأن اليهود في العالم يؤلفون شعباً واحداً هو «الشعب اليهودي» له كافة ما يميزه كشعب وله قوميته اليهودية ووطنه القومي

---

(١) Ernest frankenstein, The Meaning of the term.
National home The Jewish Year Book of international Lay 1948, Rebin moss Jerusalem, (israel) P. 39.

(٢) Ben Gurion Looks Back, in Tolk Zith Moshe Pearlman Simon and Schuster, New York, 1965.

(إسرائيل)، يعتبر قلب القانون الصهيوني العام الذي يحكم نظرة إسرائيل ليهود العالم من غير رعاياها، واعتبار يهود العالم (غير الإسرائيليين) جزءاً من الشعب اليهودي المنتشر في جميع أنحاء العالم، وبمقتضاه سعت إسرائيل إلى تحديد نوعية وشكل علاقتها بهم[1] ولا تؤمن إسرائيل بوجود «الشعب اليهودي» واعتباره كياناً سياسياً عرفياً معترف به في القانون الدولي فحسب، بل ترى أن هناك علاقة قانونية بين الشعب اليهودي وإسرائيل، وإن هذا الشعب يعتبر كياناً مؤهلاً وصالحاً لتلقي وممارسة الحقوق والواجبات السياسية القومية تجاه دولة إسرائيل.

وأهم ما يميز المفهوم الإسرائيلي للشعب اليهودي استخلاصاً من التصريحات والأقوال والكتابات الإسرائيلية والصهيونية هو ما يلي:

١ ـ إنه كيان سياسي قانوني Politcat - leagateuctity بمعنى أنه يفرض نظاماً للحقوق والواجبات على يهود العالم تجاه دولة أجنبية أو وطن قومي هو (إسرائيل) ويتضح ذلك فيما أوردته صحيفة «الجيروزالم بوست» الإسرائيلية وشبه الرسمية في أحد افتتاحياتها عندما قالت «إن مبادىء الصهيونية والقانون الإسرائيلي ينصان على أنه لكل يهودي بعض الحقوق في هذا البلد (أي إسرائيل)[2] وهذا المفهوم ينشىء بطبيعة الحال علاقة سياسية ـ قانونية بين يهود العالم وإسرائيل من وجهة نظر القانون الدولي.

---

(١) W. T. Mallisson, In The lehal Problems concering the Juridical status and polical ac- tives of the Zionist organization Jewish a Study in international and U.S Law Wilfiam, and Mary Law Review, VOL G. SPRING 1968 NO, 8. PP. 556 - 639.

وقد قامت مؤسسة الدراسات الفلسطينية بإعادة طبعها ضمن سلسلة:
Monograph Series, No 190. P. 6.

جاء ذلك في صحيفة جيروزالم بوست الإسرائيلية في عددها الصادر بتاريخ ١٩٦٤/٥/١٠ في معرض ردها على ما ورد برسالة مؤرخة في ١٩٦٤/٤/٢٠ بعث بها فيلبس تالبوت مساعد وزير الخارجية الأمريكية للحاخام ألمن برجر، ونفى فيها اعتبار أن الشعب اليهودي كمفهوم من مفاهيم القانون للدولي.

(٢) Nemorandum from Elmen Berger of the Brother Danien case and the Berger - Mallison Rojest Pumph. Published by the American Councit par Judaism.

٢ - إنه كيان مفروض An involuntary Entfty وأول ما يفصح عن سمات فرضه أنه يشمل كل يهود العالم لمجرد أنهم يهود ويدون أي اعتبار للتفضيل أو الاختيار الفردي، ولا يضمن أي استثناء لمواطني أي دولة خارج إسرائيل فيهود العالم وجدوا أنفسهم. «متمين بلا إرادة منهم إلى دولة أجنبية على أساس العقيدة الدينية» يؤكد ذلك ما ذكره بن جوريون - وقت أن كان رئيساً للوزراء - بوصفه للعلاقة بين يهود العالم وإسرائيل بأنها «إلزامية وعضوية وتاريخية وحيوية».

٣ - إنه كيان يتعدى القوميات Trauanstionel entily فهو ليس قاصراً على اليهود الذين يعيشون أو سوف يعيشون في دولة إسرائيل بل موجه إلى جميع اليهود المقسمين خارج إسرائيل ممن لهم وضع قانوني ويحملون جنسيات الدول التي ينتمون إليها ويبدو ذلك واضحاً في خطاب ليفي اشكول رئيس الوزراء الإسرائيلي «السابق» الذي ألقاه أمام عدد من اليهود وذكر فيه «نحن إسرائيل نشعر أن هناك شعباً يهودياً واحداً في العالم أجمع».

هذا ولقد تأكدت الخصائص التي عرضناها لمفهوم «الشعب اليهودي» في مقررات المؤتمر الصهيوني العالمي الخامس والعشرين التي جاء بها ما يلي:

١ - كل يهودي في العالم جزء من مجموعة قومية واحدة (الشعب اليهودي).
٢ - كل يهودي عليه التزامات قومية تجاه إسرائيل.
٣ - الواجب القومي الرئيسي الذي ينبثق من عقيدته الدينية هو الهجرة لإسرائيل.
٤ - لا يمكن لأي يهودي خارج إسرائيل أن يعيش حياة يهودية كاملة.
٥ - كل يهودي خارج إسرائيل معرض لخطر الذوبان والاضطهاد(١).

(١) Loamand R. Suse; qn Zionisms I Year Plan The 25th World Sionest congress New York Acj, February 1961, P. 2.

ولكن ما الذي يربط أو يجمع (الشعب اليهودي) من وجهة النظر الإسرائيلية؟ يجيب بن جوريون على ذلك بأن «هناك وحدة قومية تجمع بين يهود العالم، وحدة تقوم على المصير المشترك وتراث تاريخي عظيم مشترك بالإضافة إلى الأماني المشتركة للمستقبل»(١)، ومعنى ذلك وفقاً لهذه المعايير فإن اليهود في جميع أنحاء العالم أمة(٢) ولأنه وفقاً لوجهة النظر الصهيونية، توجد أمة يهودية واحدة في الماضي والحاضر والمستقبل يتبعها كل يهودي في العالم أياً كانت جنسيته وإن هذه الأمة غير قابلة للتجزئة(٣)، وإن جميع يهود العالم يعتبرون أعضاء في الأمة اليهودية التي تمثل إسرائيل مركزها(٤).

وإذا ما تفحصنا النظرة الإسرائيلية والصهيونية ليهود العالم وفق مفهوم (الشعب اليهودي) والقائل بأن جميع يهود العالم أياً كان مكان وجودهم أو الدول التي ينتمون إليها يشكلون كياناً واحداً متميزاً، نجد أن هذه النظرة اقتبست الكثير من المفاهيم التي كانت تنادي بها النظرية الألمانية في القومية، فهذه النظرية تقوم على أساس أن جميع الأشخاص المنحدرين من الجنس الآري أياً كان مكان وجودهم أو نشأتهم أو الدول التي ينتمون إليها يدينون بالولاء الأول لألمانيا ويجب أن يصبحوا مواطنين للدولة الألمانية باعتبارها وطنهم الحقيقي(٥). وقد شاهد العالم ما سببته النظريات الألمانية المتطرفة من دمار للبشرية وكان اليهود في مقدمة ضحاياها.

وإذا كنا قد عرضنا خصائص المفهوم الإسرائيلي الصهيوني (للشعب

---

(١) Ben Gurion, Gredo, of a Jow Jow, Jerusalem Post, July 19, 1957.

(٢) هذا ما تنادي به الحركة الصهيونية أيضاً راجع:
Josep Helley The - forist Ides New York, Sebocken Book, inc 1944.

(٣) راجع دراسة تحليلية مقارنة للقومية اليهودية والقومية العربية في مقال:
Fagez Sagegh, The Enco anter of two idealogies.

التي نشرها النادي الثقافي العربي ببيروت ـ لبنان ـ ضمن كراسة أسماها:
Palestince collected papers, 1963, ico.

(٤) أكد ذلك رئيس المنظمة الأمريكية نقلاً عما ورد في مقال:
Richard korn, Zionisn, and Dual Eogatty Issuses Ac, J Spring 1962, P. 3.

(٥) Et Frankenstein Justice for my People, London, Nicholson and Waston 1943 P. 4 102.

اليهودي) والمقومات التي يستند إليها، فما هو موقف الحقائق الدينية والعلمية والتاريخية من هذا المفهوم؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه.

نظرة حول مفهوم الشعب اليهودي

عرضنا بإيجاز الإدعاءات الإسرائيلية والصهيونية حول ما أسمته «بالشعب اليهودي» والمقومات التي يستند إليها.

غير أنه يجدر بنا أن نشير إلى أنه كثيراً ما يشير الصهيونيون إلى أن عبارة «الشعب اليهودي» التي جاء ذكرها في وعد بلفور وتضمنها صك انتداب عصبة الأمم على فلسطين نحي وجود كيان قانوني سياسي يعرف «بالشعب اليهودي» وأن ذلك يعتبر من أهم الأسس القانونية التي تؤكد أن الشعب اليهودي كيان معترف به دولياً ويضم كافة اليهود في عضويته، وهذا البحث وإن كان غير مخصص بتحليل وعد بلفور وعدم مشروعيته والظروف السياسية والدولية التي رافقت إصداره وتعارضه مع وعود بريطانية أخرى أعطيت للعرب، إلا إننا سنتناول هذا الوعد من ناحية مدى صحة الاستناد إليه لتأكيد وجود «الشعب اليهودي» ككيان قانوني وسياسي شامل ليهود العالم[1].

لقد استغلت الحركة الصهيونية الأهداف الاستعمارية لبريطانيا وانتهزت فرصة الحرب العالمية الأولى لتحصل على وعد بلفور عام ١٩١٧ الذي تضمن «أن حكومة صاحبة الجلالة تنظر إلى إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل قصارى جهدها في سبيل تحقيق هذا الهدف، على أن يكون

---

(١) لمن شاء الاستزادة فيما يتعلق بظروف إصدار وعد بلفور يمكن الرجوع إلى:
J. M. N. Jeffries The Balfour Dentaration.

وهو الفصل الحادي عشر المنشور ضمن كتابه:
Palestine, The Reolity Longmans, Green and CO, 1959,

ومؤلف د. أسعد رزق (إسرائيل الكبرى) ـ سلسلة كتب فلسطينية رقم١٣ مركز الأبحاث ببيروت ـ من ص ٣٤٠ ـ ٣٨٧.

المفهوم بوضوح أنه لن يؤق بعمل من شأنه أن يغير بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى»[1]. وبهذا أعطى من لا يملك (أي بريطانيا) وعداً لمن لا يستحق أي (الحركة الصهيونية)، إذ أن بريطانيا لم تكن تملك قانوناً إعطاء مثل هذا الوعد.

وقد اعتبر أرنست فرانكشتين ـ وهو محام يهودي ـ إن تضمين وعد بلفور لعبارة «الشعب اليهودي» يعتبر أول اعتراف دولي في التاريخ الحديث بوجود «الشعب اليهودي» وأكدته القوى المتحالفة الرئيسية واعترفت به عصبة الأمم في صك الانتداب على فلسطين، ولذا فإنه استناداً إلى هذه الوثائق الدولية فإن وجود «الشعب اليهودي» بمدلوله الصهيوني الذي يعني أنه يشمل جميع يهود العالم ـ يعتبر أحد حقائق القانون الدولي التي لا تقبل النقاش، ثم يضيف إلى ذلك قوله أن الإصطلاح الوارد بوعد بلفور لم يستخدم من قبّل القانون الدولي وأنه استخدم بنية واضحة هي إعطاء الشعب اليهودي الحد الأدنى من الحقوق الإقليمية، وإن خلق الوطن القومي هو النتيجة المنطقية للاعتراف باليهود «كشعب» وإن الوطن القومي الذي خص به هذا «الشعب» قصد به خدمة كل أفراده أي جميع اليهود في العالم الذين يرغبون الاستفادة منه، وعلى هذا فإن كل يهودي العالم يعتبر طبقاً لهذا التفسير ساكناً محتلاً لفلسطين[2].

كما أخذ بنفس هذا المنطق أحد رجال القانون اليهود وهو (ن. فنبرج).

إذ يرى أن «الحق في الوطن القومي» منح «للشعب اليهودي» ككل ولم يمنح لأي جزء منه، فلم يمنح للصهيونين أو لليهود الذين استوطنوا

---

(١) Palest. .Rogal Commission Report, Presented by the Secretary of State for the col-oniesto tartaming by Command of His Majosty 1938, London, His Majesty's Stationary office, P. 22.

(٢) Eenset Frankerstien, Justice for my Peopple London. Nicholson and Watson, 1943. 102.
ويلاحظ أنه أدلى بهذا الرأي قبل إنشاء دولة إسرائيل بخمس سنوات.

في فلسطين أو الذين سيستوطنون فيها، ولكنه منح لكل اليهود أيّاً كان مكان وجودهم(١).

والتفسير الصهيوني والإسرائيلي لعبارة «الشعب اليهودي» الواردة في وعد بلفور وفقاً لما تقدم على أساس أنها تعني كياناً سياسياً وقانونياً يشمل جميع يهود العالم، فيه الكثير من المغالطات، ويتعارض مع التحفظين الصريحين الواردين بهذا الوعد اللذين ينصان صراحة على أنه «لن يؤتى بعمل من شأنه أن يضير بالحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى والنص الإنجليزي لهذين التحفظين هو كما يلي(٢):

It is to beoterly unders that nothing shall be done which my pregudice the civil and religious rights of existing non - Jewish Communities in Palestine and it is to be equally clearly understood. Nothing shall be doue which may Prejudice the rights or Polical statuserjoyed by Jews in any country other than Palestine.

ولذا فإن الإدعاء الصهيوني الإسرائيلي القائل بأن عبارة «الشعب اليهودي» تعني كياناً سياسياً قانونياً يمتد إلى يهود العالم، ويفرض عليهم نظاماً للحقوق والواجبات تجاه إسرائيل فيه مساس سواء بالحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى. ومما يؤكد ذلك أن إدفين منتاجود Eldvin Montagud وزير الدولة البريطاني لشؤون الهند ـ وهو يهودي معارض للصهيونية كان وراء إدخال هذا الشرط الذي يحفظ حقوق العالم خارج إسرائيل.

---

(١) اعتمدنا في نقل هذا الرأي على ما تضمنه مؤلف:

Moshe Menahin, The Decadence of Judaism in our Times Exposition Press New Youk, 1965, P. 417.

(٢) انظر النص الكامل لهذا التصريح في:

Palestine Pogal commission Report O. P. cit, P. 11.

«الدين اليهودي ومفهوم الشعب اليهودي له»

تحاول الصهيونية وإسرائيل أن تستغل القيم اليهودية القديمة لتؤكد بها وجود ما تسميه «بالشعب اليهودي»، فمن المعروف أن الحركة الصهيونية هي في جوها حركة سياسية علمانية وليست حركة دينية، ونشأت كرد فعل لحملات الاضطهاد واللاسامية التي عانى منها يهود شرق أوروبا، وقامت حجتها الأساسية على أن الحل الوحيد لهذا الوضع يتم بإنشاء دولة يهودية، وإضفاء الصفة القومية على اليهودية، فقد وجد القائمون على الحركة الصهيونية أنه من المفيد إعطاء ادعاءاتها بشأن «الشعب اليهودي» وغيره من المفاهيم الصهيونية قالباً دينياً عاطفياً يمكنه جذب تأييد العديد من الطوائف اليهودية المتدينة فقد استغل الزعماء الصهيونيون فكرة «العودة» الخيالية التي نسبوها للدين اليهودي كوسيلة لانتزاع مساندة يهود العالم للأهداف الصهيونية وإثارة حماستهم الدينية والعاطفية، كما استغلوا العديد من الحجج الدينية وشكلوها بالقالب الذي يروق لهم واستعملوها استعمالاً علمانياً واعياً لإخفاء أهدافهم السياسية الحقيقية، كالقول بأن إسرائيل ليست دولة مثل باقي دول العالم، بل لها رسالة خاصة تهدف إلى «خلاص الشعب اليهودي» المشتت في العالم، وأنها تعد بمثابة المركز الروحي لهم واعتمدت إسرائيل والصهيونية على قلب القيم اليهودية لتحول بهذا الدين اليهودي من دين إلى حركة سياسية قومية.

ولكن هل توفر الديانة اليهودية الرباط القومي الشامل الذي يؤكد وجود أمة يهودية وشعب يهودي بالمدلول السياسي الذي تدعيه إسرائيل؟ نجد

الإجابة على جانب من هذا السؤال في البحث الذي أعده نورتون ميزفينسكي Norton Mefyihsky وهو متخصص في التاريخ اليهودي وعنوانه «هل تعني الديانة اليهودية وجود شعب يهودي؟» فنجده يقول في مستهل بحثه «إن الانقسامات الحادة التاريخية والحالية بين الفروع المختلفة لليهودية تناهض فكرة وجود الكنيسة اليهودية «الشاملة» التي يكون الأفراد المنتمون إليها تجمعاً عرقياً واحداً، ويستشهد نورتون على ذلك بوضع اليهود الأمريكيين، إذ فضلاً عن أنه توجد بينهم اختلافات سياسية وثقافية واجتماعية وعرقية شاسعة باعتبارهم قدموا لأمريكا من دول ومناطق مختلفة، ويبدو ذلك واضحاً من الفروق الحادة بين اليهود الاشكنازيين واليهود السفرديين، توجد بين اليهود الأمريكيين اختلافات في المفاهيم والطقوس الدينية، فاليهود الألمان اعتنقوا الفلسفة الدينية الإصلاحية، ولم يمارسوا في معابدهم الطقوس والمزامير اليهودية الأرثوذكسية التقليدية، وأحدثوا ثورة في الطقوس الدينية متأثرين بالإصلاح في الكنيسة المسيحية البروتستانتية[١].

وتعتبر اليهودية الإصلاحية في نظر البعض نتاج التكيف الكامل للعقيدة الدينية اليهودية مع الحياة الثقافية الحديثة، وتعد بمثابة الذراع المتحرر للإيمان، وثمرة أساليب الدراسات النقدية[٢]، ونظرتها العامة للدين اليهودي نظرة متطورة ومرنة وتنظر للدين اليهودي على أنه عقيدة دينية فقط[٣]، بينما اليهودية الأرثوذكسية يتمسك أتباعها بشرعهم القديم بدقة وتزمت ويرون في اليهودية ديناً وقومية وتمثل هذه الطائفة اليمين المتطرف للاهوت اليهودي.

كما إن بعض المجموعات اليهودية رأت في الحركة الإصلاحية ابتعاداً أكثر من اللازم عن الشكل والتقليد اليهوديين، فحاولت إحداث تغييرات في

---

(١) Norton Mezvinsky Does the Jewish Religion Signify A - Jewish People, Issues Acj, Summer 1967, P. 7 - 9.

(٢) Elemer T, Clark the small sects in America, Abengdan Press, New York P. 162.

(٣) Ben M. Ediden, Jewi Community Life in American Hebrew Publishing Company, New York, 1947 P. 57 - 58.

بعض الجوانب الأساسية في الدين اليهودي، وعرفت هذه الفئة «باليهودية المحافظة» وحرصت هذه الفئة على أن تظل في إطار التقليد التاريخي، ولكنها في نفس الوقت قدمت اصطلاحات وتغيرات تجعل من اليهودية التقليدية أكثر قبولاً، وإن كانت قد فشلت في أن تتطور إلى فلسفة إيجابية وظلت سلبية الاتجاه والتوجيه.

ويخلص نورتون ميزفينسكي من بحثه إلى القول بأن مثل هذه الاختلافات بين أتباع الدين اليهودي تنفي وجود الرباط الديني الشامل بينهم، وتدل على أنه لا يقتصر على عنصر أو جنس معين بالذات، كما يؤكد أن أتباع هذا الدين ينتمون إلى فئات مختلفة ولا يمكن اعتبارهم مجموعة جنسية واحدة، بل عدداً من التجمعات الجنسية المختلفة التي تدين باليهودية وهذا يؤكد أن الدين اليهودي دين مفتوح للجميع مثله في ذلك مثل البروتستانتية والكاثوليكية.

ومن ناحية أخرى فإننا إذا تفحصنا النصوص الدينية اليهودية نجد أنه لم يرد بها عبارة «الشعب اليهودي» في أي نص من النصوص اليهودية المقدسة، وإنما استخدمها الزعماء الصهيونيون والإسرائيليون كتحريف لعبارة «شعب إسرائيل» التي تعني مجرد فكرة روحانية دينية بحتة، وتشير إلى الأفراد الذين اتخذوا من اليهودية عقيدة دينية لعبادة الله، ومما يؤكد ذلك قول الدكتور سلومون شِشتر Solomon Schechter الذي مات قبل إنشاء إسرائيل - «إنه يجب أن نتذكر أن لفظ «إسرائيل» لا تعني «أمة» بالمعنى العام لهذه الكلمة[1].

كما أعلنت الطائفة اليهودية الاصطلاحية منذ وقت مبكر سابق على المؤتمر الصهيوني الأول في وثيقة أسمتها Pittsbury Platform إننا لا نعتبر انفسنا أمة، مجرد مجموعة دينية، ولذا لا نفكر في العودة إلى فلسطين، ولا

(١) ورد هذا القول في مذكرة للمجلس الأمريكي لليهودية، صارت بتاريخ ١٩٥٣/٤/٨، ص ٤ ضمن نشرات هذا المجلس.

نرغب في القيام بعبادة قربانية تحت رعاية أبناء هارون أو إحياء أية قوانين تتعلق بالدولة اليهودية(١).

ولعل خير رد على الادعاء الإسرائيلي والصهيوني القائل بأن الدين اليهودي يؤكد وجود «الشعب اليهودي» ما جاء بكتاب المجلس الأميركي لليهودية وعنوانه «اليهودية دين لا قومية» فهو يؤكد أن «الشعب اليهودي» ليس له وجود بالمعنى الطائفي والسياسي، ففي الماضي كانت تستعمل عبارات مثل «الشعب اليهودي» وشعب إسرائيل، ولكنها دائماً كانت ترمز إلى تعميمات نفسانية تمثل استمرار وجود هذه الجماعة في التاريخ. وذلك لأنها جماعة تتعلق بالناحية الروحانية، أما في الأعوام الأخيرة فقد كان هناك من رغبوا في تحويل هذه الصفة الروحانية إلى جماعة طائفية قائمة بذاتها، أي بتحويلها إلى قومية، أو إلى أمة لها مميزاتها الجنسية أي التي تتعلق بالأجناس، ولذلك قام هؤلاء بتغيير نفس الألفاظ، فبإطلاقهم اسم «إسرائيل» على دولة سياسية غيروا معنى «شعب إسرائيل»، وأن عبارة «الشعب اليهودي» ما هي إلا تلفيق سياسي، فليست لها وجود في اليهودية، كما أنها لا توجد في أي نص من نصوص اليهود المقدسة. وتعد تحريفاً مبتذلاً لعبارة «شعب إسرائيل» وهذه العبارة هي المرادف الذي وضعته الصهيونية لأمة اليهود والستار الذي عملت على اخفائها به، فقبل إنشاء إسرائيل كان إصلاح «إسرائيل» له معنى دينياً صرفاً، فعبارة «شعب إسرائيل» الواردة في التوراة، كانت تشير إلى الأشخاص الذين يعبدون إلهاً واحداً ويعتنقون الديانة اليهودية(٢).

كما إن المجلس الأميركي لليهودية عارض اعتبار إسرائيل وطناً قومياً لجميع يهود العالم استناداً إلى أن غالبية اليهود في العالم لم يقيموا فيها على الإطلاق، ولا يرغبون في هذه الإقامة مستقبلاً، كما أن غالبية يهود العالم لا

---

(١) The Jewish Encyclopedia Rabbinicat Conference 1905 P. 215.

(٢) Elem Berger, Jurdaism or Jewish Nationalism, the Alternative to zionism, Benk; an Associates, New York 1957 PP. 71 - 72.

يدينون بالولاء السياسي لها(١). فضلاً عن أن وصف إسرائيل «بالدولة اليهودية» يعتبر جزءاً من التضليل الصهيوني المرتبط بادعاء «الجنسية اليهودية» التي يراد فرضها على يهود العالم كما أنها غير سليمة نظراً.لأن إسرائيل تضم أفراداً مسلمين ومسيحيين وغيرهم من ذوي المعتقدات الدينية الأخرى، كما تضمّ عدداً من العلمانيين وربما المعادين للدين بالإضافة إلى مواطنيها من اليهود، وحتى منذ ألفي سنة لم يكن هناك كيان سياسي يمكن أن يطلق عليه اسم «الدولة اليهودية»(٢).

ومحاولة إسرائيل ربط مفهومها للشعب اليهودي بالدين، لا تتمشى مع الاتجاه السائد في العالم، فلقد تعدت الأديان الرئيسية في العالم حدود جنسها ولم تعد أية ديانة مقتصرة على عنصر أو جنس معين، فالإسلام والمسيحية مثلها دينان يضمان أجناساً وطوائف وشعوب مختلفة ولا تشذ اليهودية بأي حال من الأحوال عن هذا النمط، فهي تضم أتباعاً من أصل روسي وأميركي وألماني وهندي وإنجليزي ومجري.. الخ. ولا تتقيد باعتبارات جغرافية أو عنصرية، فهي تمثل إيماناً دينياً يمكن لأي فرد في العالم أن يعتنقها وليس من المعقول - للادعاء الصهيوني الإسرائيلي القول أن اليهودي الفرنسي واليهودي الروسي واليهودي الألماني ينتمون إلى أمة واحدة أو شعب واحد لمجرد أنهم يدينون بدين واحد وهو اليهودية.

والادعاء بوجود قومية أو أمة يهودية أو شعب يهودي على أساس ديني، وادعاء دولة من الدول حق الولاية على اتباع دين معين يعتبر خطوة انتكاسية انتهى أوانها. فالعالم لم يعد يعيش في عصر الإمبراطورية الرومانية المقدسة،

---

(١) Statement By Clearence L. Coleman opening of Eastorn Regionot Office,' Washington D. C., Oct 7 -1958, P. 3.

(٢) Me; orandum outining, The Principles of the American-councit for Jurdaism and Server- al problems created by confusion of jurdaism with the Nationatism of a Foreign state, present to the secretary of the stake washington D.C. April 8, 1953, PP. 2-3.

وعن علاقة الدين بالدولة في إسرائيل يمكن الرجوع إلى مؤلف د. أسعد رزق الدولة والدين في إسرائيل - سلسلة دراسات فلسطينية رقم ٣٧ مركز الأبحاث - بيروت - ١٩٦٨.

بل في القرن العشرين قرن الانفتاح والتحرر والتطور العلمي، ولقد كانت كلمة يهودي ولا تزال تدل على شخص ينتمي إلى الدين اليهودي بنفس الطريقة التي تدل بها كلمة مسيحي على شخص ينتمي إلى الدين المسيحي أو المسلم الذي ينتمي إلى الدين الإسلامي، وادعاء الصهيونية وإسرائيل بأن كلمة اليهودي واليهودية تشير إلى وجود قومية معينة وهي القومية اليهودية، وشعب معين هو الشعب اليهودي له قومية مميزة يعتبر كما قدمناه ادعاء غير صحيح من الناحية الدينية فقد اتخذت الزعامات الإسرائيلية والصهيونية الدين كأداة من أدوات الاستغلال السياسي لتحقيق أطماع سياسة لا تمت بأية صلة للدين اليهودي، وإذا كنا قد عالجنا موقف الدين من المفهوم الصهيوني الإسرائيلي «للشعب اليهودي» فما موقف العلم منه؟.

مفهوم الشعب اليهودي والحقائق العلمية:

عندما تردد الصهيونية وإسرائيل أن اليهود في العالم يشكلون كياناً متميزاً وشعباً منفصلاً له خصائصه، إنما تجعل من نظرية الجنس أو العرق أساساً جوهرياً لها، والنظرية العنصرية ليست غريبة على الحركة الصهيونية بل هي متأصلة فيها منذ قيامها، فتيودور هرتزل (الأب الروحي للصهيونية) يردد في كتابه الشهير «الدولة اليهودية» إن أصل اليهود يختلف عن سائر الأصول البشرية وأنهم يشكلون شعباً واحداً وجنساً متميزاً... وإن عليهم أن يتمسكوا بهذه الفوارق التي تميزهم عن الآخرين من أجل الحفاظ على عنصرهم، فهل يوجد من الناحية العلمية جنساً أو عنصراً يمكن تسميته عنصراً يهودياً (Jewish Race)[1].

إذا نظرنا إلى الواقع نجد أن يهود العالم لا يكونون «شعباً واحداً» أو «أمة واحدة» أو وحدة جنسية منسجمة بالمعنى السليم استناداً إلى آراء علماء الأجناس والسلالات البشرية. وإذا كان بعض المتعصبين من اليهود يعتقدون

---

(١) Theoder Henzi the Jiwish State, Fourth Edition London 1946, PP. 15, 25, 27.

بأنهم سلالة عناصر سامية نقية ممتازة، فإن هذا الاعتقاد لا تؤيده الأبحاث الأنتروبولوجية، فمن الثابت وجود فوارق وتباين واضح في المميزات الجنسية للجماعات اليهودية المنتشرة في جميع دول العالم فهم ينحدرون من شعوب وسلالات متعددة ومتباينة ويؤكد ذلك جوان كوماس Juan comas أستاذ التاريخ الطبيعي للأجناس البشرية في الجامعة الوطنية بمكسيكو فقد أعد بحثاً بعنوان «أسطورة الجنس اليهودي» The Mythez of Jewish Race رد فيه أنتربولوجيا على المزاعم الصهيونية والإسرائيلية القائلة بانتهاء يهود العالم إلى كيان عنصري واحد تسميه «الشعب اليهودي»[1] ونظراً لأهمية هذا البحث فإننا سنعرض لبعض الآراء الواردة به.

ففي مستهل بحث جوان كوماس نجده يؤكد الحقيقة التي يظهرها تاريخ الأجناس البشرية والتي توضح أن اليهود غير متجانسين كعنصر وأنه ليس هناك أي أساس للادعاء القائل بوجود جنس يهودي «أنتروبولوجيا» فهجرة اليهود المستمرة خلال التاريخ وعلاقتهم بمختلف الأمم والشعوب قد أوجدت شيئاً من التهجين وتكفي للتدليل على ذلك.. مقارنة يهودي من روتردام القوي الجسم، ويهودي من سالونيكا البراق العينين الهزيل الجسم، فاليهود يظهرون كمجموع تبايناً من ناحية التركيب الجسماني.

ثم يضيف جوان كوماس أن التحليل العام لليهود وتصنيفهم تبعاً لأصلهم ينتهي بنا إلى المجموعات الآتية:

أ ـ المنحدرون من اليهود المهاجرين من فلسطين وهم قلة.

ب ـ المنحدرون من الاندماج بين يهود من أصل آسيوي مختلط أو بين اليهود ومجموعات بشرية أخرى، وهم ما يمكن تسميتهم بسلالة تهجين التهجين.

جـ ـ اليهود من الناحية الدينية فقط حيث أنهم من ناحية التاريخ الطبيعي

(1) Juan comas, The Ngth of Jewish Race, Issues Acj, Winter, 1965 - 1966, PP. 21 - 24.

للأجناس البشرية ليس لهم أي صلة بيهود فلسطين، وهم عبارة عن أفراد من أصول بشرية أخرى اعتنقوا اليهودية، والمثال الواضح لهذه الفئة «بولان» ملك الخزر الذي اعتنق اليهودية عام ٢٤٠ م مع كثيرين من نبلائه وأتباعه، كما أن هناك عدداً كبيراً من اليهود في بولندا وجنوب روسيا يمكن نسبتهم إلى هذه الفئة.

وهناك شواهد تاريخية عديدة تؤيد حقيقة اختلاط وامتزاج العناصر اليهودية بالشعوب التي عاشوا بينها، منذ زمن بعيد فقد صدرت عدة قوانين في فجر المسيحية كانت تحرم الزواج بين المسيحيين واليهود، مثل دستور ثيودوسيدس الثاني في القرن السادس الميلادي والقوانين التي أصدرتها السلطات المسيحية في توليد عام ٥٨٩ وفي روما عام ٤٧٣ الميلادي، وكذلك القوانين التي أصدرها لاديسلاس الثاني ملك المجر عام ١٠٩٢، وضرورة التحريم في هذه القوانين توحي بأن الزواج بين اليهود والمسيحيين كان أمراً شائعاً ومألوفاً كما قدرت نسبة الزيجات اليهودية في ألمانيا التي تجمع بين شريكين يهوديين في الفترة ما بين عامي ١٩٢١، ١٩٢٥ بـ٥٨٪، وتلك التي تجمع بين شريك يهودي وآخر غير يهودي قدرت بـ٤٢٪ وقد عقدت في برلين عام ١٩٢٦ ـ ٨٦١ زيجة يهودية كاملة و ٥٥٤ زيجة مختلطة، وهذه الأرقام لها دلالة خاصة إذا أخذنا في اعتبارنا العدد الكبير من الأزواج الذين أصبحوا يهوداً دون أن يكون لهم أي صلة باليهودية.

وهكذا يصبح مفهوم الشعب اليهودي في ضوء الحقائق العلمية والدينية المشكلة الحقيقية التي ولدتها المزاعم الصهيونية من اقتباسات عرقية وعنصرية عرفت على مدى التاريخ بتزييف الحقائق وممارسة العدوان.

الفهـــرس

الباب الرابع

الباب الخامس

الباب السادس

الباب السابع

عالم الكتب عالم الكتب

عالم الكتب عالم الكتب

